الدكتور سعيد إسماعيل على

ثقافة المقاومة



ثقافة المقاومة

الدكتور
سعيد إسماعيل على
أستاذ أصول التربية - جامعة عين شمس



بسم الله الرحمن الرحيم

علي ، سعيد إسماعيل .

ثقافة المقاومة / سعيد إسماعيل علي . - ط ١ . - القاهرة :

مكتبة عالم الكتب ، (٢٠٠٨) ٣٠٤ ص ؛ ١٧×٢٤سم

رقم الإيداع : ٢١١٧٤ / ٢٠٠٨

تدمك : 6 - 673- 232 - 977 تصنيف ديوى ٣٠٢,٣

المطبعة : أبناء وهبة محمد حسان

١ - الإرادة الاجتماعية .

أ- العنوان

عالم الكتب

نشر • توزيع • طباعة

★ الإدارة :

١٦ شارع جواد حسني - القاهرة

تليفون : ٢٣٩٢٤٦٢٦

فاكس : ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٩٠٢٧

★ المكتبة :

٣٨ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٢٣٩٢٦٤٠١ - ٢٣٩٥٩٥٣٤

ص.ب : ٦٦ محمد فريد

الرمز البريدي : ١١٥١٨

★ الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

★ رقم الايداع ٢١١٧٤ / ٢٠٠٨

ISBN: 977-232-673- 6

مطبعة أبناء وهبه حسان

٢٤١ (أ) ش الجيش - القاهرة

تليفون : ٢٥٩٢٥٥٤٠

E-mail : hassaanpress@hotmail.com

★ الموقع على الإنترنت : www.alamalkotob.com

★ البريد الإلكتروني : info@alamalkotob.com

مقدمـــــــة

عندما قال المولى سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز فى الآية ٧٢ من سورة الأحزاب (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) كان من الطبيعى أن يتساءل المفسرون عن طبيعة هذه " الأمانة " التى أشفقت من حملها السموات والأرض ، بينما تطوع الإنسان ليتحمل مسئولية حملها ؟

ومن أقرب التفسيرات إلى عقل الكاتب حقا هو ما ساقته الدكتورة عائشة عبد الرحمن " بنت الشاطئ " فى كتابها (مقال فى الإنسان) من أن المقصود بها هو " الإرادة " ، ذلك أننا إذا تأملنا فى كافة المخلوقات لم نجد لديها إرادة تتيح لها فرصة الاختيار بين عدة بدائل ، مما يقتضى التفكير فى أمور كثيرة ، وأن الإنسان هو وحده المالك لها ، ومن أجل ذلك استحق " المساءلة " و " المحاسبة " ، والثواب والعقاب ٠

وأن تنطوى طبيعة الإنسان على " إرادة " ، فمعنى ذلك ألا يقف مما يجرى حوله من أحداث موقف المتفرج ، وأن يكون مجرد منفعل بما يحدث ، بل من الضرورى أن يستثمر هذه الطاقة الإلهية (الإرادة) فى تبديل ما حوله بحيث يجعله أكثر ملاءمة له ، وأن يتجاوز دائما ما هو عليه من حال لينتقل إلى ما هو أفضل ، ومن أجل ذلك كان هو الكائن الوحيد الذى يتقدم ويتطور٠

وإذا قلنا أن " المقاومة " هى من الساحات المهمة لتمكين الإرادة من ممارسة فعلها ، فنحن لا نبالغ ، فأن تقاوم معناه أن ترفض ما يسعى البعض لفرضه عليك بغير وجه حق ، ومعناه أن ترفض ما أنت عليه من سوء حال وتسعى إلى التغلب على الصعاب وتهزم العقبات ٠

وهكذا إذا قلت أن الإنسان كائن حى ذو إرادة ، تعبيرا عن طبيعته وكنهه ، فهذا يعنى أن تصفه بالقدرة على المقاومة ، والعكس صحيح ، أى أنك إذ تقاوم

، فهذا يعنى أنك تمارس إرادتك ، وأن تمارس إرادتك ، معناه أنك تمارس إنسانيتك .

إننا نرى أحيانا بعض الحيوانات التى قد ترفض سلوك ما قد يفرضه الإنسان عليها ، وتظهر علامات غضب ، الذى قد يتحول إلى هجوم ، بحيث يمكن القول بأن هذا مظهر مقاومة ، ونحن لا ننكر هذا من الناحية الشكلية ، لكن المقاومة التى نراها فى هذه الحالات تكاد أن تكون فعلا غريزيا وكأن الحيوان قد " يُرمج " عليه ، وخاصة عندما يرى خطرا يتهدده . إنها ليست مقاومة نتيجة تفكير واختيار بين بدائل ، فهو دائما ما يسلك مسلكا واحدا .

ولو تتبعت تطور النهضة البشرية ، فسوف تجد أنه تطور لقدرة الإنسان على المقاومة ، فظروف المناخ غير المناسبة ، وسعى الإنسان إلى مقاومتها ، دفعته دفعا إلى البحث والكشف ، حتى وصل إلى ما وصل إليه من اكتشاف قوانين وأنظمة وأجهزة تخضع له المناخ بحيث يلائمه .

وكل صور التقدم الطبى ، هى مقاومة لكل صور المرض التى هاجمت – وما زالت – الإنسان .

ولابد من ملاحظة أن المقاومة فى كل هذا وذاك وغيره من مظاهر التقدم ، ما كانت لتؤتى أكلها لولا أنها قامت على معرفة ، واستندت إلى قوانين وسنن ومبادئ وقواعد .

ولذلك إن شئت أن تفرق بين أمة متقدمة وأخرى متخلفة ، فلك أن تقيس مقدار ونوع المقاومة الممارسة هنا وهناك .

ليست المقاومة إذن فعلا مسلحا يقوم به من وقع فى براثن احتلال أجنبى ، أو وقع تحت نير قهر وظلم ، بل هى ، بالإضافة إلى هذا وذاك ، مقاومة التخلف ، ومقاومة للمرض ، ومقاومة للضعف .

ولو تأملت جيدا فى الأوامر الإلهية لنا بأن ننهى عن المنكر ، فسوف تجد أنها دعوة إلى المقاومة ... مقاومة كل ما يمكن أن يفت فى عضد الأمة ،

ويؤدى إلى فسادها ، فى كافة المجالات ، السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، وليست مقصودة فقط ، كما يتصور البعض فى المسائل الأخلاقية الفردية مثل السرقة وشرب الخمر والزنا ولعب الميسر ، وما شابه ، فالمنكر الذى يصيب مجمل جسد الأمة هو منكر أفدح وأخطر ، يستنفر بالضرورة أكبر قدر من المقاومة ، وأشد أنواع المقاومة فاعلية وضراوة .

وأنت أيضا إذ تتأمل فى العديد من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى ضرورة " الجهاد " تجد أنه فعل " مقاومة " من الطراز الأول ، مع التأكيد مرة أخرى أن الجهاد – مثل المقاومة – ليس فقط بالسلاح والنار والبارود ، وإنما هو بالعدل ، وبالمعرفة ، وبالإحسان ، وبالمعروف ..أى بكل ما يضيف إلى قوة الأمة .

وأبرز ما يؤكد الوجه التربوى للمقاومة والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هو تنبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته ، بعد العودة من إحدى الغزوات أنهم رجعوا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ..الجهاد الأصغر هو الحرب والقتال وحمل السلاح وإسالة الدماء على طريق الحق ، أما الجهاد الأكبر ، أو قل ، المقاومة الأكبر ، فهى مقاومة النفس ..مقاومة الظلم ..مقاومة القهر ..مقاومة الذل ..وكل ما يؤخر الأمة ، ويضعف من شأن أفرادها .

ولو تأملت أيضا قول المولى عز وجل فى الآية ١١ من سورة الرعد (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) فسوف تجد أنه يشير إلى أقصى استعمالات الإرادة ، وهو تغيير النفس ، والذى هو المقدمة الضرورية لتغيير أحوال الأمة ، وما كان ذلك إلا لأن تغيير النفس يتضمن بالضرورة مقاومة صعبة الطريق ، شاقة حقا .

وهكذا أردنا بكل موضوعات ، أو ، لنكن أكثر دقة ، بكثير من موضوعات الكتاب الحالى أ، ن نرفع راية المقاومة ، داعين القارئ أن يتعاون معنا فى

رفعها ، ذلك أنه لا داعى لإبداء الشكوى والتذمر المكتـوم ، إذا ظللنـا هكـذا مستسلمين لما يحدث لنا فى مجالات شتى .

إن مصر تمر بفترة لا نبالغ إذا قلنا أنها من اسوأ الفترات التى مرت بها ، على الأقل فى تاريخها المعاصر ، حتى أصبح الواحد منا ، عندما يستقبل يوما جديدا ، يقول بينه وبين نفسه " يا رب استر " ، فمن غرق أكثـر مـن ألـف مصرى فى البحر الأحمر ، إلى طوابير مستمرة على السلع الـساسية ، إلـى التظاهرات والاعتصامات المختلفة ، إلى تسرب أسئلة امتحانات ، إلى حـالات غش كبيرة ومنتشرة ، إلى فساد بعض من درجنا علـى تـسميتهم " برجـال الأعمال " بينما الأصح أن نسمى هذا النفر " شياطين الأعمال " ..إلى حريـق ضخم يشتعل هنا أو هناك ، إلى سقوط عشرات صرعى تحت عجلات قطار ، إلى آلاف يسقطون شهريا على الطرق العامة ، بحيث لابد أن نتأكد بناء علـى هذا أننا نعيش مجتمعا قد أصيب بشروخ هيكلية تقتضى التنادى إلى المـسارعة بالسعى إلى الإنقاذ ، وأن نرفع راية الشعار الذى رفعه الراحل خالد محمد خالد عنوانا لأحد كتبه (هذا ..أو الطوفان) !

ولابد أن أعترف بأن عددا من المقالات المنشورة بين دفتى الكتاب قـد لا تحمل ما يفيد مقاومة مباشرة ، لكننا أدرجناها على أساس أن أى نقد لوضع ما ، سياسيا كان أو اجتماعيا أو ثقافيا ، هو صورة من صور المقاومة .

نسأل الله أن يسدد على طريق الحق والخير خطانا ، إنه نعم المولى ونعـم النصير ....

المؤلف

مصر الجديدة فى ٢٠٠٨/٩/١٠

ثقافـــة المقاومـــة*

حفلت الصحف الحكومية بصفة خاصة فى الفترة الأخيرة بحديث مستفيض عن حركة لنشر ودعم ما يسمى " بثقافة السلام " ، ولا نقصد بحديثنا عن " ثقافة المقاومة " مجرد المخالفة والمعارضة ، وإنما نقصد " المكاملة " – نسبة إلـــى التكامل – لعقيدة نؤمن بها ، وهى ألا ثقافة للسلام إن لم تدعمها ثقافة للمقاومة وتواكبها ، كيف ؟

دعنا نتفق أولا – بغض النظر عما يؤمن به كل منا إيمانا شخصيا – أننـــا نعيش فى عالم يقوم على " الصراع " ! صحيح أن هناك من يتحـــدثون عـــن " الجوار " و " التعايش " ، لكن هناك فرق بين أن يكون موضوع الحديث " مـــا ينبغى أن يكون " ، أو " ما نتمنى حدوثه " ، وبين ما هو واقع وحادث بالفعل ٠

وعلى سبيل المثال ، فكاتب هذه السطور يؤمن بما أكده المولى عز وجـــل مما جاء فى قرآنه المجيد من أنه خلقنا شعوبا وقبائل " لتعارفوا " ٠٠والتعارف اتجاه إلى " التعايش " ، وهو أيضا تعبير عن نزعة إلى سيادة " السلام " ، بين الشعوب ، فمع التأكيد على " الاختلاف " و " التباين " بين الأمـــم والـــشعوب ، لكن هذا الاختلاف والتباين بدلا من أن يكون مدعاة للعراك والتطاحن والصراع ، لابد أن يكون سبيلا للتعاون والتضافر ، حيث أن الاختلاف يعنى أن لديك ما ينقصنى ، ولدى أنا ما ينقصك ، ومن ثم فحبذا لو أعطيتنى بعض ثمرات مـــا تختص أنت به ، وأعطيك أيضا بعض ما أختص به أنا ٠

وهذا الأساس الاجتماعى لضرورة التعـــاون والتضافر مما اهتم به المفكر

---

* نشر جزء فى جريدة الوفد فى ٢٠٠٦/١١/١٨ ، وجريدة المصريون الإلكترونية ٢٠٠٦/١١/١٥ ، ونشرت كاملة فى جريدة الدستور فى الفترة من ٢٠٠٨/٢/١٧ إلى ٢٠٠٨/٣/١٦

المعروف (ابن خلدون) فى مقدمته الشهيرة ، وكتب عنه بشئ من الاستفاضة .

ذلك هو " ما ينبغى أن يكون " ، فهل هو " كائن " بالفعل ؟

نكذب إذا كانت الإجابة بالنفى ...

كما نكذب لو كانت الإجابة بالإيجاب ... كيف ؟

لأن الواقع ينبئ بأنه يصدق فى مجالات ومواقف ، ولا يصد فى مجالات وأحول أخرى ..

ففى كل لحظة هناك تبادل فى الخدمات والمنافع بين كل الناس ..

فأنا – مثلا – أُعلّم أبناء الآخرين ، لأن مهمة التعليم هى ما أستطيعه وأتقنه – أو هكذا من المفروض – وما أملكه منها يفيض عن حاجتى ، وهناك آخرين يملكون ما أنا بحاجة إليه ، مثل الكساء والغذاء وغيرهما مما يفيض عن حاجتهم ، فيكون تبادل وتفاعل ..

والشئ نفسه ، يحدث بين الدول والجماعات والشرائح الاجتماعية .

لكننا لا نعدم أن نرى صورا أخرى مناقضة تمثل " صراعا "، تراها – مثلا – فى الجامعات ، فى تولى المناصب – مثلها فى ذلك مثل غيرها من المواقع والهيئات والمنظمات ، ويحلو لكثيرين أن يقولوا إن هذا " تنافس " ، وليس " صراعا " ، ونقول مرة أخرى : هذا ما ينبغى أن يكون ، لكن عندما تستخدم فى التنافس أساليب لا أخلاقية ، سواء العلنى منها أو غير العلنى ، والاستعانة بقوى أخرى ، والسعى إلى الطعن فى الطرف الآخر ، والدأب على التفريق والتلويث ، فليس هذا تنافسا وإنما هو صراع !

منذ أن بدأت الحياة البشرية ، قدم ابنا آدم قربانا ، وكان هذا " تنافسا " ، فلما تُقبل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر ، لأسباب منطقية وأخلاقية بطبيعة الحال يعلمها المولى سبحانه ، سعى الذى لم يتقبل منه إلى قتل أخيه ، فلم نعد بالتالى أمام تنافس ، بل أمام صراع !

وهكذا نستطيع أن نقول فى كثير من الحروب التى نشبت ، وأشهرها الحرب التى شنها النازيون والفاشيست منذ عام ١٩٣٩ ، ولم تنته إلا فى عام ١٩٤٤ . كانت صراعا متوحشا ، ولم تكن تنافسا ، حيث سعت أطراف إلى أن تنفرد هى بالقوة والسيطرة ، ولا يكون أمام الآخرين إلا الاتباع والانصياع ، بحيث يكون الخير كله أو معظمه لمن يملك القوة ، و ما على الضعيف إلا الرضا بالفتات والحد الأدى ، وربما ما يقل عنه .

وعندما يعيش العالم حالة اغتراب أخلاقى ، وبعدا عن القيم الدينية الصحيحة ، يكبر منطق الصراع ويتوحش ، وهو ما نشبهه بعالم الغابة ، فالأقوى هو الذى يفرض منطقه ومصالحه .

ونحن نعيش فى العالم مثل هذه الحالة ...

انظر إلى منطقتنا ...العالم العربى ..

لظروف متعددة لا محل للخوض فيها الآن (وإن كان من الواضح أنها كانت غاية تم تحقيقها بالفعل) أصبح مجموع الدول العربية كله لا يستطيع أن يساوى القوة الإسرائيلية من الناحية العسكرية ، وعديد آخر من مؤشرات القوة ، فماذا تكون النتيجة ؟

كل ما يصب فى صالح إسرائيل وحمايتها وتقويتها ، لابد من عمله وتنفيذه ومباركته وحمايته ...

وكل ما يصب فى مصلحة العرب ويؤدى إلى إضعافهم وتفريقهم ، لابد من النيل منه ومحاصرته واستصدار القرارات الدولية التى " تُركّعه " ، وتجمده ، وتكاد تسحقه ...

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعد وأن تحصى ، فكم من عشرات القرارات الدولية التى صدرت ضد إسرائيل ، ولم تنفذها ، لكن أحدا لا يتكلم ، لأنها من الأصل كانت تصدر فاقدة الفعالية ، حيث كانت تصدر غالبا خارج ما يسمى بالفصل السابع ، وهو الأمر العكسى ، بالنسبة لبعض الدول العربية ،

حيث كان لابد – غالبا – من أن تصدر القرارات الخاصة بها وفقا للفصل السابع الذى يتضمن عقوبات فى حالة عدم التنفيذ !

ووقوف أمريكا المستمر ضد أى قرار يعرض على مجلس الأمن يمس الماصلح الإسرائيلية معروف ومشهور ٠

ويتم تجريف عشرات المنازل الفلسطينية ، ويُغتال عشرات الفلسطينيين ، فلا يتحرك أحد ولو بالكلام ، حتى من زعمائنا الميامين ٠٠

وانظر لو قتل إسرائيلى ، كم من تصريحات تملأ الدنيا عن الوحشية الفلسطينية ، والأنباء التى تكرر ما حدث فى كل نشرة أخبار فى الدنيا كلها ، ويهب زعماء مأجورون ليندوا ويستنكروا قتل الأبرياء وينقدوا " التهور " العربى ، والمغامرات غير المحسوبة !

لماذا يحدث كل هذا وغيره كثير ؟

لأن موازين القوة أصبحت تميل ميلا شديدا إلى الجانب الإسرائيلى ، وتكاد تغيب تماما عن الجانب العربى ، لتحل محلها مظاهر متعددة لوهن مخجل وضعف ذليل !

فبماذا يمكن أن توصف تلك العلاقة بين الطرف الإسرائيلى والطرف العربى إذن؟

تنافس ؟ تعاون ؟ تعايش ؟ مسالمة ؟

النتيجة الطبيعية هى وقوع الطرف العربى حتما تحت طائلة الخنوع والرضا بما يقع أيا كان نوعه وأيا كان اتجاهه ٠٠

هنا تصبح الدعوة إلى ثقافة السلام داخل المنطقة العربية دعوة إلى الخنوع والرضا بما يحدث من تركيع وإذلال ٠٠

والغريب ، أن نلح على مثل هذه الدعوة على ثقافة السلام بيننا نحن الراكعين ، المهزومين ، ولا يكون هناك جهد مماثل لدى الطرف الآخر ، بل إن ما كان يسمى فى إسرائيل حركة السلام ، أخذت تضعف شيئا فشيئا حتى

أصبح وجودها شبحيا ، وعلى العكس من ذلك تتزايد قوى اليمين والتطـرف ، وآخرها ما حملته الأنباء من دخول حزب إسرائيل بيتنا الموغل فـى اليمينيـة والتطرف إلى الحكومة الإسرائيلية ..

ويبدو أن حكامنا لا يكتفون بحالة المذلة التى نعيشها ، فأخذ جهدهم ينصب بالدرجة الأولى على محاصرة قوى اليمين الدينى فى الداخل وضـربها بكـل ضراوة وتلويث سمعتها دائما ، لكن لا بأس من إطـلاق يـد قـوى اليمـين الرأسمالى وحمايتها وتبييض وجهها وإعفائها من أى خطأ ترتكبه ، حتـى لـو وصل إلى قتل أكثر من ألف مصرى غرقا فى البحر تأكلهم الأسماك !

وهكذا لا يكون مجال أن تكون " ثقافة سلام " فى ظل حال انكسار وهزيمة ، فى عالم تحكمه موازين القوى وصراع القوة .

لقد قيل بحق أنه خلال الفترة التى كان فيها ما يسمى بالاتحـاد السـوفيتى والمعسكر الاشتراكى ، لم يفكر أحد فى حرب ، على الرغم من ظهور أسباب كثيرة ، فى فترات متعددة ، لو كانت قد وجدت فى أزمنـة سـابقة ، لنـشبت الحرب ، لماذا ؟ إنه ما سمى " بالتوزان النووى " ...

تيقن كل طرف أنه إذا نشبت الحرب ، فلن يكون فى مأمن مـن مـصير مخيف !

توازن القوى هو أفعل سبيل لفرض السلام ، و من ثم توافر مناخ يؤسس لثقافة السلام ..

لكن انفراد طرف بأسباب القوة كلها ، وفقدان الطرف الآخر لهذه الأسباب ، يوفر مناخا آخر يشيع بالمذلة والهوان . ولأن الحكام مـسئولون بالدرجـة الأولى عن هذا وذاك ، تجد الدعوة إلى ثقافة السلام تشيع على ألسنتهم ، وكأنهم يفعلون ذلك ويتحمسون له إنقاذا لضمائرهم التى سمحت لهم بأن نكـون فـى موضع ضعف ومذلة هوان ، فإذا ما ارتفع صوت ينادى بالقوة لأخذ حق سُلب

بالقوة ، صاحوا بأننا نعيش فى عالم تسوده ثقافة السلام ، ولا مجال لاستخدام القوة ، ولا سبيل إلا بالمحادثات والمفاوضات السلمية ...

ونحن نسأل : منذ متى حصل قوم على حق لهم بغير كفاح ونضال ودماء وعرق ؟

هل تطوع طرف قوى بأن يعطى ضعيفا ما هو بحاجة إليه من غير ثمن باهظ ؟

أم أن " الحرة " التى فضلت الجوع عن أن تبيع ثديها قد ماتت ولم يعد لها وجود لتحل محلها " الأمة " التى يمكن أن تبيع ثديها لترفل فى نعيم زائف وشبع حيوانى لا يثمر ولا يغنى من جوع ؟

(٢)

لم تعد المقاومة تُتأتى بعلو الصوت ، ولا بالعبارات البليغة ، ولا حتى بالمذكرات القانونية التى تبرز الحقوق بمقتضى القوانين ...

ولعل هذا ما يفسر لنا لماذا راج التعليم القانونى فى فترة الاحتلال البريطانى ، حيث كان الزعماء الوطنيون ، ما زالوا بعد فى مرحلة " الطفولة الوطنية " ، ففى مرحلة الطفولة ، يصرخ الطفل ويبكى ، حيث لا يملك إلا هذا وسيلة للمطالبة بسد احتياجاته ، فإذا بالكبار يسعون إلى إزالة أسباب البكاء والصراخ لأنهم يقفون إزاء طفل لا يملك إلا هذه الوسيلة . ومن هنا كانت " الخطب " ، وكانت المذكرات والدفوع القانونية وسيلة للمطالب الوطنية ، فكان شأن الشخص الذى يتقن هذا وذاك يعلو اجتماعيا وسياسيا ، ويكون هذا طريقه إلى الانخراط فى سلك الحكام .

الآن ، نضجت الشعوب ، وانكشفت الأوراق ، وأصبح امتلاك القوة هو السبيل الأساسى للحصول على الحقوق ، وفقدها هو الطريق الجهنمى لخسارتها .

انظر إلى ما كان من شأن المجاهدين الفلسطينيين فى السنوات الأخيرة ٠٠٠أيقنوا بالفعل أن المسألة ليست خطابة ولا قوانين ، وإنما هى قوة ، لكنهم وجدوا أنفسهم عارين عن امتلاك القوة التى لا يعرف عالمنا المعاصر ، ألا وهى القوة المسلحة ، لكن وطنهم محتل احتلالا استيطانيا بقوة غشوم لا قبل لهم بدحرها ، وقنوات العون والمساعدة ممن كانوا يسمون " بالإخوة العرب " قد سدت ، بفعل ما ساد نظمهم من انضواء تحت عباءة الغزاة الإمبرياليين ، فماذا يفعلون ؟

بوسائل بدائية ، جهزوا مواد تفجيرية ، يمكن إخفاءها حول أجسادهم ، يؤدى تفجيرها [illegible] الحال إلى تفجر حاملها ، على أساس أن يحقق هذا هد[illegible] أولهما : إلحاق خسارة [illegible] بالعدو ، وثانيهما إيصال أقوى حجة على الـ[illegible]لا وهى الفداء الجسدى ، إذ ماذا يدفع إنسان أن يدفع حياته ثمنا لها أقوى من الوطنية والعقيدة ؟

فإذا بالنتيجة لا تسير فى الاتجاه المأمول ، حيث روّج الجهاز الإعلامى الشيطانى للأعداء ، أن تلك عمليات " انتحار " ، والمنتحر عادة لا يحصل من المشاعر والمواقف إلا ما هو سلبى ٠

ولم يكن هذا قاصرا على معسكر العدو ، بل أخذ مسئولون عرب كبار يرددونه ، مبدين أسفهم – يا لرقة قلوبهم – على الأرواح التى راحت بغير طائل (إذا كانوا يهودا) ، ولم تترك الفرصة للفهم الحقيقى الذى يعتبر هذا من أعلى درجات الاستشهاد ، ذلك أن الذى يذهب إلى حرب ، إذا كان يتوقع أن يموت فيها ، فهناك احتمال آخر ألا يموت ، لكن الموقف المعنى هنا لا أمل فيه فى حياة ، والمنتظر هو الموت المؤكد ٠

لكن ، من قال أن " المقاومة " لا تكون إلا بسلاح ودمار وخراب وقتل وتشريد وعنف ؟

إنها إذ تستهدف رفع ظلم ، وإحقاق حق ، فإنها ، فى الوقت الذى لا تتخلى فيه عن " السلاح العسكرى " ، كما نرى بروعة وذكاء بالنسبة للمقاومة التى يحمل رايتها حزب الله على أرض لبنان ، فهناك سبل أخرى متعددة ، تتجمع كلها فيما يمكن أن نسميه :" بناء الذات " .

أرأيت إلى هذه الشجرة أو هذا العمود ، أو هذا البناء ، تهب عليه الرياح العاصفة والمطر الغزير المستمر ساعات طويلة ، فلا يهتز ولا يسقط ، وإنما يظل واقفا شامخا يتحدى العواصف والأنواء ؟

ثم ، أرأيت إلى مثل هذا وذاك ، فى مواقع أخرى ، وبصور مغايرة ، لا يتحمل ما يهب عليه ، فيسقط طريحا على الأرض أو تذروه الرياح ؟

هكذا الأمم والشعوب ..بل هكذا كل إنسان ، فالأمم والشعوب " أبنية " مجتمعية ، وكل إنسان "بناء " نفسى وجسدى وعقلى وروحى ، كى يصمد ويقاوم العواصف والأنواء ، لابد أن يحمل فى بنائه الذاتى عوامل الصمود والمقاومة .

فى ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر ، الذى انعقد عام ١٩٨٦ ، وقف أحد زعماء حرب التحرير الجزائرية زمن الاحتلال الفرنسى " مولود قاسم " يذكرنا بما كان عليه حالهم ، حيث كان الاحتلال الفرنسى يهيمن على كل صغيرة وكبيرة ، وفى مقدمتها : التعليم ، فالكل كان يدرس باللغة الفرنسية ، والمقررات التى تحددها سلطة الاحتلال ، مع تغييب كبير لكل ما له صلة بالذات الجزائرية ، فماذا كان موقف الأمهات والجدات الجزائريات ؟

قال الرجل أنهن كن يوقظنهم كأولاد ليصلوا صلاة الفجر ، وبعدها يجلسون إلى شيخ يحفظهم القرآن الكريم ، حتى إذا جاءت الساعة الثامنة ، كانوا يذهبون إلى مدارسهم الفرنسية ليتلقوا ما شاء لهم الاحتلال أن يتلقوه ، غير خائفين مما سيرد على عقولهم ، لأنهم قد تلقوا " المصل الواقى " ..بجوهر الثقافة العربية الإسلامية ، حتى من لم يكن منهم مسلما .

تماما كما تفرض علينا منذ سنوات وزارة الصحة ، جدولا معينا ، نقوم ، وفقا له ، بتطعيم أطفالنا ضد عدد من الأمراض ، مما يجعلهم بالفعل ذوى قدرة على مقاومة هذه الأمراض ، فترتد ميكروباتها خاسئة مندحرة ، ويظل " الجسم " قويا عفيا .

" بناء الذات " إذن هو الخطوة الأولى ... هو الصفحة الأولى أو الفصل الأول من كتاب المقاومة ، إذا صح هذا التشبيه .

فما السبيل إلى بناء هذه الذات ؟

ليس من اليسير ، بحكم وظيفة هذه المقالات أن تفصل ذلك ، فهذا مما يحتاج إلى بحوث ودراسات وكتب ، وإنما حسبنا هنا الإشارة إلى ما يمثل " الهيكل الخرسانى " للمبانى المادية ، من عمارات وجسور ومنشآت ... إلى غير هذا وذاك من صور وأشكال " المبانى " .

و " الهيكل الخرسانى " بالنسبة لإنسان هذه الأمة ، له أركان ثلاث : العقيدة الدينية ، واللغة القومية ، والموروث الثقافى (بمنظور نقدى) .

أما العقيدة الدينية ، فقد نستطيع أن نسوق العديد من الأمثلة ، المستمدة من مصدرى الإسلام : القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، بحكم التكوين والتنشئة الشخصية ، لكننا نوجه القول كذلك إلى مواطنى هذه الأمة من الإخوة المسيحيين ، حيث تختلف الكنيسة الشرقية كثيرا عن الكنيسة الغربية ، فنجدها فى أصولها ، كنيسة وطنية نبيلة .

فكثيرة هى التوجيهات القرآنية والنبوية حاثة جمهرة الناس على القيام بالقسط والميزان ، وهو " العدل " ، وهو القيمة الكبرى فى بناء الإنسان والمجتمعات ، بحيث لو حللت كل ما هو إيجابى وضرورى لبناء الإنسان والمجتمع ، فسوف تجد أنه يرتد إلى " العدل " ، فما الديموقراطية التى يتنادى بها الجميع هذه الأيام إلا صورة رئيسية للعدل ، وما تكافوء فرص التعليم إلا صورة من صور العدل ، وما حقوق الإنسان إلا صورة من صور العدل .

ويصل إصرار العقيدة الدينية الإسلامية على العدل إلى حد توجيه الخطاب الإلهى فى سورة المائدة إلى المسلمين (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ••• (٨))•

هل يمكن أن تتسع صفحات ، أيا كانت ، لمجرد الإشارة إلى ما جاء من آيات وأحاديث عن " الإحسان " وعن ، " الجدال بالتى هى أحسن " ، وعن إنصاف المظلومين واليتامى والمساكين ؟ وعن حتمية " الإعمار " للأرض ؟ وعن ضرورة الاستناد إلى " العلم " فى الحوار والمناقشة ؟ وعن أهمية أن يجوب الإنسان آفاق الكون : باحثا ، متأملا ، دارسا ؟

آلاف الكتب والدراسات والبحوث منذ قرون طويلة ، وهى لا تنى تكشف ، وتظهر ، وتجتهد ، وتبين ، كل ما هو ضرورى لحسن بناء الإنسان والأمة من خلال استقراء آيات القرآن الكريم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولن تنتهى من هذا ، فمثل هذا المصدر وذاك : معين لا ينضب !

قد يتوهم البعض أننا نغالى فى هذا ، فنقول له ، أن العدو المعاصر : الكيان الصهيونى ودولة الاستكبار العالمى أمريكا ، قد أدركا صدق هذا الذى نقول ، ربما أكثر من بعضنا ، فإذا بهم يوجهون جهودا مستميتة ، تكلفهم مئات الملايين من الدولارات من أجل إضعاف شأن التعليم الدينى فى المدارس فى طول البلدان العربية والإسلامية ، لعمق وعيهم ، بقدرة العقيدة الإسلامية على بناء القوة فى الجسم الإسلامى ، ويستجيب نفر من أبناء جلدتنا أعمتهم زكائب الدولارات وأسكرتهم خمرها وأعمى بريقها أعينهم فصاروا يرون ما يرى نازيو الصهيونية وفاشيو أمريكا ، فإذا بالفعل ، مساحة التعليم الدينى تتقلص شيئا فشيئا ، وإذا بكل هذا يجر مزيدا من التخاذل والوهن !

يتساءل متسائل : وما العمل إذا كان هذا هو أمر المدارس والجامعات فى بلداننا ، بل وهو أمر المدارس التى حاول بعضها أن تكون " إسلامية " التوجه ،

فإذا بالمتربصين يبذرون المشاكل والعقبات ، وينثرون الأشـواك والمطبـات أمامها حتى تغير نهجها أو تواجه الإغلاق بالضبة المفتاح ؟

حتى المساجد ، تم تأميمها جميعا ، تحت تلك الحجة التى أطلقها الـصهاينة والأمريكان : محاربة الإرهاب ٠٠حماية المجتمع ، مع أنهم هم الذين يشكلون خطرا داهما على مجتمعاتنا !

بل وتقتصر المساجد على تأدية فروض الصلاة الخمس ، لتغلق فورا بعـد ذلك ، حتى فقدت قيمتها وضاعت وظائفها التى هى كثيرة ، بالإضـافة إلـى الصلاة ، ويكفى لأى قارئ أن يفتح أى مصدر لمعرفة كيف كـان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يتعامل مع مسجده ، وكيف استمر الأمر بعد ذلك لا فـى عهد الصحابة والتابعين ، بل ، فى كل العصور السابقة على العهـد الأسـود الحالى ٠

لكننا نعود مرة أخرى إلى المثال الجزائرى ٠٠٠

لا سبيل إلى ذلك إلا بشد أزر الجهود الشخصية ، لا من أجل رفع سلاح ، ولا لاستخدام عنف ، ولا لتدمير وتغيير حكام ، فليهنأوا بكراسيهم التـى بهـا يتمسكون ، ولينعموا بثرواتهم التى فيها يغرقون ، وإنما من أجل مذاكرة القرآن وتحفيظه لمن يستطيع ، وفهمه ، والسعى إلى تمثله سلوكا وتوجها ٠٠٠لو حدث هذا على نطاق واسع ، وبنهج يتسم بالهدوء والاستمرارية وبالتعقل ، فـسوف نجد بين أيدينا جيلا آخر ، لا تنفذ إلى جسده الفكرى أى أمصال ملوثـة مـن أعداء أو أوان أعداء !

فماذا عن اللغة القومية والموروث الثقافى ؟

(٣)

فى حديث مع حفيدتى ، كنت أشير لها على مقالات تنشر لـى بـصحيفة " المصريون " الإلكترونية ، وأن الميزة فيها أنه يتاح لى أن أقـرأ " تعقيبـات " بعض القراء على المقال ، فإذا بحفيدتى تسأل عما أعنيه بكلمة " تعقيبات " حيث

كانت هذه أول مرة تسمع فيها هذه الكلمة (!) ، وإذا بأمها – ابنتى – تقول لها أنها تعنى " comment " ، وردت الحفيدة " آه " بما يعنى أنهــا عندئــذ قــد فهمت!!

ما معنى هذا ؟

معناه أن الحفيدة لابد لها من شرح " إنجليزى " حتى تفهم اللغة العربيــة ، على عكس جدها – بل وأمها – حيث كانا يحتاجان – إذا لزم الأمر – أن يفهما الإنجليزى ، بكلمات أو عبارات عربية ٠

ونعيد السؤال مرة أخرى : ما معنى هذا ؟

معناه أن أجيالنا الجديدة بدأت تخرج من " جلدها " ٠٠من ذاتهــا العربيــة الإسلامية ، لتدخل فى جلد جسم آخر مغاير ، مهما بذلت من جهد معرفة وإتقان ، فسوف تظل غريبة عنه ، وهو غريب عنها ٠

إن " اللغة " هى " الحبل السرى " الذى يربط بين المواطن وبين بنية الثقافة الخاصة ، قديمها وحديثها ٠٠٠الموروث الثقافى كله ، كتب بالعربية ، فكيــف يستطيع أبناؤنا الجدد أن يمدوا إليه أيديهم وقد فقدوا وسيلة الاتــصال : حتــى الأزهر – حامى حمى العروبة والإسلام – بدأ يفخر بأنه أخذ يسير على النهج نفسه ، فيفتتح معاهد يسميها " نموذجية " يتم التعليم فيها باللغة الإنجليزية !

معذرة يا رسول الله ٠٠لولا نهيك ، للطمت الخدود وشــققت الجيــوب ، وذرفت الدموع !

إن الحرص على اللغة العربية وإتقانها والعمل على أن تكون لغة التعلــيم والخطاب والإعلان والإعلام هو من أكثر الأسلحة فعالية فى ثقافة المقاومــة ، المقاومة لكل غزو فكرى وبغى إعلامى ، واحتلال ثقافى ، الذى هــو أخطــر وأفظع من أى احتلال عسكرى ٠

انظر إلى دول الخليج ، الذى كان يسمى عربيا ، صحيح أنه محتل الآن " عسكريا " ، لكن ما يتم فى جسم تعليمه هو الأفظع ، فجنود الاحتلال الأمريكى

يمكن ، لسبب أو آخر ، أن تغادر فى غضون أسابيع أو حتى شهور ، لكـن ، عندما يتأمرك اللسان ، ويتغرب التفكير ، ويتأورب الوجدان ··كم من السنوات يلزم للعودة إلى اللسان العربى ، والعقل العربى ، والذات العربية ؟ لقد أصبح معظم التعليم أمريكيا نظاما وأهدافا ولغة وتوجيها !

وانظر إلى نظام الدراسات العليا فى بلد مثل مصر كنا نقول أنها " الرائدة " وأنها " الزعيمة " وأنها " القائدة " ····لا يسمح لأى طالب أن يحـصل علـى درجة الماجستير أو الدكتوراه إلا إذا أثبت نجاحه فى امتحان " التويفل " مبرهنا بذلك على إمساكه بتلابيب إتقان اللغة الإنجليزية ! ومن الذى يعد الامتحـان ؟ لسنا نحن ، وإنما هم أيضا ··كأنهم هم الذين يحددون من يصلح ومن لا يصلح من شباب الباحثين وقادة البحث العلمى والتعليم الجامعى مستقبلا !

وافتح أى جزء فى أى رسالة ماجستير أو دكتوراه مما يعد للمناقشة ، وإذا رأيت صفحة تخلو من أخطاء فى العربية ، فلا تتردد فى إخبارى حتى يهدأ لى بال !

معذرة يا رسول الله ···لولا نهيك ، للطمت الخدود ، وشققت الجيوب ، وذرفت الدموع !

كيف نسكت على هذا ؟

فيها فلنجاهد ··فلنقاوم ···

تراجعت اهتمامات الأجيال الجديدة كثيرا فى قضية القراءة ، والتى كانت أحد السبل المهمة لأن نتعود على اللغة العربية السليمة بالقراءة لكبار المفكرين والأدباء ، لا نقول القدامى جدا ، بل فى العصر الحديث : الرافعى ، المنفلوطى ، طه حسين ، د· هيكل ، العقاد ، المازنى ، لطفى السيد ، وتوفيق الحكـيم ، ومن الشعراء : أحمد شوقى ، والبارودى ، وحافظ إبراهيم ، وعلى محمود طه ، ومن الروائيين : محمود تيمور ، ونجيب محفوظ ، وعلى أحمـد بـاكثير ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ···وغير هؤلاء وهؤلاء ·

لكن أبرز الوسائل ، وأهمها جميعا هو بطبيعة الحال : القرآن الكريم • إن العادة كانت قد جرت بأن يلتحق الطفل منا ، قبل الالتحاق بالمدرسة ، بكتاب يقرأ فيه القرآن الكريم ، ويحفظه كله أو بعضه ، وهو المصدر الأول والأساسى للغة العربية ••

لكن هذا لم يعد قائما ، وعندما دعت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد إلى عودة الكتاب ثار عليها البعض واتهموها بأنها تريدنا أن نرجع إلى الوراء ، وكتبنا نحن ، وصرحنا ، بأن العودة للكتاب لا تعنى عودة " الشكل " الذى كان عليه ، فيمكن أن نفكر فى " شكل " عصرى من حيث المكان والتنظيم والتجهيزات والوسائل والطرق ، لكن " المضمون " و " المحتوى " يظل دائما هو القرآن الكريم ، ويكون ذلك قبل الالتحاق بالمدرسة ، بدلا من هذه الجريمة التى يقع فيها أبناؤنا جميعا الآن بالالتحاق بروضات أطفال تحرص على تعليمهم أول ما يتعلموا : اللغة الإنجليزية ، ويبدأ الطفل " يرضع " التعبيرات الأجنبية : كى جى وان ، وتو ، و" مستر " و " سكول " ، وغير هذا وذاك •

والدولة الآن يستحيل أن تستجيب لمثل هذه الدعوة ، لأنها إحدى الصنائع الأجنبية عموما والأمريكية خصوصا ، بل هى تبارك وتعزز وتصدر القوانين والتشريعات المقننة لكل هذا ، وتدفع الكثير لكتابها كى يبرروا ويسوغوا ويدافعوا ، ويتهموا المقاومين !!

ومثلما يحدث فى الجانب العسكرى ، عندما يحول النظام بين القوات المسلحة وبين القيام بواجب التحرير والمقاومة للعدو ، فتنشأ مقاومة ش[illegible]ية ، يمكن أن يحدث على " الصعيد اللغوى " ما يشبه هذا : " مقاومة شعبية لغوية " ، فهذا كتاب الله ولله الحمد بين أيدى كل فرد منا ، فلم [illegible]سعى فى تجميع الجهود كى نقرئه أبناءنا ، ونحفظه ، أو بعضه [illegible] ؟

أعرف أن عددا من المواطنين قد ب[illegible]ل ذلك ، وأعرف أن " مقارئ قرآنية " قد بدأت تعرف طريقها إلى المساجد ، لكننا لا نزلنا نرى أنها جهود

فردية مبعثرة ··ونأمل أن تتحول إلى تيار ضخم ، مما يعزز ركن اللغة ، كما يعزز الركن سابق الإشارة إليه ألا وهو العقيدة الدينية ·

فماذا عن الركن الثالث فى بناء الذات ، وهو الخاص بالتاريخ ؟

لم يعد التاريخ فى كثير من فرق التعليم عندنا يعرف مقررا مستقلا اسمه " التاريخ " ، حيث حرصوا على محوه بطرق ، بعضها علنى وصريح ، وبعضها الآخر خفى مستتر ···

فنحن نذكر كيف سعى العهد البهائى عن طريق وزيره حسين كامل لجعل تدريس التاريخ مقررا اختيارا ، ونحن نعلم أن معظم الطلاب لن يختاروه لأسباب سنشير إليها بعد قليل ···

ونعرف أنهم ضموا التاريخ مع الجغرافيا فى مقرر واحد تحت دعوى " التكامل بين المواد الدراسية " ، فإذا بالمساحة المخصصة للجغرافيا تفوق المساحة المخصصة للتاريخ ، وإذا بالمادة العلمية التاريخية تجئ مسطحة مهزوزة لا تثمر ولا تغنى من جوع ·

وما لا يقل عن ذلك خطورة أن يتداعى القوم التربويون – وهم فى سبيل تطوير كليات التربية لإعداد المعلم – بمنح وقروض أجنبية – لمحو ذاكرة المعلم التربوية ، فيتم إلغاء دراستهم لتاريخ التربية فى العالم ، وتاريخ التعليم فى مصر !!

ربما نحتاج إلى حديث مطول كى نبين حتمية الوعى التاريخى لحسن بناء الذات الوطنية والقومية ، ويكفى أن نذكر القراء بأن مثل التاريخ للأمة مثل " الذاكرة " لأى شخصية إنسانية سوية ، هل يمكن أن تتصور إنسانا سويا بغير ذاكرة ؟ بالطبع كلا ، فهل يجوز أن نرضى بمحو الذاكرة الحضارية للأمة ؟

إن التاريخ ليس " متحفا " نودعه ما كان من آثار ، ولكنه جملة خبرات الإنسان يضعها حية فاعلة فى وعيه ، حتى يعرف ، عندما يسعى لفهم الحاضر

، وعندما يسعى للتخطيط للمستقبل ، إذ كيف لنا أن نفهم اليوم ما أدى إليه من أمس ؟ وكيف لنا أن نتحسب للغد ،ما لم نكن على وعى بالخبرة السابقة ؟!

إننا نعترف بأن خبرتنا فى تعليم التاريخ فى معاهدنا التعليمية قد " سهلت " لأعداء الوعى التاريخى " أن يغيبوا ذاكرة الأمة وذاكرة المعلم ، ذلك أننا – مع الأسف – :

تعاملنا مع التاريخ على أنه تاريخ خلفاء وأمراء وسلاطين وملوك ...

وتعاملنا مع التاريخ على أنه مجرد قيام دول وسقوط دول ...

وتعاملنا مع التاريخ على أنه حروب ومعارك وانتصارات وهزائم ..

لكن التاريخ الحقيقى هو :

تاريخ أمم وشعوب ..وتاريخ طبقات وطوائف ...

تاريخ عمال وفلاحين ..وتاريخ مثقفين وعامة ..وتاريخ علماء ودعاة وأدباء ..

تاريخ علوم وثقافة وآداب ..وتاريخ تجارة وصناعة وزراعة ...

والتاريخ لا يقوم على " السرد " ومجرد الرواية والحكى ..

ولكنه يقوم على التفسير والتحليل ، والخروج بجملة السنن التى تحكم مسار الأمم والشعوب ...

وهو لا يقف عند حد البكاء على أطلال الماضى ، ولكنه يسعى إلى فهم وقائع الحاضر ، واستشراف آفاق المستقبل وطموحاته ..

لو تعاملنا مع التاريخ بهذه الصورة ، وتلك الطريقة ، فلن يجرؤ أحد أن يرفع صوته لينادى : بلاش تاريخ ، أو ما فائدة التاريخ ؟

لكن ، هنا أيضا سوف نجد أن السلطة التعليمية هى التى تمسك بتلابيب الموقف ، وهى – غالبا – لن تستجيب إلى مثل هذه الدعوة الإصلاحية ، رغم أنها لا تستهدف زحزحة زير ولا إعلاء قدر غفير ، فهدف بناء الذات ليس فى " قائمة " أولوياتهم ، إذ لو كان هذا الفكر له مكانة ، ما وصل مثل هؤلاء إلى

كراسيهم ، ومن هنا فإننا ندعو الجمعيات الأهلية وكافة المواطنين الذين يعون مثل هذه الفكرة ، إلى أن تكون تلك قضية ملحة فى قائمة ما يثيرونه ويدعون إليه ويكتبون فيه ، لعل مزيدا من انتشار الوعى يحرك مياها ساكنة ، بدأ العطن الذى يولده سكونها يزكم الأنوف !!

(٤)

من العسير حقا أن نكون بصدد ثقافة للمقاومة تبتغى " بناءا للذات " ، دون أن نتناول قضية التعليم ، فالتعليم فى أصله وتفصيلاته ·· فى لحمته وسداه ، عملية بناء للإنسان ، إن كان خيرا فخيرا وإن كان شرا فشرا لا قدر الله ·

وفضلا عن ذلك ، فإن ما أشرنا إليه من قبل من تأكيد على أضلاع " الذات " الثقافية الثلاثة : العقيدة ، واللغة القومية ، والموروث الحضارى ، لا يتحقق إلا عن طريق التعليم :

فالعقيدة ليست صناعة جاهزة يمكن الحصول عليها فى لحظات ، وإنما هى تستتبع مسارا طويلا من التحصيل المعرفى ، والمران السلوكى ، والتأسيس الوجدانى ···

واللغة بطبيعتها شأن كسبى ، ولا يرث الإنسان إلا " صوتا " أو قدرة صوتية ، مثلها مثل المادة الخام ، تتشكل فى صورة إنجليزية أو فرنسية أو عربية ، أو غير هذه وتلك من اللغات عن طريق التربية اليومية بالتقليد ، وعن طريق التعليم المنظم فى معاهد ومدارس ·

والموروث الحضارى إذا كان منه ما هو مادى يمكن أن يُكتفى إزاءه بالرؤية والمشاهدة ، فالأكثر منه " مكتوب " يحتاج إلى قراءة وإلى استيعاب ، بل ويحتاج إلى أن يكون له مردوده فى التفكير والسلوك ، حيث لا نفرح بمجرد أن يعرف المواطن تاريخ وطنه فى مجالاته المختلفة ، وإنما نتطلع دوما إلى أن يكون سلوكه انعكاسا لما عرف وصورة لما تعلم ، وهذا وذاك لا يتم إلا بتعليم وتعلم ·

والتعليم قضية " مركبة " ، بمعنى أنه ساحة واسعة تمتلىء بالعديد من القضايا الفرعية التى يصعب حصرها ، وتناولها فى مجالنا الحالى قد يعد تحميلا للنفس بما لا تطيق ، وتحميل القارئ بما ينوء به كاهله ، ففى مثل هذه القضايا عشرات الكتب التى كتبناها وكتبها غيرنا ، فليرجع إليها من يريد .

من هنا فتناولنا للتعليم لابد أن يكون من منظور " كلى " ، فى عمومياته وتوجهاته ... فى مساراته وخطواته ، البطئ منها والسريع ، القصير منها والطويل ، بقدر الطاقة .

وأول ما يستوقفنا هنا هو التوقف عند هذا السؤال الشهير بين كل من عمل ويعمل فى الساحة التعليمية ، إن بحثا وتفكيرا ، وإن تدريسا وإدارة ، هذا السؤال هو : لماذا نعلم ؟ فوفقا للإجابة ، لا النظرية ، وإنما التطبيقية العملية ، تستطيع أن تحكم على التعليم القائم : هل هو تعليم مقاوم أم هو تعليم مستسلم ؟ هل هو تعليم نضالى كفاحى أم تعليم مترهل متراخ ؟ هل هو لتقوية الذات أم لتمييعها وتضييعها ؟ هل هو للبناء والتعمير ، أم للتدمير والتخريب ؟

لا تركن إلى الإجابة الشائعة التى تجدها على المستوى الفردى ، حيث يمكن أن يجيب هذا الفرد أو ذاك بأنه يتعلم كى يعمل فى المجال كذا ! أو يتعلم لكى يستنير ، أو يعمل لكى يحصل على مركز اجتماعى طيب ، أو حتى ليحصل على شهادة تؤمن له مستقبله .

فالتعليم إذ هو عملية فردية فى جانب منها من حيث الإنسان الذى يتعلم ، فلا نستطيع أن ننسى أنه عملية " اجتماعية " كذلك ، لأن الإنسان الفرد الذى يتعلم هو " صناعة اجتماعية " ، إذا صح هذا التعبير ، أى أن المجتمع هو الذى كونه وحافظ عليه وأعطاه الكثير من طاقاته ويسر له العديد من إمكاناته . والمجتمع كذلك يظل منتظرا ، حتى ينتهى هذا الفرد من مراحل تعليمه الأساسية ، فينخرط فى مجموع العاملين الذين ينتجون ويخدمون للمجتمع .

والمواطن الفرد هو كذلك " صناعة ثقافية " بمعنى أن تفكيره وما يعيه وما يتخيله وما يتصوره ، وما يسلك وفقه من قيم ، وما يتبع من معـايير التفكير والسلوك ، وما ينطق به من لغة ، وما يؤمن به من عقائد دينية وأفكار دنيوية ، إنما تم اكتسابه من خلال السياق الثقافى الذى يموج به المجتمع ٠

من هنا لابد أن ننتظر أن تجئ الإجابة عن السؤال المطروح ، إجابة تتصل بالأهداف الكلية للأمة ، والمقاصد الكلية للشريعة الغالبة على ثقافة الأمة ٠

فإذا استقرأت جملة المسارات والأحداث والوقائع التى تجرى فى الساحة التعليمية ، فإنك سوف تجدها ، شيئا فشيئا ، وعاما بعد عام ، تتجه بالتعليم نحو مقاصد يريدها لنا غيرنا ، لا ما نريده نحن لأنفسنا ٠٠٠ فلقد رأى غيرنا أن عقيدتنا تحمل بذور عنف وإرهاب ومخاصمة للغير وظلما للمرأة وتضييقا للآفاق ، وأنها تنزع الرحمة من قلوب معتنقيها ، وترغب فى القتل والذبح وقطع اليد والرجم بالحجارة ومخاصمة العلوم والفنون !

قال لنا غيرنا هذا ، فسارع الذين ابتلينا بأن يكونوا مسئولين عن بلدنا بعقد المؤتمرات ، وتسويد الصفحات وغمر الصحف والإذاعات وقنوات التلفاز أحاديث عن " التسامح " و " الحوار " و احترام الآخر " و " تمكين المرأة "٠٠٠ إلى غير هذا وذاك من مفردات ، هى بالتأكيد مفردات جيدة ، لا يمكن أن نقدح فيها ٠٠٠ لكن المشكلة أن الذين ابتلينا بهم فى مواقع القيادة لم يتوقفوا ليتبينوا ممن تصدر هذه الاتهامات ؟

أليسوا هم الذين استعمرونا عشرات السنين ؟

أليسوا هم من نهبوا أموالنا ، واغتصبوا أرضنا ، ونزفوا خيراتنا ، ويسلبون منا أى عنصر من عناصر القوة ؟

هذه الدماء الغزيرة التى لا تطلع شمس إلا ونراها تسيل من أجساد مسلمة عربية ٠٠هذه البيوت التى تهدم ٠٠هذه المزارع التى تحرق وتجرف ؟ من الذى يقوم بكل هذا وذاك ؟

إذا كان الأمر كذلك ، ألا يدفعنا هذا إلى ، ولو بعض شك ، وتمهل وتفكير وتقليب الأمر على جوانبه المختلفة ، أم نسارع إلى مناهج التعليم ، فننقص من عدد الساعات المقررة لتدريس الدين والتاريخ والعربية ، ثم لنحذف الكثير عن أمجادنا وبطولاتنا ، ونعرض من العقيدة أجزاء ونخفى أجـزاء حتـى نـؤمن ببعض الكتاب ولا نؤمن به كله ؟!

وهذه التعددية المشتتة التى تفرق ولا توحد ، وتبعثر ولا تُجمّـع ، التـى نراها فى التعليم ، فلا تكون أبدا عاملا للوحدة القومية ، وتماسك بنيان الأمة :

فهناك قسمة بين تعليم دينى وتعليم مدنى ..

وقسمة بين تعليم وطنى وتعليم أجنبى ..

وقسمة بين تعليم حكومى وتعليم خاص ...

وقسمة بين تعليم عربى ، وتعليم بلغات ..

بل وقسمة بين تعليم مدنى وتعليم عسكرى ، ولا نقصد بذلك التعليم الـذى نعرفه فى الكليات العسكرية فهذا أمر طبيعى ، ولكن نقصد ما امتدت إليه يـد " العسكرة ، حتى إلى مراحل التعليم الأولى والثانية .

مخطئ من يقع فى وهمه أن " التعددية " فى التعليم ، مثلها مثل " التعددية السياسية " أمر طيب ومرغوب ، وإلا لما حدث العكس فى مـصرنا المنكوبـة بحكامها ، فهم يحرمون علينا التعددية السياسية – فى الفعل والعمل والتطبيق – ويشجعون على التعددية التعليمية ، حتى لا نجتمع على أمر واحد ، ونقتـرب شيئا فشيئا من " لبننة " التعليم ، إذا صح هذا التعبير .

ودون أن ننساق إلى مناقشة الشأن اللبنانى ، فإننا نؤكد لقارئنا العزيـز أن جزءا مهما من الأزمة اللبنانية المستمرة منذ عشرات السنين فى صور مختلفة ، هو أن هناك "طائفية تعليمية " تؤسس لتكوين شخصيات لبنانية متباينـة تباينـا شديدا ، فتكون النتيجة " أمما شتى " ، وإن سكنت أرضا واحدة ، تحـت علـم واحد وحكومة واحدة !

إن الإثراء التعليمى لا ينبغى أن يُتوقع فى سنوات التعليم الأولى التى تتباين وتتعدد ، وإنما يمكن أن يُتوقع فى مراحل تالية ، كيف ؟

انظر إلى الشجرة الطبيعية التى تجدها هنا وهناك ...دائما لها جذر واحد ، ولو حدث أن رأيت جذرا ثانيا ، فهذا يعنى أن هناك شجرة " أخرى " !!

هكذا فى التعليم ...لابد من " جذر تعليمى " موحد ...مرحلة تعليم أولى ، موحدة ، عامة ، تشكل القاعدة الوطنية ..تشكل البنية الأساسية للمواطنة ..يتعلم فيها كل أطفال مصر لغة واحدة ، مجموعة أساسية من التاريخ والجغرافية ..والرياضيات ..أساسيات العقيدة الدينية ، إسلامية كانت أم مسيحية ..ومن هنا كانت تسمية هذه المرحلة "التعليم الأساسى " ، و " الأساسية " هنا مقصود بها " التأسيس للوطن والوطنية والإنسانية .

بعد هذه المرحلة ، يمكن " التعديد " التدريجى ، والتنويع الذى يتيح الفرصة لاختلاف فى التكوين وتنويع فى التشكيل .

حتى التعليم الدينى ، كاتب هذه السطور لا يخشى أن ينادى بأن يخضع هو أيضا لهذه القاعدة ، فلا يكون فى مصر إلا مرحلة تعليمية أساسية موحدة ، وفى التعليم الثانوى ، مثلما يكون هناك تعليم عام وفنى ، يكون هناك تعليم دينى يعد للالتحاق بالكليات الأزهرية .

حتى إذا وصلنا إلى التعليم العالى ، فلتمتلئ الساحة بما نستطيع من التعديد والتنويع ، حيث نكون أمام أجيال قد نضجت عقولها ، وصقلت شخوصها ، وأصبحوا قادرين على التمييز والاختيار بين الأفكار والتوجهات ، لكننا عندما نأخذ أبناءنا من " اللفة " ، وهم بعد أقل من ست سنوات ، ثم نقدمهم ليدخلوا فى الماكينة الأمريكية أو الإنجليزية أو الألمانية أو الفرنسية ، كما يحدث الآن ، فهذا والله أكبر عملية " سرقة " للمواطنين ، لأن المحصلة النهائية ، سوف تكون منتجات تعليمية قد يكون لها من الأسماء : محمد وزينب ، وحسن ، لكن قلوبها وعقولها سوف تهفوا إلى ما وراء البحر الأبيض والمحيط الأطلسى ، وفى

يقينى أن هذه جريمة تاريخية وثقافية ووطنية وقومية تُرتكب فى حق هذا البلد ، وترتكب فى حق هذه الأمة ، وفى حق المستقبل ، وفى هذه الساحة لا بد من حمل راية المقاومة ، ومرة أخرى ، لا بعنف ولا قوة ، ولا ببندقية وقنبلة ، وإنما بالدعوة والكتابة والحديث ، وبالتشريع ، وبإقامة نماذج بديلة !

(٥)

النقد فى طبيعته موقف مقاوم من الجوانب الفكرية ، وفيه تتجلى آية من آيات الإعجاز الإلهى فى تكوين الإنسانى ، والذى هو من أعلى وظائف العقل ، حيث تتجمع فيه الكثير من قدراته ومهاراته ، كما قد لا تتجلى فى موقف آخر ، باستثناء موقف الإبداع والابتكار ، ففى الإبداع والابتكار هناك " إنشاء " ، وإحداث ما لم يكن حادثا مما هو فى الدائرة البشرية ، لكننا فى الموقف النقدى نبدى موقفا فاحصا مما فعله الآخرون ، وما فعلناه نحن ، عملا كان أو فكرا .

والموقف النقدى أيضا يتطلب بعضا مما يجب توافره فى المقاومة وأبرزها " الشجاعة " ، والصدق ، والقدرة على الملاحظة الدقيقة الواعية ، ووزن الأمور وفق مقاديرها الحقيقية .

إننى أذكر عندما كنت أصدر مجلة (دراسات تربوية) أننى سعيت إلى عدد من الزملاء أحثهم على تناول بعض الأعمال العلمية بالنقد والتحليل ، فكنت أُقابل دائما بالتراخى ، حيث كانت الحجة دائما هى أنهم حريصون على ألا تهتز علاقتهم بصاحب العمل المراد نقده !

كان هذا يحمل علامة غير جيدة ، لأن النتيجة التى تترتب عليه هى تمرير آراء قد لا تكون على صواب ، أو أفكار مهتزة ، أو مواقف غير صادقة ، فيروج سوق الفكر بما يُمرضه ، ولا يدفعه إلى أمام ، مما لابد أن ينعكس بدوره على واقع التعليم ، فكأننا هنا إزاء موقف يشبه من يرى أعداء يتسربون إلى أرض وطنه فيقف من ذلك موقفا سلبيا .

كذلك فقد يكون العمل المطلوب نقده حاويا على ما هو جديد ، وجيد ، وتركه بلا بيان لأوجه ما فيه من جودة وجدة ، قد لا يدفع على تعزيزه وتكريسه ، فتذبل الفكرة أو تتضاءل الخاطرة ، ويحرم سوق الفكر مما يجدد دماءه ويبث فى عروقه حيوية وصحة وسلامة .

ومن ناحية أخرى ، فهذا الذى يزورّ عن اتخاذ موقف نقدى مخافة " زعل " صاحب العمل المنقود ، لابد أن نعترف بأنه يعبر عن حال مؤسفة ، لأن الشجاعة والصدق المطلوبتين من الناقد هما مطلوبتان كذلك من المنقود ، لكن الحقيقة القائمة تشير بكل الأسف ، وبكل الأسى إلى أن الكثرة الغالبة من المنقودين يغضبون ، وكأن ذاتهم العلمية والفكرية مقدسة لا ينبغى أن تمس ، ويعلنون بذلك أنهم دائما على صواب ولا يحتمل أن يكونوا على خطأ !

وكما نرى فى الحروب من إجماع على تحريم استخدام بعض الأسلحة اللاأخلاقية ، فكذلك فى النقد ، حيث يكون صورة من صور القتال ضد الانحراف والمرض العلمى والفكرى ، فنجد بعضا ممن يستخدمون أسلحة مفروض أنها محرمة ، مثلما نرى فى المبالغة فى التحسين ، والإفراط فى التقبيح بصورة تفارق حقيقة الحال وواقع الأمر . بل لقد نرى ما هو مبتذل من ألفاظ واتهامات ، أو ما يشبه الكذب ، سواء أيضا فى مجال التحسين أو التقبيح ، وقد نرى رغبة محمومة فى الاغتيال المعنوى ، تنفيسا عن نيران حقد مكبوت وغل أسود محبوس.

والموقف النقدى لا يتبدى فقط فى مجالات العلم والفكر ، وإنما هو كذلك فى شتى المجالات خاصة المجال السياسى ، فعلى الرغم مما نثبته من تقدير بالنسبة للمجال العلمى والفكرى إلا أننا نرى أن المجال السياسى هو الأخطر والأهم لأنه يتصل بما يهم الوطن بكليته ، وما يهم الأمة بمجموع أفرادها ومؤسساتها ونظمها ، حاضرها ومستقبلها . بل إننا لا نبالغ إذا قلنا أن الشأن السياسى بالنسبة لمجموع الوطن وكلية الأمة هو بمثابة الرأس لجسم أى كائن

حى ، حيث يروج القول القائل : إنما تفسد السمكة من رأسها ، مما يصدق على كل جسم حى ، وبالتالى على كل جسم اجتماعى .

فإذا كان من المعتاد أن تتعرض أمة لحكم قاهر وتقع فى بـــراثن اســـتبداد واستغلال ، فإن هذا إذا كان يستوجب مقاومة باستخدام وسائل عنف قوة مادية ، فإن ما نركز عليه هنا هو المقاومة الفكرية التى تتبدى فى الموقف النقدى ، من خلال كشف صور الزيف والتضليل التى غالبا ما يروجها القاهر المستبد مـــن خلال فريق من المنتفعين الذين يبذلون أقصى ما يستطيعون من جهد فى سبيل التزيين والتجميل ...تزيين الفساد والابتزاز والاستغلال ، وتجميل ما يكـــون من جبن وتقاعس .

وأنت إذا أجلت البصر فيما حولك فى الكثرة الغالبة من أوطاننا العربيـــة المنكوبة بداء القهر والاستغلال فسوف تجد أجهزة إعلام تـــستخدم أرقـــى مـــا وصلت إليه فنون الإعلام من تقنيات لتبرير ما يتم على أيدى القاهرين من سىء الأعمال وبشع التصرفات ، فيصورون الحق باطلا والباطل حقا تقليدا لأسيادهم على الساحة الدولية ، الذين يصورون المقاومة إرهابا ، وإرهاب السلطة وكأنه حدا لتخريب موهوم وإيقافا لباطل مزعوم !

هنا تكون المقاومة فريضة أساسية ، بالسلاح نفسه ، أقصد : الكلمة أيضا ، لكنها الكلمة الصادقة ، والرأى الشجاع . وقد يجد المقاوم من يقول له بحـــسن نية ، أننا كثيرا ما كتبنا نقدا وكثيرا ما كشفنا عورات الحكم وأساليبه المشينة ، لكن : لقد أسمعت إذ ناديت حيا ، ولكن لا حياة لمن تنادى !

هنا نؤكد على أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة ، وأن الجبل يبدأ بذرة رمل أو قطعة حجر ، والذى يمارس المقاومة الفكرية منتظرا أن يأتى الفرج علـــى يديه واهم ، لكننا نؤكد ثقتنا بسنن الله تعالى فى خلقه ، وأن من هذه الـــسنن أن الله يمهل ولا يهمل ، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، إن لم يكن فى هذه الحياة الدنيا ، ففى الحياة الآخرة ، أو فيهما معا .

وفضلا عن ذلك فإن القانون الخاص بعدم فناء المادة ، يصدق أيضا فى مجال الفكر ، فالفكرة التى تطرح ، إذا كانت تحمل قدرا كبيرا من الصدق ، وإذا كانت تشير بقوة ووضوح إلى حق ، فلابد أن تؤتى أكلها غدا أو بعد غد ، فى حياتنا أو فى حياة أولادنا .

وإذا كان النقد عادة ما يوجه إلى الآخر ، فإن أرقى صور المقاومة النقدية أو النقد المقاوم هو ذاك الذى يكون إزاء الذات !

هنا قد ترتسم علامات دهشة لدى البعض لأول وهلة ، إذ كيف يقاوم الإنسان ذاته ؟

هنا نذكر الكثيرين بما يتعرض له أكثر الناس من صور غواية أو تقاعس أو إغراء ، فها هنا تشمر قوة داخلية عن سواعدها لتمارس المقاومة ، وكأن الواحد منا قد انقسم إلى شخصين ، يواجه أحدهما الآخر بكل ما يملك من أسلحة المقاومة للقتال ...إنه هو هذه القوة السحرية العجيبة التى نسميها بالضمير ..قوة نقد مقاوم ، ترصد ما قد يكون فى ما نفكر فيه ما يسئ أو يضر فترفع الصوت عاليا : لا ، هذا لا يصح ولا يجوز !

وقد يكون الموقف على العكس من ذلك ، عندما يكون هناك تقاعس عن فعل خير أو وقول صدق أو شهادة حق ، فإذا بهذه القوة السحرية تلهب ظهورنا بالتوبيخ حاثة لنا على نفض غبار التكاسل والتقاعس ، دافعة لنا على التحرك والفاعلية ..

إنها النفس اللوامة ...

واتخاذ موقف نقدى من الذات لا نعنى به فقط الذات الفردية ، وإنما نعنى به أيضا الذات الجماعية ..ذات الوطن ، وذات الأمة .

فالمدافعة عن الأمة ، والذود عن حياض الوطن مطلوب ومنشود ، لكن هذه الأمة وذاك الوطن مثله مثل أى فرد منا ..ليس كامل الأوصاف بأى صورة من الصور ، فهناك أوجه نقص ، وهناك عيوب ، وهناك صور تقصير

، وعلل وأمراض ، ولو فتشت أيضا فى جسمنا الثقافى ، وفى بنائنا الاجتماعى ، فغالبا ما سوف تجد الكثير مما يستوجب اتخاذ موقف نقد مقاوم ٠٠٠

خذ مثلا ما يحدث لأمتنا منذ فترة غير قصيرة من علل وأمراض اجتماعية تحتاج لا إلى مقال ولا إلى كتاب وإنما عدة مقالات وعدة كتب ٠٠٠

فهذه النزعة الخطيرة التى تنخر فى عظام الأمة والتى تعرف بالنزعة إلى الحل الفردى ، هى بأشد الحاجة إلى تعريتها وكشف مظاهرها وتحليل أسبابها وعواملها ، ثم لا نتوقف عند هذا الحد وإنما نمارس ما نقول ونفعل ما نردد لسانا ، حيث ما من أحد منا إلا ويتعرض لها ، وهى تحمل الكثير من صور الإغراء ، لأنها تحمل حماية للذات ، ذاتى كفرد وذات امرأتى وأولادى ، وصدق الله العظيم الذى أشار إلى أن من أولادنا لفتنة ، فالذى يأخذ أكثر مما يستحق بدعوى أن هذا لمصلحة أولاده وأهل بيته يغلب الحل الفردى على الحل الجماعى ٠

والنقد المقاوم نحتاجه أيضا ، وبإلحاح شديد فى الحديث عن أمتنا وتاريخنا وعقلنا الجماعى ٠٠٠

فنحن لا نقدم من تاريخنا – مثلا – إلا ما هو زاه ، ووردى ، وممتاز ، وكأننا خلقنا من طينة أخرى غير تلك التى خلقت منها سائر الأمم ٠ صحيح أن المولى عز وجل قد قال أننا خير أمة أخرجت للناس ، ولكنه قرنها بالدعوة إلى المعروف والنهى عن المنكر ، فهل كنا دائما وأبدا نأمر بالمعروف ونفعل ، وننهى عن المنكر وننتهى عنه بالفعل ؟

إن التاريخ وقائع قد حدثت ، ولن يمحيها أن نخفيها أو نزينها ، فمثلما هناك علماء أفذاذ مثل ابن الهيثم ، وابن حيان ، وابن ماجد وغيرهم ، هناك دجالون ومخرفون ومشعوذون ٠٠٠

وإذا كان هناك أبطال شجعان مثل خالد بن الوليد ، وصلاح الدين الأيوبى ، وقطز ، فهناك المتآمرون والمتخاذلون والجبناء ٠٠

لا بد إذن أن نعرض تاريخنا ، لا وفقا لما نرغب ونتمنى ، وإنما وفقا لما تم بالفعل ، وكشف صور الانحراف وتعرية صور الزيف .

وعقلنا الجمعى أصيب من جراء عهود طالت من التخلف والوقوع فى براثن القهر والاستغلال والاستبداد بعدد غير قليل من السلبية والانحراف ، مثل تغليب التفكير فى الجزئيات لا فى الكليات ، والقفز إلى النتائج قبل أن تكتمل مسيرة بناء المقدمات ، وغلبة الانفعال والعاطفة على ما يجب من تغليب للمنطق والحجة ، فضلا عن الاندفاع فى استخدام ما يجرح من تعبيرات وألفاظ ، وعلو الصوت والصياح ، بدلا من الصوت الهادئ العميق .

لا أقول هذا نافيا أن هناك عكسه ، وإنما تغليبا للمنطق الذى تعبر عنه العبارة الشهيرة (لا شكر على واجب) ، إذ ما نحن بحاجة إليه هو نقد كل هذه الصور المريضة تخليص جسم الأمة وعقلها مما يضعفه ، لبتقوى وتستوى على الطريق المستقيم !

مقاومة ثقافية*

دق جرس الهاتف ليلا ، لأجد على الطرف الآخر ابنا لنا يرأس حاليا قسما فى إحدى كليات جامعة قاهرية يسألنى إن كنت أعرف أحدا حصل على درجة الدكتوراه فى التخصص الذى يرأس قسمه ، من إحدى الجامعات الأجنبية بالخارج ، فلما سألته عن السبب قال أنهم نشروا إعلانا يطلب أعضاء هيئة التدريس وأنه عرف أن النية تتجه لتفضيل من يكون حاصلا على درجة الدكتوراه من خارج مصر !

أقول الحق ، كدت لا أصدق أننى وأنا أسمع هذا الذى أشرت إليه لولا أن المتحدث هو أقرب تلاميذى إلى قلبى ، ويستحيل ألا يكون صادقا ...

كأن صفعة شديدة نزلت على وجهى أنا ، فهذا الذى يحدث هو إهانة وصفعة إلى كم غير قليل من أساتذة الجامعات المصرية ، حيث أصبحنا فى الطريق إلى أن لا يعترف بقيمة علمية لما يمنحون ويناقشون من رسائل ماجستير ودكتوراه !!

كنت قد سمعت عن مثل هذا منذ سنوات بعيدة إلى حد ما فى بعض دول الخليج ، وكان الدافع مفهوما على وجه ما ، حيث أن بعض الأساتذة – لا سامحهم الله – كانوا يترخصون فى الشروط الواجب توافرها فيمن يريد الحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه ، فدرءا لهذه الشبهات حبذوا تفضيل الدكتوراه الأجنبية على المصرية أو العربية عموما .

وبفعل تداعيات متعددة ليس لها مجال هنا ، تطور الأمر ليصبح قاعدة عامة فى معظم دول الخليج : لا ينبغى الاستعانة بعضو هيئة تدريس حاصل على

---

* جريدة نهضة مصر على مرتين : ٧/٢٥ ، و ٢٠٠٨/٨/١

شهادته من مصر أو بلد عربى آخر ، إلا عند الضرورة ، لأن الدكتوراه الغربية هى صاحبة المقام العالى .

ولسنا بسبيل مناقشة هذه القضية ، وإلا لأشرنا إلى جامعات بريطانية وأمريكية ، تباع فيها الرسائل وتشترى !!

ما يهمنى فى هذا الأمر كله هو دلالة هذا من حيث التراجع عن الإقبال على المنتج العلمى العربى ، وأن يحدث هذا فى مصر ، التى مفروض أنها مصدر تغذية معرفية للعالم العربى ، فهل يمكن أن نلومهم فى دول الخليج على ما يفعلون ، إذا كنا نحن قد بدأنا نفعل فعلهم ؟

أعرف أن هناك سلبيات وأوجه قصور فى رسائل الماجستير والدكتوراه ، وأعانى شخصيا من ذلك ، كما يعانى كثيرون غيرى ، ولكن الحل لا يكون بمثل هذه الإجراءات التى تهين العقل العلمى المصرى ، وإنما بالبحث عن العيوب والأخطاء والاستنفار من أجل مواجهتها مواجهة حاسمة بغير ما مجاملة ولا تعسف !

ويتصادف أن أقلب صفحات كتاب قديم اصفرت صفحاته وانقطع غلافه ، فلم تظهر لنا بياناته ، إلا ما كتبه أحد القراء على أول صفحة داخلية تشير إلى أن اسم الكتاب هو (سلافة النديم) لعبد الله أفندى نديم ، بغير تاريخ ، " بقلم صديقه الكاتب الشهير أحمد أفندى سمير " !

ثم إذا بى أجد أن المأساة نفسها ، تظهر أواخر القرن التاسع عشر ، وإن كان يمكن للناس فى ذلك الوقت أن يُلتمس لهم عذر ، فقد كانت الكثرة الغالبة فى غيابات " جُب " الجهل والتخلف ، فبماذا نعتذر اليوم وقد أصبحنا نملك العديد من الجامعات وما يزيد على المليون ونصف طالب بها ، وألوف الأساتذة ، وكذا وكذا مما هو معروف من ثروة معرفية ومعلوماتية ، إن لم نكن نحن منتجيها ، فهى متوافرة بين أيدينا طوال الأربع والعشرين ساعة لكل يوم ؟

من هنا أرجو أن يأذن لى القارئ فى التوقف معا أمام هذا المشهد " القديم " حدوثا ، المستمر " واقعا " ، مما لابد أن يملأنا بالغضب ٠٠غضب لا يقف عند حد الاستنكار والتقريع ، بل غضب يستنفر القوى كى ننظر إلى ما يحدث من تفريط فى أعز مقومات الهوية الثقافية ٠٠اللغة القومية ٠٠اللغة العربية ، على أنه لا يقل خطرا عن إصابة الوطن بوباء قاتل ، أو باحتلال غشوم !

من يتأمل جيدا أحوال البر المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر سوف يلمس بكل وضوح ، كأن الغنيمة قد هيئت لها الظروف السوداء كى تكون على حال الالتهام من قبل ذئاب ذلك الزمان فيلتهموها ، بعد أن طال بهم زمن الانتظار ٠٠٠

كان ذلك فى عام ١٨٨١ والاستبداد يضيق الخناق على أهل مصر ، والديون يشتد بها نهم الامتصاص ، والجيوش الغازية فى حالة جهوزية تنتظر الأمر بالاقتحام والغزو ٠٠٠

ولم يكن التربص والهجوم يستهدفان الأرض والخزائن فحسب ، بل إن ما لا يقل عن ذلك أهمية وخطورة ، استهداف العقول والثقافة والعادات والتقاليد والموروثات ٠٠

ومن هنا كان استنفار من كل قوى المقاومة ٠٠٠

أحمد عرابى ورفاقه بما تيسر لهم من جند وعتاد ٠٠٠

رجال سياسية ، يلحون على المشاركة الشعبية فى الحكم بإيجاد مجلس نيابى ٠٠٠

وأدباء ومفكرون يبثون الوعى ، ويزيلون الغشاوة ، ويعرون الأكاذيب ، وينبهون على الأخطار التى بدت بعض مظاهرها ، لكن كثيرين لم يكونوا مدركين مدى خطورتها ٠٠

من هنا برز دور مثقف مثل عبد الله النديم ، ليقود حركة مقاومة ٠٠٠

لم يكن الرجل ضابطا ولا جنديا عسكريا ، ولا كان يملك بندقية ولا مدفعا ولا قنبلة ، ولكنه كان يعى حقيقة موقعه " كمثقف " وطنى ، يتقدم الصفوف : يشد أزر المقاومين ، يفتح عيون غير المبصرين ..بأسلحته المتاحة : الفكرة ، والكلمة ، والقلم ، واللسان ، والعقل ، والقلب الصافى المفعم بالكثير من آيات الوطنية والإنسانية .

إن البعض منا ، فى أيامنا الحالية ، ونحن فى عام ٢٠٠٧ ، ممن يدرك أخطار العولمة على الهوية الثقافية ، ويجد أن طوفان " الأجنبية " قد أصبح محيطا بالكثير من مظاهر الحياة المجتمعية ليعجب أشد الإعجاب بسمو مفكرنا ، وليدهش أشد ما تكون الدهشة ، حيث أن الرجل ، كأنه يعيش زماننا ، ولولا السمات العامة للغته ، لكان يمكن ألا ندرك أن ما كتبه ، كان منذ ما يقرب من قرن وربع من الزمان !

فهو يصدر مجلة باسم (التنكيت والتبكيت) التى خرج عددها الأول فى السادس من يونيو سنة ١٨٨١ ، وتشم الرائحة الوطنية والعربية من أول سطر ، فهو إذ يدعو القراء إلى أن يستجيبوا فيمدوا أيديهم ليده ككاتب ومنشئ للمجلة ، فيكون الوصف للطرفين : " ... فاليراع وطنى ، يخاطب القوم بلغتهم " ، ثم يصف الصحيفة نفسها بقوله : " والصحيفة عربية ...وأنتم كرام اللغة وإخوان الوطنية .." ..إنها إذن الوطنية ، واللغة الوطنية .

هكذا يسفر الرجل من الدقيقة الأولى عن وجهه الوطنى العروبى ، حيث يصبح الوطن هو كعبته التى يطوف حولها قلمه ، لا سبع مرات ، بل طوال ما ظلت أنفاسه تتردد ، بغير كلل ولا ملل ، وتظل العربية الحصن الذى يذود عن حياضه .

وهكذا عندما يكتب مقدمة العدد الأول مقدمة يكون عنوانها : (أيها الناطق بالضاد) ، ويسمى هذا الذى يقوم به " بخدمة وطنية " .

وهو إذ يقف مدافعا ، بكل ما يملك من قوة ، عن اللغة العربية ، ويعمل على اجتذاب قارئه إلى هذه اللغة ، يحرص على أن تكون لغته سهلة مفهومة ، تستمد من سياق الحياة المعاشة بحيث لا يلجأ القارئ ، حتى يفهم المكتوب على صفحات المجلة " إلى قاموس الفيروزابادى ، ولا تلزمك مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ولا تضطرك لترجمان يعبر لك عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر لك معانيها ، فهى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم وفى بيتك كخادم ، يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى ، فاجعل لها نصيبا من عمرك الجليل ٠٠"

فالرجل هنا يضع الأسس التى لابد من أن تقوم عليها الكتابة الثقافية للجمهور العام ، بغير تقعر ولا غموض ، وعلو على القارئ ٠

وهو يصف حال التأخر وسعة الهوة بيننا وبين الغربيين الذين اندفع كثير منهم إلى مصر : ساسة واقتصاديون ، وتجار ، ومعلمون ، وأدباء ، ونصابون ، والباحثون عن المكسب ، والمرتزقة ٠٠٠من كل حدب وصوب ، مستغلين فى ذلك ما عرفت به مصر من كرم ضيافة وضعف حال " يقابل فيها القادم بالسلام والترحاب ويتمتع فيها الضيف بكرم لا يدخل تحت حساب مع تعظيم يجل عن مقامه واحترام لا يبلغه فى أشراف قومه : إن غضب ترضيناه بتقبيل الأيدى والأقدام ، وإن فحش قابلناه برقيق الكلام ، وإن انتهب حقا سامحناه ، وإن اغتصب مالا زدناه ، فإنه عزيز فى الوجود رفعه العلم إلى درجة يعدنا فيها من البهائم وأوصلته محبة الجنسية إلى مقام يصعب علينا الوصول إليه ، فهو عالم ، ونحن فى عالم ، وإن جمعنا مكان " ٠

ويلخص النديم مهمته على صفحات المجلة بالتوجه إلى القارئ : " إنك فى احتياج إلى مهذب يرشدك ومؤدب يوقفك عند حدودك ومنبه يوقظك من غفلة الكسل ونومة الإهمال ٠٠٠" ٠

كان من أبرز ما كتب النديم فى التنكيت والتبكيت مقالا حمـل عنـوان (عربى تفرنج) تجد فيه نفس القضية التى دارت حولها روايـة يحيـى حقـى الشهيرة (قنديل أم هاشم) ، وما كتبه توفيق الحكيم عن (عصفور من الشرق) ، و غيرهما ، مصورين التفاوت الكبير بين ثقافة آت من الشرق ، وثقافة أتى ليعب منها فى الغرب ، وما يترتب على هذا من انقلابات سلوكية ، بعضها يقوم على حق مثلما حدث بالنسبة " للتنور العلمى " ، وبعضها قام على غير حـق ، مثل الازورار عن اللغة الوطنية ، وضعف الانتماء الوطنى ٠

يصور النديم هنا فلاحا مصريا اسمه " معيط " ولد له ولد سماه " زعيط " ، تركه يلعب فى التراب وينام فى الوحل ، حتى أصبح قادرا على " تـسريح " الجاموسة فسرحه مع البهائم ، يسوق الساقية ، ويحول الماء ، فى مقابل مادى تمثل فى بعض مأكولات ذلك الزمان ، ويزيد مستوى الطعام فـى المناسـبات والأعياد الدينية ٠

وفى يوم مر بهما أحد التجار ، يبدو أن لديه شئ من التفتح ، فقال للفلاح أنه لو أرسل ابنه إلى المدرسة ، لتعلم وصار إنـسانا ذا شـأن ، فـسمع الأب النصيحة وعمل بالفعل بها ، فلما أتم العلوم الابتدائية أرسلته الحكومة إلى أوربا لتعلم فن ، حددته له (حيث كان يجوز ذلك عند هذا المستوى فى ذلك الوقت)٠

وبعد أربع سنوات عاد الولد من أوربا ، على إحدى السفن ، وأسرع أبوه إلى الاسكندرية لاستقبال الإبن الظافر ، فلما خرج الولد وجد أبيه يسرع إليـه ليحتضنه ويقبله ، كما هو جرى العادة فى مصر ، فإذا بالإبن يدفع أبيه بعيدا ، وبدا عليه نفور واضح من " الحضن " و "التقبيل " وجرى بينهما هذا الحـوار الذى ربما لا يكون حقيقيا ، لكنه يعبر عن " موقف ثقافى " قد يكون النديم زاده حدة وغلوا ، لكن الكاتب فى بعض الأحوال يضطر إلى زيادة الجرعة ، عندما يشعر أن المرض زاد عن حده ، وأصبح المريض فى منطقة الخطر :

زعيط : سبحان الله عندكم يا مسلمين : مسألة الحضن دى قبيحة جدا ٠

معيط : أمال يا ابنى نسلم على بعض ازاى ؟

زعيط : قول بون " أريفى " ، وحط إيدك فى إيدى مره واحده وخلاص !

معيط : لهو يا ابنى أنا بقول منيش " ريفى " .

زعيط : موش ريفى يا شيخ . انتم يا أبناء العرب زى البهايم .

معيط : الله يسترك يا زعيط ، والله جا خيرك يا بنى . فوت روح .

فلما وصل به الكَفر ، قامت أمه وعملت له طاجنا فى الفرن مملوءا لحما ، ببصل ، فلما رآه قال لها : ليه كترتى من ال..

معيكه (اسم الأم) : من ال إيه يا زعيط ؟

زعيط : من البتاع دا اللى اسمه إيه .

معيكه : اسمه إيه يا بنى ..الفلفل .

زعيط : نو نو ، ال دى البتاع اللى ينزرع .

معيكه : الغلة يا ابنى .

زعيط : نو نو ، دى اللى يبقى له راس فى الأرض .

معيكه : والله يا ابنى ما فيه ريحة التوم .

زعيط : البتاع اللى يدمع العينين ، اسمو أونيون .

معيطه : والله يا بنى ما فيه أونيون ولا .. دا لحم ببصل .

زعيط : سى سا (هذا هو) بصل . بصل .

معيطه : والله يا بنى نسيت البصل وانت كان أكلك كله منه .

وذهب الأب ليشكو ما صار إليه حال ابنه لأحد النبهاء ، قائلا أن ولده ذهب إلى أوربا ، وعندما حضر فوجئنا به يذم بلاده وأهله ، وينسى لغته ، فقال له " النبيه " أن ولده فى الحقيقة لم " يتهذب " صغيرا ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرف حق لغته ، ولا قدر شرف الأمة ، ولا ثمرة الحرص على عوائد الأهل ، ولا مزية الوطنية ، فهو وإن كان تعلم علوما إلا أنها لا تفيد وطنه شيئا ، فإنه لا يميل إلى إخوانه ولا يستحسن إلا من يعرف لغتهم .

وشبه " النبيه " حال الإبن بحال الغراب عندما أراد أن يقلد الحجل في مشيته وعجز عن التقليد واستحال عليه عوده إلى طبيعته الأولى ، فأصبح يقفز قفزا وقد خرج عن حد الجنسية ، لكن ليس كل من ذهب يطلب العلم فى أوربا بمثل هذا الحال المؤسف " فكم من شبان تعلمت فى أوربا وعادت محافظة على مذهبها وعوائدها ولغتها وصرفت علومها فى تقدم بلادها وأبنائها ولم ينطبق عليهم عنوان (عربى تفرنج) ٠

وأدرك النديم أن ما كان عليه المصريون من جهل هو أبرز الأبواب التي تفتح الأبواب على مصراعيها أمام التخلف ، ومن ثم أن يتملكنا غيرنا من الأوربيين بحكم ما كانوا عليه من معرفة متقدمة ، وكانت الأمية تكاد ألا تقل عن تسعين بالمائة على وجه التقريب ، فكرس صفحات من المجلة لبيان خطورة الجهل ٠٠

لم يسود الرجل الصفحات تنظيرا لبيان أهمية التعلم ، ولا سرد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية (مع أهميتها) تأكيدا على ضرورة التعلم ، وإنما صور موقفا حياتيا عمليا لإنسان وقع ضحية الاستغلال إلى الدرجة التى كاد أن يفقد فيها كل ثروته ، وربما دخل السجن ، لأنه لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يستطيع أن يحسب بجمع وطرح وضرب وقسمه ، مما مكن محتالا أجنبيا أن يلف الحبل على رقبته بالتزييف والنصب حتى كاد أن يزهق روحه لولا أن أدركه وطني غيور فضح الزيف ، وكشف التزوير ، وكان المقال الذى روى من خلال النديم هذا الموقف بعنوان (محتاج جاهل فى يد محتال طامع) فماذا روى فى هذا المقال ؟

احتاج أحد المزارعين لاستدانة مائة جنيه ، فقصد بعض التجار وطلب منه المبلغ ، فجرت بينهما هذه المحاورة ، بحضور أحد النبهاء :

الزارع : عاز ميت جنيه بالفرط (بالفائدة) يا سيدى ٠

التاجر : فرط المائة عشرين كل سنة ٠

الزارع : اعمل اللى تعمله ٠

التاجر : شيل من المائة يبقى كام ؟

الزارع : لهو أنا كاتب ؟ شوف يفضل كام ؟

التاجر : يبقى سبعين (؟)

الزارع : يا دوب كده ٠

التاجر : دلوقت صار لى مائة جنيه ضم عليهم عشرين واكتب كمبياله ٠

الزارع : اكتب وخد الختم أهو ٠

وفى وسط السنة ، قدم له الزارع عشرة قناطير قطن ، وعشرة أرادب من السمسم ، وعشرين من القمح ، وثلاثين من الفول ، وأربعين من الشعير ، وجاء يحاسبه ، فكان الحوار كالتالى :

الزارع : طلع لى ورقة بالحساب يا سيدى ٠

التاجر : انت جبت قطن بعشرين جنيه ، وقمح بعشرة جنيه ، وسمسم بثمانية جنيه ، وفول بعشرين جنيه ، وشعير بعشرة جنيه ، يبقى الجميع كام ؟

الزارع : ما قلت لك من ديك المره معرفشى الحساب ٠

التاجر : يبقى أربعين جنيه ، شيلهم من مائة وعشرين يكون الباقى كام ؟

الزارع : مين يعرف شئ لبده

التاجر : الباقى تسعين جنيه وفرطهم عليهم عشرين ، يبقى مائة وخمسة عشر ، طالب انت كمان ثلاثين ، يبقى مائة وستين ، ضم عليهم أربعين فرط ، يبقى الكمبياله تتكتب بمائتين وعشرة ونصف

الزارع : هو إيه ، موش الأصل سبع عشرات وعشرينتين ، وجالهم ثلاثين وثلاثين شلت منهم تمن البتوعات اللى جبتهم يبقى لك دلوقت ميتين وعشرة بس ، والنص ده جبتو منين ؟

التاجر : النص أجرة كتابتى ليس من الأرباح ٠

الزارع : آدى دلوقت صحت الحسبة ، والسنة دى أبيع لك خمسين فدان فـــى عشرة ، يبقى لك إيه بعد كده ، يا جنيهين ، يا تلاته ، خدلك بهـــم جاموســـة ، ويبقى على رأى المثل : شيل ده عن ده يستريح ده من ده ٠فقال النبيه للتاجر : أما تتقى الله فى هذا المسكين ؟ أخذت محصوله وصار دائنا لك ، فلفقـــت لـــه حسبة لا أصل لها ، وجعلته مديونا ، فإن حسبتك معه هكذا :

عدد

٧٠ بفائدة عشرين فى المائة ، فالمطلوب عدد ٨٤

وهو أورد لك هذا القدر :

قنطار	سعر	جنيه	
١٥	٢	٣٠	قطن
إردب			
١٠	٢,٥	٢٥	سمسم
٢٠	١	٢٠	قمح
٣٠	١	٣٠	فول
٤٠	٠,٥	٢٠	شعير
		١٢٥	جنيه

يكون له عندك واحد وأربعون جنيها ، فكيف جعلته مدينا بمائتين وعشرة ونصف بعد ذلك ؟ إن هذا لهو السلب بلا خوف ٠

التاجر : يا خبيبى الزارئ خمار ، وأنا إذا كان موش يعمل كده مـــوش لازم ييجى تاجر بنكير بعد خمسه سنة ٠

وهكذا يسفر هذا المستغل المتوحش عن وجهه ، ولا لوم عليه ، وإنما اللوم هو ما كنا عليه من جهل ٠ وإذا كان نصف الحل هو فضح أساليب هذا المحتال الخواجة ، فإن النصف الآخر هو أن " يتنور " المزارع المصرى ، بل نقول ،

أن هذا هو " كل " الحل ، لأنه لو " تنور " فلن يجئ مثل هذا الخواجة المستقل أصلا حتى نفضحه ونقاومه •

ويبلغ النديم الذروة بهذا المقال الصارخ الذى عنونه ب (إضاعة اللغة تسليم الذات) والذى نشره فى العدد الثانى من المجلة •

خاطب النديم القارئ (أيها الناطق بالضاد) ، وكأنى به قد أمسك بتلابيب كل منا يصرخ فيه :

" بم تستبدل لغتك وما لها من مثيل ؟ وإلى من تتركها وأنت لها كفيل ؟ وما الذى استحسنته فى غيرها واستقبحت مقابله فيها ؟ وأى شئ طلبته فيها ولم تجد له اسما ؟ "

وعلى هذا المنوال يمضى مثقفنا ، مشيرا إلى إمكانات اللغة العربية وقدرتها على مواجهة الظروف المتغيرة والعلوم المستحدثة ، وبيان تفصيلى لقيمة اللغة فى حياة الإنسان ، وجوهريتها فى إضفاء هوية خاصة بمن يتحدثون بها •

وقدّر الرجل أن هناك من سوف يهبون منتقدين متصورين أن هذه الدعوة للحفاظ على اللغة العربية لغة ثقافة وعلوم تعنى مخاصمة اللغات الأجنبية بصفة مطلقة : " لم أحرم عليك غير لغتك لضرورة تقضيها ونازلة تدفعها ومشكل تحله ، وإنما أردت تذكيرك بأن لغتك كان منطوقا بها من غير تعلم محفوظة فى غير كتاب ، وبمخالطة الدخيل فسد بعضها وخيف عليها من الضياع ، فدونت فى بطون الأوراق وبقيت قوتها فى اللفظ والكتابة ، ثم كثر فيها الدخيل •••"

وأرجع النديم هلعه إلى تفشى العامية واختلاط المصلحات والألفاظ الأجنبية بها ، مع أن لكل لغة " منطقها " ، ومعاييرها الثقافية التى قد لا تتوافق مع لغتنا ، وأن هذا يمكن أن يسير بنا فى طريق الاستحسان حتى نستقبح لغتنا وعادة أمتنا ، فإذا بنا وقد صار عقلنا أجنبيا بغير جذور ، وغريبا بغير أصالة ، فيسهل لاحتلال العقول وتضيع ذاتنا تحت سنابك الآخرين •

وعزز النديم رأيه وفكرته بعدد من الأفكار والأقوال التى قال بها آخرون ، عربا وأجانب مثل :

- زهير بن أبى سلمى : لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم ٠
- ابن خلدون : اللغة ملكة صناعية متقررة فى العضو الفاعل لها ٠
- لامارك ، الفرنسى ، المؤرخ الطبيعى : الوظيفة تكون العضو ٠
- شافى ، الفيلسوف الفرنسى المحقق : اللغة ليست بإرادة الإنسان ٠
- إبراهيم الهلباوى : استقلال الأمة موقوف على حفظ لغتها ٠٠٠وهكذا ٠

لقد حصلنا على استقلالنا الرسمى عام ١٩٢٢ ، وخرج جنود المحتل الإنجليزى عام ١٩٥٦ ، والمحتل الصهيونى عام ١٩٨٢ ، فهل نفتح الأبواب لمحتل آخر يجثم على ألسنتا وعقولنا ؟

انظر إلى الكثرة الغالبة من لافتات المحلات والشركات والمراكز التجارية ، تجد لغتنا تتوارى شيئا فشيئا ٠٠٠

امسك جريدة يومية قومية وقارن بين يصدر فى يوم معين من هذا العام ومثيله قبل عام ، ثم قبل عامين ٠٠وهكذا ، سوف تجد أن الإعلانات باللغة الأجنبية تزيد شيئا فشيئا ، دلالة على أن المسألة لم تعد مجرد معرفة للغة أجنبية وإتقانها للتحصيل العلمى والتعامل التجارى ، بل تكاد أن تصبح وسيلة اتصال مجتمعى ، وهنا مكمن الخطر الذى يجب أن يستنفر جهود كل أفراد هذه الأمة ٠٠فهذا أو الطوفان ، على رأى الراحل خالد محمد خالد ٠

دعوة إلى التفلسف*

تعددت مواقف جمعت بينى وبين بعض دارسى العلوم الشرعية ، وكـان الحديث عن الفلسفة ، فإذا بى ألمس " ضبابا فكريا " واضحا يتصل بها دفعهـم إلى أن ينظروا إليها بعين الريبة والشك ، ووضح أن المدار كله فى هـذا هـو الظن بأنها تقود المشتغل بها إلى الكفر ، وأن الدين يغنى عنها •

وليس المجال متسعا لأن نبين الظروف التاريخية فى التاريخ الإسلامى التى ألصقت بالفلسفة هذه التهمة ، ويكفى أن أبرز هنا سببين بإيجاز شديد ، أولهمـا يتصل بتلك الحملة العنيفة التى خاضها الإمام الغزالى ضد الفلاسفة عبر عنهـا من خلال كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) ، وثانيهما ما كان يحـرك بعـض الحكام من رغبة فى عدم انتشار اليقظة العقلية بين المسلمين والوعى الفكـرى حتى لا تتكشف لهم بعض سوءات الحكم ، ووجود بعض ممن اصطلحح علـى تسميتهم بفقهاء السلطان ، هؤلاء الذين لا يتورعون عن تكييف الفتوى الدينيـة خدمة لمثل هذه النوعية من الحكم •

ومن المعروف أن الغزالى فى هجومه إنما هاجم نوعية معينة من الفلاسفة ، وبابا خاصا كان من أبوابها ، ونقصد بذلك هؤلاء الفلاسفة وهذا الباب الـذى يتصل بالإلهيات ، وعالم الغيب ، وما عرف فى الفلسفة بالميتافيزيقا • والـذى لابد من إبرازه هو أن الفلسفة قد تخلت منذ زمن بعيد عـن مناقـشة القـضايا المتصلة بعالم الغيب أو الميتافيزيقا ، حيث تبين للفلاسفة بعد طول ترحال عبر العديد من القرون أن الإنسان لا يصل فيها بنفسه إلى شئ ، وأصبح الفلاسـفة يوجهون أنظارهم بدلا من ذلك إلى قضايا الإنسان ومشكلاته الكلية ، التـى لا تقع فى نطاق علم من العلوم المعروفة •

---

* جريدة آفاق عربية فى ٢٠٠١/٥/١٧

وعندما نستخدم كلمة الفلسفة الآن إنما نقصد بها " طريقة في التفكير " أكثر منها نسقا معرفيا بعينه ، طريقة في التفكير تهتم بطرح التساؤلات بغية الفهم والنقد ، ومن هنا كان السؤال المركزي المستمر هو : لماذا كان هذا ولم يكن ذاك ؟ وهي طريقة لا تقنع بهذه الأسباب والعلل المباشرة القريبة الجزئية ، وإنما تمد يد التحليل لتغوص في قاع المسائل بحثا عن أسبابها البعيدة الكلية . وتحاول أن تبصر جملة العلاقات التي تربط بين جزئيات الأمر في صورة كلية تحمل من المعاني ما قد لا يوجد في الجزئيات المتناثرة .

إن المجتمع الذي تشيع فيه روح الفلسفة هو المجتمع الذي يربي أفراده على النزعة النقدية التي لا تسلم بأي أمر من الأمور البشرية من غير أن تسأل : هل هذا صحيح ؟ فالرأي البشري لا يكتسب قداسة خاصة لأن صاحبه هو فلان صاحب الموقع العالي ، ولا النفوذ الكبير ، ولا الهالة الضخمة ، وإنما يكتسب الرأي قوته وحجيته بقدر ما يستند إليه من البراهين المنطقية والأدلة العقلية أو التجربة العملية .

والنزعة الفلسفية عندما تغلب على تفكير إنسان ، فإنها تؤكد له أهمية المرونة الفكرية ، بحيث يكون على استعداد لأن يتخلى فورا عما كان يعتقد في صحته من فكر (كل ذلك على المستوى البشري) إذا تبين له خطأ هذا الفكر بعد مناقشة مع آخرين ، أو بعد اطلاع على ما كتبه آخرون . وما لا يقل عن ذلك أنه يظل معلقا دائما صحة ما يحمل من أفكار ، إلى أن يثبت العكس ، ولا ينظر إليه وكأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه ، فهذا وحده ما يتصف به ما جاء به القرآن الكريم وجاءت به السنة النبوية .

بل إننا في حاجة إلى مهارات التفلسف في مناقشاتنا مع " الأغيار " ، لأنهم لا يسلمون أصلا بالنصوص المقدسة ، ولا سبيل إلى التعامل معهم إلا بالحجة المنطقية والدليل العقلي ، وهو النهج نفسه الذي نراه مبسوطا في كثير من آيات القرآن الكريم في عرض آراء الكافرين والمعاندين ومناقشتها .

غرام وانتقام*

" لا تدرى كم أتلهف على قدوم يوم الأربعاء هذا " ..

ذلك أنه اليوم المرتقب الذى واعدت فيه " سالى " حبيبها " راهوم " بالالتقاء فى القدس ، بعد فترة تعددت فيها المكالمات عبر شاشة الإنترنت بثته فيها مشاعر حب فياض وعواطف جياشة كثيرا ما كانت تنتهى بكلمة تتكرر عدة مرات : " أحبك " ، كان من شأنها أن تسكر عقل الشاب المراهق ابن السادسة عشر تجاه سالى التى كانت تكبره بعدة سنوات ، وكان كثيرا ما يتباهى أمام زملاء فى المدرسة بأنه أوقع امرأة تكبره فى غرامه ، لكن هذا اللقاء انتهى بأن فقد راهوم حياته ، وأودعت سالى السجن بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار ، فما الذى حدث بين العشيقين حقيقة ؟

أما سالى فقد كان اسمها الحقيقى " منى " ، وادعت هذا الاسم " سالى " على أساس أنها إسرائيلية جاءت من المغرب ، لكنها فى الحقيقة كانت فلسطينية مسلمة متخصصة فى علم النفس ، وعملت فترة بالصحافة، وتابعت بحكم عملها الصحفى عشرات المواكب الجنائزية توديعا لجثث شهداء فلسطينيين ، وبحكم المتابعة الصحفية ، كانت تسعى لمقابلة أهالى الضحايا مما كان يزيدها حزنا ويعتصر الأسى قلبها ألما على ضحايا وطنها الأسير ، فرأت أنه لن يسكت هذه الآلام النفسية التى تعتصر قلبها إلا بأن تنتقم ، تجعل أما إسرائيلية تحزن حزنا بالغا لفقد ابن لها كما تحزن مئات الأمهات الفلسطينيات يوميا على أبنائهن وأخواتهن وأزواجهن .

وبدأت التخطيط وفقا للسيناريو الشهير الذى شاهدنا صورة منه فى فيلم الراحلين يوسف وهبى وأسمهان بإيقاع الخصم فى حبائل الغرام ، حتى إذا وقع

* جريدة آفاق عربية ، فى ٢٠٠١/٥/١٠

في هذا الأسر ، وجهت إليه الضربة القاضية ، لكن الفرق الأساسى ، أن الدافع على الانتقام فى حالتنا الحالية ليس عاطفة مشبوبة مع شاب آخر ، وإنما هى " مجمع عواطف " يجمع تلك المشاعر التى تتأجج فى قلب المواطن الحر تجـاه الوطن والأهل والدين والتاريخ والعرض والمستقبل .

اتفقت منى مع اثنين من مقاتلى فتح بحكم أنها أيضا كانت من أعضاء فتح ، أما هذان المقاتلان فهما : حسن القاضى ، وفتح الدولة ، مصارحة لهما بأنهـا سوف تستدرج شابا إسرائيليا إلى القدس ، وأن عليهما وضع نهايـة لعمـره ، وكان ذلك فى منتصف يناير من العام الحالى ٢٠٠١ .

ولم يكن من السهل على منى أن تقنع راهوم بالمجئ إلى القدس من مقـر إقامته شمال غزة فى بلدة عسقلان ، فقد أبدى لها مخاوفه من رفض والديـه ، فأكدت له أنها سوف تعيده بسيارتها إلى تل أبيب قبل الخامسة مساء عن طريق صديقة لها لأنها تخشى القيادة ليلا .

وفى اليوم الموعود ، غادر منزله فى السابعة صباحا موهما والديـه بأنـه ذاهب إلى المدرسة ، ولو دققا قليلا فى هندامه ، وما وضعه على شـعره مـن دهان لربما خايلهما الشك ، لكن : لا يغنى حذر من قدر !

كانت منى قد أعطته بعضا من أوصافها حتى يمكن أن يتعرف عليها ، مـا دامت العلاقة كانت تقتصر على التهاتف على الإنترنت فحسب ، فعلى المحطة الرئيسية بالقدس وجد سيدة طولها ١٦٩ سم ذات شعر أسود مجدول ، وعينـين عسليتين ، وركب الإثنان " تاكسيا " إلى شمال القدس ، إلى الموقع الذى كانـت منى قد تركت فيه سيارتها ، وبعد ذلك تأهب الإثنان إلى الاتجاه إلى رام الله ، وأوهمته أن صديقة لها تبرعت بترك شقتها لهما كى يقضيا فيها وقت المتعـة والحب والغرام ، فازداد سيلان لعاب الفتى المراهق ، لكن المكان لم يكن فـى الحقيقة عش غرام ، ولم يكن بؤرة استمتاع جنسى ، بل مصيدة وطنية لواحـد من أبناء هؤلاء القتلة السفاحين الذين اغتصبوا الكثير من الأجساد الفلسطينية !.

استقالة وزراء بسبب
" الإسلام وأصول الحكم "* !

فى أثناء وجود عبد العزيز فهمى " باشا " وزيرا للحقانية – العدل – فى وزارة أحمد زيور " باشا " عام ١٩٢٥ علم أن دعوى قد رفعت أمام ما كان يسمى مجلس الأزهر العالى ضد الشيخ على عبد الرازق ، ابن حسن عبد الرازق " باشا " قطب العائلة الكبيرة الضخمة الى كانت حاضنة لحزب الأمة القديم ، ثم بعد ذلك حزب الأحرار الدستوريين ، وكان الشيخ على قاضيا بالمحاكم الشرعية ، وقد طلب فى هذه الدعوة تجريده من درجة العالمية التى حصل عليها من الأزهر ، لأنه أخل بوصف العالمية إذ ألف كتابا اسمه (الإسلام وأصول الحكم) قرر فيه ما يفيد أن الإسلام لا خلافة فيه ، وأن رؤساء المسلمين الآن ملوك لا خلفاء !

واستحضر الوزير الكتاب وقرأه أكثر من مرة ، ورأى أن ليس فيه ما يؤاخذ عليه الشيخ ، كما روى فى مذكراته ، فهو يشير إلى أن النبوة فى الإسلام هى وحى من عند الله ، وأن الوحى لا خلافة فيه ، بل هو اختصاص من الله لمن يوحى إليهم من بنى البشر .

كذلك رأى الوزير أن ما أرادوا بناء التهمة عليه هو ما قد يظهر من عبارة الكتاب من أن الإسلام دين نظرى ، ويؤكد الوزير أن هذا الفهم الذى فهمه متهمو الشيخ على عبد الرازق ليس واردا فى الكتاب ، لأن الإسلام ما دام دينا ، وما دامت أصوله مقررة من عند الله ، فالنظر فيه لا يمكن بوجه من الوجوه أن يكون له معنى إلا إذا سار العمل على مقتضاه . وإذ كانت الدعوى كما سلف مرفوعة على أساس أن الشيخ " على " أخل بوصف العالمية ، فقد توجه

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٦/١١/١٩

إلى كل من عبد الخالق ثروت " باشا " و إسماعيل صدقى " باشا ، وهما ممن اشتغلوا بوضع قانون الأزهر وسألهم إن كان غرضهما بهذا النص ترتيب عقاب على الرأى ، ذلك العقاب المخالف لكل دستور ؟ فأجابا " كلا ، إن هذا لم يدر بخلدنا " .

عند ذلك اتجه الوزير الحقانية لمصدر هذه الدعوى ، فناقش وكيل الديوان العالى فيها وأفهمه أن المجلس غير مختص بها ، فوافقه على رأيه وقال : " يكفى أن يحضر الشيخ على عبد الرازق أمام المجلس ويطلب عدم اختصاصه فتزول هذه الدعوى " . فأرسل عبد العزيز فهمى (الوزير) إلى الشيخ "على" أن يفعل هذا ففعل ، ولكن لم يقبل دفاعه بعدم الاختصاص ، وحكم فى الموضوع بتجريده من درجة العالمية !

وكان يحيى إبراهيم " باشا " قائما فى ذلك الوقت برياسة مجلس الوزراء بالنيابة عن زيور ، فأرسل يحيى للوزير نسخة الحكم الوارد لمجلس الوزراء من رياسة الأزهر ، وطلب منه أن ينفذه .

ورأى الوزير أن تنفيذ هذا الحكم ثقيل على ذمته حيث رأيه أن الحكم باطل لصدوره من هيئة اعتقد أنها غير مختصة بالقضاء فى جريمة الخطأ فى الرأى من عالم مسلم ، ومن ثم رأى أن يبعث بالحكم إلى كبار رجال القانون فى الحكومة وهم مستشارو لجنة القضايا ليسألهم عن قيمة هذا الحكم ، وهل مثله مما يجب على وزارة الحقانية تنفيذه أم لا ؟

فلما علم يحيى إبراهيم بأنه أحال الحكم على لجنة القضايا للغرض المذكور هاج وقال له :

– إذن نحن غير متفقين فى العمل ، ومن لا يريد أن يعمل معنا فليستقل !!

ويكتب عبد العزيز فهمه معلقا فى مذكراته ، أنه فى الأصل لم يكن سعيدا بالوزارة ، وكان يطلب من قبل إعفاءه منها ، لكن الموقف الذى حدث جعله يصمم على البقاء !

كان الموقف فيما بدا أقوى من وزير !

فالملك فؤاد كان يطمع فى أن يحل محل الخليفة العثمانى بعد سقوط الخلافة ، وكتاب على عبد الرازق ، يسقط سندا مهما يستند إليه الملك ، والحكومة القائمة لم يكن أمامها إلا أن تنفذ رغبة الملك فى معاقبة الشيخ حيث أنها وزارة أقلية ، وصناعة ملكية .

وفضلا عن ذلك فقد استغل يحيى إبراهيم موقف الإنجليز الذين كانوا حريصين فى سياستهم على ألا يقربوا من أى مسألة دينية إسلامية فى مصر ، فأدخل فى روعهم أن أكبر هيئة دينية فى مصر أصدرت حكما ، ووزير الحقانية لا يريد تنفيذه ، ومن رأى الحكومة عزله من الوزارة .

وبعد ذلك وجدنا أن يحيى إبراهيم لم يستصدر مرسوما بعزل الوزير من وزارة الحقانية ، بل استصدر مرسوما يقضى بإحالة أعمال وزير الحقانية إلى وزير المعارف " التربية " ، إلى أن يعين للحقانية وزير! ولما وجد عبد العزيز فهمى نفسه بلا عمل اضطر للاستقالة ، وكان ذلك فى سبتمبر ١٩٢٥ ، وترتب على ذلك تقديم ثلاثة وزراء استقالاتهم ، وهم إسماعيل صدقى ، ومحمد على علوبة ، احتجاجا على ما رأوه ماسا بحرية الرأى والتفكير !

روزفلت فى مصر * !

فى مارس من عام ١٩١٠ ، كان الرئيس الأمريكى الأسبق " روزفلت " قد تخلى عن الحكم بانتهاء رئاسته ، فقام بزيارات متعددة لبعض البلدان الشرقية كان من بينها مصر .

كانت يد الولايات المتحدة فى ذلك الوقت لم تتلطخ بعد بدماء الشعوب التى تعمل على ابتزازها وقهرها كما يحدث الآن ، وإنما كانت الصورة عكسية ، تنبئ بتقدير واحترام وحب .

وقد أقيمت له عدة احتفالات كان يقف فيها مشيدا بمصر وحضارتها وجمالها ، وحظى هو كذلك بكثير من الترحيب ، ففى وليمة أقامها له " جورج ويصا بك " على النيل ، قال روزفلت " إذا لم أستطع أن أزور إلا بلدا واحدة ، فإنى أزور مصر وأفضلها على كل البلاد الأخرى ، وإذا أردت أن أرسل ابنى لتكميل دروسه بالسياحة والمشاهدة فإنى أرسله إلى القطر المصرى ليرى آثاره ويقابل بين درجات ماضيه وحاضره " .

ويعترف روزفلت بالحضارتين الفرعونية والفينيقية ، فيقول فى الحفل نفسه : " أنتم أعرق فى العمران منا ، فإنه لما كان لأسلافكم المصريون والفينيقيون يبنون المدن ويجوبون البحار كان أسلافنا يعيشون فى غيابات الجهل وغابات التوحش " !

وعندما زاره وفد من الصحفيين المصريين فى فندق شبرد فى السابع والعشرين من شهر مارس ، إذا به يركز على العلاقات بين المصريين والأقباط ، حيث كانت قد بدأت تشهد بوادر توتر ، عندما نقلت الأنباء عزم الوزارة مد امتياز قناة السويس ، حيث كانت هناك بالمقابل معارضة شعبية واسعة ، وقد

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٦/١٠/١

تزايد التوتر واستعر عندما اغتال " الوردانى " رئيس وزراء مصر ، بطرس غالى فى فبراير عام ١٩١٠ ، فعقد " المؤتمر القبطى " فى أسيوط ، ثـم عقـد المؤتمر الوطنى المصرى فى القاهرة عام ١٩١١ بمبادرة مـن كبـار رجـال السياسة والفكر من المسلمين .

كان مما قاله روزفلت " إن كانت عندى كلمة نصح للمـصرى فهـى أن يعامل المسلمُ المسيحى بتمام العدل ، كما يعامل المسيحىُ المسلم . إنى أنـصح بهذا هنا " وعزز هذا بتأكيده أنه عندما كان فى السلطة لم يكن يسمح لمـسيحى أن يظلم مسلما ، ولا لمسلم أن يظلم مسيحيا ، ولا نعرف حقا : هل كان هنـاك مسلمون فى هذه الفترة فى الولايات المتحدة ؟

ومن أبرز ما قيل لروزفلت ، هذه الأبيات من قصيدة طويلة بعـض الـشئ لأمير الشعراء أحمد شوقى ، كان حريصا فيها أن يبرز لروزفلت عظمة مصر:

قف بتلك (القصور) فى اليم غرقى	ممسكا بعضها من الذعر بعضا
مشرفات على الزوال وكانـت	مشرفات على الكواكب نهضـا
وأنا المحتفى بتاريخ مصـر	من يصن مجد قومه صان عرضا
يا إمام الشعوب بالأمس واليـو	م ستعطى من الثناء فترضـى
كن ظهيرا لأهلها ونصيـرا	وابذل النصح بعد ذلك محضـا

أما الدكتور " شبلى شميل " صاحب الاهتمامات الكثيرة بنظرية التطـور وفلسفة النشوء والارتقاء ومروجهما فى مصر فقد قال " أحيى فيـك مـروض الوحوش – وحوش المال فى أمريكا ووحوش الحيوان فى إفريقيـا – وقـد لا تكون مصيبا فى هذه ولكنك مصيب فى تلك ..." !!

طالب يتحدى على مبارك* !

فى عام ١٨٨٩ كان السياسى الشهير عبد العزيز فهمى " باشا " طالبا فى السنة النهائية بمدرسة (كلية) الحقوق ، وكان عدد الطلبة فى ذلك الوقت تسعة طلاب ! وفى ذلك الحين أعلنت الحكومة عن وظيفتى " مترجم " إحداهما فى نظارة الحقانية (وزارة العدل) ، ومرتبها ١٢ جنيها يصل إلى ١٦ بعد ذلك ، وثانيهما فى إدارة مصالح القاهرة بنظارة الأشغال ومرتبها ثمانية جنيهات تصل بعد ذلك إلى ١٢ جنيها ٠

ولما كان متخرجو الحقوق فى ذلك الوقت يتقاضون خمسة جنيهات بعد حصولهم على الليسانس ، فقد أغراه هذا المرتب هو وبعض زملائه بالتقدم إلى امتحان المسابقة فى هاتين الوظيفتين ، وكانوا وقتها مولعين بالوظيفة الحكومية بحكم العادة ٠

وكان الرائد المعروف على مبارك قد عاد وزيرا للمعارف " التربية " ، فبلغه ما عزم عليه فهمى وزملاؤه ، فاستدعاهم إلى مكتبه بالوزارة فذهبوا إليه ، واستقبلهم فى غضب ، وسألهم :

- لماذا يتركون مدرسة الحقوق للالتحاق بالوظائف ، مع أنه لم يبق على امتحان الليسانس غير مدة وجيزة ؟
- فأجابوه بأن هذه فرصة سانحة لتولى وظيفة حكومية بمرتب لا يتحصل عليه متخرجو الحقوق ، فلم يقتنع وناقشهم طويلا وناقشوه ، وخرجوا من عنده مصرين ، فنقم عليهم وغضب ٠

وجاء ميعاد امتحان المسابقة ، فتقدموا إليه ، وقد نجح فهمى فى الامتحان الشفهى ، وكانت اللجنة مؤلفة برئاسة على مبارك نفسه ، وعضوية كل من

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٦/١١/٥

الشيخ حمزة فتح الله ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، واثنين آخرين ، فلما رأى مبارك صاحبنا فهمى أمام اللجنة قال فى غضب :

– أنت يا ولد مارحتش المدرسة بتاعتك ليه ؟٠٠طيب لما نشوف !

وكان الامتحان الشفهى يدور على مطالعة شئ من كتاب (الوسيلة الأدبية) للشيخ حسين المرصفى ، ثم تفسيره ٠ وقدم الشيخ عبد الكريم لصاحبنا الكتاب وطلب منه أن يفتح الصفحة الموافقة لرقم جلوسه فى الامتحان ، ففتحها فكان بها " باب الإيجاز والإطناب والمساواة " ، واتفق أن كانت قراءته صحيحة ، وكذلك أجوبته على ما وجه إليه من أسئلة ، وعقب ذلك قال له الشيخ حمزة : " خلاص ٠٠خلاص ٠٠قم يا ابنى " ٠

فقال على مبارك : كلا ، هذا لا يكفى ٠٠يجب أن يلخص لنا ما قرأه ، وكان التلخيص سهلا على طالبنا ، حيث كانوا قد درسوا فى الحقوق " علم المعانى " فى كتاب (مختصر السعد للتفتازانى) ٠ وكانت عادة أستاذ المادة الشيخ محمد البسيونى أن يجعل الطلاب يحفظوا النصوص عن ظهر قلب ، فكان تلخيص لما قرأه صاحبنا فهمى أنه تلى من ذاكرته ما كان يحفظه من دروس الشيخ ، فقال الشيخ حمزة : كفى ٠٠كفى ٠٠٠ليس لنا عنده شئ !

لكن على مبارك رد : لا ٠٠لا ٠٠يا شيخ عبد الكريم ، شوف له عقدة !!

فقال الشيخ عبد الكريم : افتح صحيفة كذا من الكتاب ، واقرأ ما بها من الأشعار ، ففتحها فهمى وابتدأ يقرأ أول شعر قابله فقال : كلا ٠٠اقرأ ما بعده ! فوجد فهمى أبياتا مكتوبا قبلها " قال البعيث الحنفى فى وصف ناقة " وهى :

وهاجرة يشوى مهاها سمومـــها	وطبخت بها عيرانة واشتويتها
مفرجـــة منفـــوجة حضرميـــة	مساندة سر المهارى النقيتــــها
قطعت بها شجعاء قوراء جرشعا	إذا عد مجد العيس قدم بيتـــها
وجدت أباها رائضـــيها وأمـــها	فأنفذت فيها الحكم حتى احتويتها

فقرأ الطالب الأبيات كأنه يقرأ كلاما أعجميا ، ولكنه فسر " عيرانة " بمعنى " ناقة " كما فهم من عنوان الأبيات . ولما جاء إلى قوله " شجعاء ، قوراء ، جرشعا " قال لأعضاء اللجنة : هاتوا لى قاموسا !

هنا قال على مبارك مستنكرا : كيف ذلك ، وأنت فى امتحان ؟ ، فرد " فهمى " لا أستطيع تفسيرها ، فلم يسبق لى أن قرأت هذا الكلام الغريب . فضحك الوزير ، وقال : اتلبخت للرقبة ، ووقف حمار الشيخ فى العقبة !!

فما كان من صاحبنا الطالب إلا أن رد قائلا : لا ..لست عريض الأكتاف ، بل إن عريض الأكتاف غيرى !

وغادر الطالب ، مقر اللجنة وهو موقن بالرسوب لا محالة ، لكن عندما ظهرت النتيجة وجد نفسه من الناجحين ، وحرص على استمرار دراسته فى الحقوق ، بجانب الوظيفة !

ما يستوقفنا حقا فى هذه " الحكاية " : شجاعة الطالب وهو يواجه وزيرا ، وديموقراطية الوزير ، تجاه طالب خالفه ولم يسمع كلامه ...

من هنا ولّد التعليم رجالا !

طه حسين و" الكاتب "* ..

فجأة ، وفى عام ١٩٤٦ ظهرت دار نشر باسم (الكاتب المصرى) ، ارتبط اسمها باسم الدكتور طه حسين ، حيث كانت تصدر مجلة شهرية ثقافية تركت بصمات بارزة فى الحياة الثقافية فى مصر منذ ذلك العام وما بعده ، حيث أتاحت الفرصة للمصريين خاصة والعرب خاصة أن يقرأوا عن " كافكا " و" سارتر" و" ألبير كامو " ، فضلا عن ظهور عدد من الكتاب الذين لمعوا بعد ذلك وصاروا نجوما فى الثقافة المصرية ، مثل د. سهير القلماوى ، ود. لويس عوض ، الذى اعتمدنا عليه فى المعلومات الواردة فى هذا المقال ، كان قد ضمنها مقالا له فى الأهرام فى الستينيات من قبل ثم نشره فى كتابه (الحرية ونقد الحرية) ود. عبد الرحمن بدوى ، فضلا عمن سبقهم مثل الدكاترة سليمان حزين ، ومحمد عوض محمد ، ومحمود عزمى ، ومحمد رفعت وغيرهم .

وأصدرت الدار عددا من المترجمات عن الفكر الغربى من مستوى رفيع ، لكل من " أندريه جيد " ، و" دستويفسكى " و " تولستوى " و " تورجنيف " و " هـ . ج . ويلز " و " أوسكار وايلد ، وغيرهم .

ولم يكن الغريب هو أن تصدر مثل هذه المجلة رفيعة المستوى ، فقد كانت مصر منذ عدة عقود تعرف الطريق إلى مثل هذه المجلات ...

ولم يكن الغريب أن يكون طه حسين هو رئيس تحريرها ... فأين كان وجه الغرابة إذن ؟

كان أصحاب هذه الدار أربعة إخوة من اليهود المصريين ذوى الثراء الواضح ، هم مارك هرارى ، وريمون هرارى ، وإدجار هرارى ، وإرنست هرارى ، وكان عمرهم يتراوح بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين ،

* جريدة الوفد فى ٢٦/١١/٢٠٠٦

اتفقوا مع طه حسين على أن يكون هو المستشار للدار ومسئول عن كل ما يتصل بالشأن الثقافى فيها ، ولم يكن أحد من قبل يعرف أن لعائلة هرارى اهتمامات ثقافية .

لقد سارع البعض بإضفاء أوجه تشكيك فى طه حسين نتيجة لهذا ، لكن ما لابد أن ينبه عليه هو أن اليهود فى مصر حتى ذلك الوقت كان ينظر إليهم على أنهم موطنون مصريون لا يرقى إليهم الشك لكونهم يهودا ، وكانت هناك قبل ذلك زيارات من مثقفين مصريين إلى فلسطين ، زاروا خلالها منشآت تعليمية يهودية ، وكان منهم أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد .

بيد أن التوقيت الذى ظهرت فيه الدار ، وسرعة الظهور ، هو الذى ساعد على الشك ، مما دفع كاتبا شهيرا فى هذه الفترة مثل إسماعيل مظهر إلى أن يندد بالأمر ، مشيرا إلى أن الصهيونية العالمية تريد أن " تجند " من خلالها عددا من ألمع نجوم الثقافة فى مصر ، إن لم يكن لترويج أفكارها ، فعلى الأقل عدم مهاجمتها ، وإن لم يكن للوقوف إلى صف الحقوق الفلسطيينية ، فعلى الأقل ، التخفيف من ذلك أو الامتناع عنه .

والحق أن التفكير فى التشكيك فى وطنية طه حسين ، والكوكبة التى كانت تشاركه التحرير والكتابة فى المجلة ، أمر يجانب الصواب ، وإنما هى سياسة عرفناها بعد ذلك ، يقع فى حبائلها مثقفون كبار دون أن يعلموا ، عندما تلجأ جهات مخابراتية أجنبية متخفية إلى إنشاء كيانات ثقافية تغرى عن طريقها بعض المثقفين ، وهو الأمر الذى انكشف بعد فترة بالنسبة لمجلة كانت تصدر فى بيروت ، تعرف باسم (حوار) كتب فيها كثير من المثقفين العرب ، ثم اكتشف أن وراءها جهة مخابراتية أمريكية أو إنجليزية .

بل إن الأستاذ محمد حسنين هيكل قد أكد على هذه السياسة ، خاصة منذ أواخر الحرب العالمية الثانية إلى درجة إلقاء بعض ظلال شك ، بالتلميح ، لا بالتصريح ، على ظهور جريدة أخبار اليوم فى نوفمبر عام ١٩٤٤ !!

وساعد على تأجيج نار التشكيك فى مجلة الكاتب ، والدار التى تصدر عنها ، أنه منذ العام ١٩٤٧ كانت قضية فلسطين تتفاعل بشدة وبسرعة ، حيث بدأت تظهر نوايا إنشاء كيان سياسى يختص باليهود ، لا من بين الذين على أرض فلسطين فقط ، بل لكل يهودى فى العالم يريد أن يعيش فيها .

ومن هنا ، وفجأة أيضا اختفت مجلة الكاتب المصرى ، بل وصفيت الدار كلية ، وتم بيع ما لديها لمكتبة الخانجى وعرضت آلاتها للبيع .

وأشار د. لويس عوض إلى أنه تعرف على أحد إخوة هرارى ، وهو " مارك " ، وسأله عما إذا كان صحيحا ما شاع من أن الحكومة المصرية هى التى هددت آل هرارى بضرورة إبعاد طه حسين ، ومن ثم فالمشكلة لم تكن فى الدار ، وإنما هى فيمن ترأسها وهو طه حسين حيث لم يكن مرغوبا فيه من حكومة هذا الزمان المعادية للوفد .

لكن مارك نفى أن يكونوا قد تعرضوا لضغط من الحكومة المصرية ..وكان التعليل الذى صرح به هو " الخسائر الكبيرة " التى منيت بها الدار .

لكن هل كان هذا بالفعل هو السبب أم أن بدء اتخاذ العدة لإعلان دولة للكيان الصهيونى ، بحيث تتكشف الأقنعة عن هذه العائلة ، فينفض المثقفون عنها ، فقالوا لأنفسهم " بيدى لا بيد عمرو ؟

لا أستطيع أن أزعم امتلاكى للإجابة الشافية !

إضاعة اللغة إضاعة للذات*

من منا لا يعرف عبد الله النديم ؟

حقا إنه أحد مظاليم الثقافة فى مصر ..لم يأخذ حقه من الدرس والبحث والتقدير ، إذا استثنينا دراسة الدكتور على الحديدى فى سلسلة أعلام العرب التى كانت تصدرها وزارة الثقافة ، مع أن الذى يتأمل فى سيرة حياته وجهوده يجد نفسه أمام أسطورة وطنية نادرة المثال .

نحن اليوم ، عندما نسير فى أى شارع تصفع أعيننا الإعلانات ولافتات المحلات بأسماء أجنبية ، وتجد زحفا متزايدا يوما بعد يوم للمدارس الأجنبية ، واتساعا فى الجامعات لرقعة هذه البدعة التى ابتدعوها باسم أقسام للتعليم باللغة الأجنبية ...وهكذا

هل تتصور عزيزى القارئ أنه منذ ما يزيد على المائة عام ، تنبه هذا العبقرى ، عبد الله النديم ، إلى خطورة هذا على الذات الوطنية ؟ خاصة بعد أن عاد من مخبئه الذى لجأ إليه عقب بدء الاحتلال البريطانى ، فإذا به يجد تراجعا فى أحد ابرز مقومات الهوية الثقافية ، ألا وهو اللغة العربية ، فيلجأ إلى هذه الوسيلة البسيطة الحوارية فى أول عدد من المجلة التى أصدرها باسم (الأستاذ) ، فى يوم الثلاثاء الموافق ٢٤ أغسطس من عام ١٨٩٢ .

إنه يصور لك حوارا طريفا فى أول صفحات العدد بينه وبين أحد المواطنين الذين يلحون عليه أن يحدثه فى السياسة حتى يعرف إلى أين نحن نسير بعد هذا المصاب الكبير ، مصاب الاحتلال ؟ ويظهر النديم تمنعه عن الحديث فى السياسة ، ورغبة فى أن يحدث مواطنيه فى العلم والتهذيب ، ويرضخ المواطن ، ويؤجل رغبته فى الاستماع إلى الشأن السياسى !

---

* جريدة الوفد فى ١٢، ١٩ / ٢٠٠٦/٨

لكن ، هل يستطيع النديم بالفعل ألا يتحدث فى السياسة ؟

كلا ، فها هو يطرح قضية اللغة للمناقشة ، فإذا به ، سواء من حيث يدرى أو لا يدرى يقف فى قلب السياسة !

وهو يعتمد اعتمادا رئيسيا على التحدث بالعامية • ومن الممكن لواحد أن يعترض ، ويتساءل : كيف يظهر النديم قلقه على وضع اللغة العربية بعد مجئ الاحتلال البريطانى وهو نفسه لم يكتب إلا بالعامية ؟

إنه هنا حقيقة لم يناقض فكرته ، ذلك لأنه كان يتوجه إلى جمهور بعينه ...عامة الناس ، فأراد أن يحدثهم باللهجة التى يفهمونها ، فإذا ما نجح فى حشد الرأى العام وراء دعوته لمحاصرة اللغة الأجنبية بحيث تقتصر على المحافل العلمية والبحوث والدراسات ، ولا تصبح لغة الثقافة والمجتمع ، يسهل بعد ذلك أن نخطوا بجماهير الناس نحو العربية الفصيحة ، فهى مسألة أولويات ، ولهذا يوجه حديثه إلى مواطنه قائلا : " أنا رايح أكلمك بالكلام البلدى التى تعرفه وتفهمه ، فإنك نسيت لغتك الأصلية ومشيت على كيفك فى الكلام " •

ويكون رد المواطن : " قول للجماعة اللى علمونا اللى كنا فى إيديهم زى الحتة العجينة وسابونا طلعنا زى العوام " !

ترى ، ماذا كان موقف النديم ؟

صدقنى أيها القارئ ، لولا أننى قرأت كلام النديم فى مجلته (الأستاذ) مؤرخا بعام ١٨٩٢ لظننت أن أحدا من الغيورين على الهوية الثقافية لهذه الأمة قد كتبها اليوم ، وهو أمر مؤسف من ناحية التطور الفكرى فى أى بلد من البلدان ، فالمفروض أن تتغير القضايا بتغير السنين والأعوام ، أما أن نرى القضية نفسها ، بعد مرور قرن كامل وثنتى عشر عاما ، فذلك يعنى ببساطة شديدة أن لا تقدم على هذا المستوى ، والجمود فى حد ذاته فى فلسفة التاريخ صورة من صور التراجع •

ولنكمل معا حوار النديم مع مواطن عادى من أبناء البلد حول ما أصبحت اللغة العربية تعانيه من هوان ، فالنديم يعلن استياءه وحسرته بقوله : " يا خسارة على لغتنا العربية اللى عرف فضلها العدو قبل الحبيب ، ولفّت الدنيا وما خلّت ولا حته إلا دخلتها بعلومها وفنونها وغرايبها ، وجت الآخر وقعت في يد جماعة زينا لا تعلموها ولا حافظوا عليها ! هيه دى عامله تنعمل ؟ حد يبقى له لغة طنانة رنانة ، لها مدة ماشية على أحوالها وقواعدها الغريبة وتراكيبها البديعة ، ونيجى احنا نضيعها بالكلام الفارغ ؟ يا ميت خسارة على لغتنا اللى ما هى لاقية حد يحوشها!!

ولما يظهر محاوره المنغمس فى التيار ، المساير لتدهور الأحوال ، امتعاضه من فكرة التمسك باللغة العربية بحجة أنه بموقفه هذا إنما يساير الزمن (أو بلغة يومنا : نساير العولمة !) يرد النديم : " أهو دا الكلام اللى يغم على القلب • بقى لما تتكلم بلغة ضيوفك ، وكل من جه تاخد لك من لغته كلمتين ، حتى تركب لك لغة من هنا ومن هنا ! ما بقيت غريب فى الديار ، وضيعت مجدك وشرفك ، ويبقى كل واحد من الناس يعرف لغته وجنسيته ، وانت زى حمار السكه ، كل من ركبك أهو صاحبك ؟! هوا دا التمدن اللى بتقولوا عليه ؟ اخص علينا وعلى عقولنا الفارغة !"

ولم يكن النديم فى كل صفحات المجلة ملتزما باللهجة العامية ، وإنما اقتصر فى استخدامها على حوارات تخيلها بينه وبين من أسماه " المعلم حنفى " ليمثل به مواطنا عاديا مخدوع فى مسار التطور الذى حصل فى مصر بعد الاحتلال البريطانى •

ويبدو أن النديم تلقى وسمع بعضا انتقدوا طريقته العامية ، فكتب فى العدد الثالث (السادس من سبتمبر ١٨٩٢) يؤكد أنه لم يرد الخروج عن المألوف من حيث أسلوب الكتابة فى المجلات ، التى يجد القارئ فيها موضوعات علمية وأدبية بلغة رصينة ، فكان تبريره " •••فإننا لم نخرج عن دائرة العلميات

والأدبيات وإنما ندخل فى كل فن بما يناسبه ونعبر عن المقصود بعبارات متداولة بين الخاص والعام تعميما للنفع ، فلا يرى المنشئون أننا قصرنا فى تحرير العبارة ، فما كل قارئ يحتاج إلى الإنشاء البديع ، ولا يرى العلماء أننا عدلنا عن طريقهم زهدا أو كراهة ، وإنما نقدم كل عدد بعبارات ومواضيع تخالف ما تقدمها ترويحا للنفوس وترويجا لبضاعة الأدب " .

وهى وجهة نظر سار عليها بعض كبار الأدباء ، فتوفيق الحكيم مثلا ، كان يستخدم العامية عندما يتعلق الأمر بحوار يدور بين أبطال الرواية أو المسرحية التى يكتبها ، دون أن يكون هذا دعوة إلى تغليب العامية على وجه العموم . والمستقرىء لصفحات " الأستاذ " يجد النديم بالفعل لم يستخدم العامية إلا فى نوعية بعينها من الموضوعات ، وفى صورة حوار بينه وبين " المعلم حنفى " ، لكنه ليس المعلم المعروف فى " نورماندى تو " !!

حياة أمة بعد موتها* !

لست صاحب هذا العنوان ، وإنما هو لصاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا ...

كنت أقلب صفحات المجلد الرابع من المنار ، في جزئه الحادي والعشرين ، الصادر يوم الأحد ١٦ من شوال عام ١٣١٩هـ الموافق ٢٦ من يناير ١٩٠٢ ، فوجدت المقال الافتتاحي بهذا العنوان ، وأسفل منه عنوان فرعي " جمعية اليهود الصهيونية " ، فما أن خلصت من قراءته ، شعرت بكم غير قليل من الحسرة والحزن ، ولساني يردد قول المولى عز وجل : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)) سورة الحج.

فها هو علامة من علامات فكر الأمة يتنبه وينبه منذ وقت مبكر للغاية .. بعد سنوات معدودة من عقد المؤتمر الصهيوني الأول ، وها هو ما يقرب من قرن كامل ، تنبئ أحداثه ومشكلاته ومآسيه التي عشناها بأننا لو كنا قد أخذنا كلمات هذا المفكر العملاق مأخذ الجد حقا ، لما حدث - وما يزال - طوال سنوات هذا القرن ، وها نحن قد دخلنا قرنا آخر والمشكلة تتفاقم ، ولا حول لنا ولا قوة ، بعد أن استشرى السرطان بالمنطقة ، وأصبحنا نلتمس الدواء من عند من جاءوا ونشروا هذا السرطان !

فماذا قال مفكرنا الكبير في هذا المقال المعجزة حقا ؟

فقد كان يتحدث مع رياض باشا في حال المسلمين ، وما يحتاجونه من الإصلاح ، فجاء ذكر اليهود عند ذكر كل ركن من أركان الإصلاح ، ألا وهو " المال " ، وكان أن تطرق الحديث إلى ذكر " الجمعية الصهيونية " ومساعيها

---

* جريدة صوت الأزهر ، في ٢٠٠١/٣/٢٣

المبكرة فى إعادة السلطة والملك إلى اليهود ، فأشار رياض إلى أنه كان قد فرغ من فترة بسيطة من قراءة كتاب كان قد ألفه أحد الأوربيين الكارهين لليهود ، أراد به أن يزدرى هؤلاء القوم ، فإذا به ، من حيث لا يدرى ، يعلى من شأنهم ويعظمهم ، وذلك ببيانه طريقهم إلى السيطرة والاستحواذ على مراكز الرأى والقرار فى عديد من البلدان الغربية ، وقد نقل بعض المصريين لرشيد رغبتهم فى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية حتى "يعتبر" المسلمون !

وكان هذا أمرا عسيرا نفسيا على شيخنا ، ووجه العسر هنا أن يجئ يوم يشير فيه إلى المسلمين بأن يعتبروا باليهود ، ويحاولوا أن يكونوا مثلهم ، وأى سوء يمكن أن يكون عليه الحال عندما يدور الزمن دورته ، فنحلم ونتطلع إلى تلك القدوة ، ممن ؟ من هؤلاء الذين لعنهم الله وسفههم فى العديد من آياته فى القرآن الكريم .

لكن شيخنا لا يجد محيصا عن الإشارة إلى علة تقهقرنا وضعفنا وسبب قوتهم وتقدمهم ، فهم لم يسيروا على طريق يتغنون فيه بنسبهم الشريف إلى سلسلة من الأنبياء عليهم السلام ، ولا الاعتماد على بركة التوراة فى الانتصار على غيرهم من الأمم ، لكنهم ساروا على طريق آخر" مهم للغاية ، اعتبروا فيه بسنن الله فى خلقه فحافظوا على لغتهم وجامعتهم الملية مع تشتتهم فى جميع أقطار الأرض وتقرب بعضهم من بعض بالتعاضد والتعاون ، وأخذوا بعلوم العصر وفنونه النافعة ، وبرعوا فى جمع المال الذى هو أساس القوة والعزة فى هذا العصر ؟ " ...

النهج نفسه المستمر ، حتى الآن ، وقد دخلنا القرن الحادى والعشرين ، على العكس منا ، فما زالت النغمة الغالبة علينا ، التغنى بنسبنا العظيم ، وبأننا أفضل الأمم دون أن ننتبه إلى صدق المقولة القائلة : ليس الفتى من قال كان أبى ولكن الفتى من قال ها أنذا !

وحتى يظهر فضل صاحب المنار أكثر ، لابد من التأكيد على أنه سبق أن

أشار إلى هذا التجمع الصهيونى فى العدد السادس من منار السنة الأولى (ص٤٤ و٤٥) ، وفيه أن هذا التجمع ظهر فجأة فى النمسا وألمانيا وانجلترا وأمريكا ، ولم يكن يظهر فى أول الأمر طلب " المُلك " ، وإنما كان يتظاهر بحب نقل فقراء الهود المهاجرين والمنفيين إلى فلسطين ، ليعمروها ويعيشوا فى ظل سلطان الدولة العثمانية آمنين ، وما أن مرت سنوات قليلة ، وبعد أن استشعروا قوتهم ، بدأت نواياهم الحقيقية فى الظهور ، فبعثوا من لندن " إسرائيل زنفويل " إلى الآستانة للمساومة فى شراء القدس الشريف ، وبعد عودته من هذه المباحثات مع السلطان العثمانى ، خطب فى التجمع الصهيونى ، يقول :

" إن اليهود سيرجعون بكثرة إلى فلسطين ، مملكتهم القديمة التى لا يمكن أن تغرب شمسها من سماء أفكارهم ، وسيبلغ عددهم فيها سنة ٢٠٠٠ ، أى آخر القرن العشرين المسيحى مائتى ألف ألف (مليونين) نفس ، (بلغوا الآن ثلاثة أضعاف هذا العدد) ، وسيجعلون تلك الأراضى جنات عالية قطوفها دانية ، وينشئون فيها حدائق ذات بهجة ، ويصلون أطرافها وأرجاءها بالسكك الحديدية ، ويقيمون فيها حكومة منتظمة خاصة بها تكون نموذج الكمال لجميع الأمم والأجيال ، فيكون شعب إسرائيل منارا على جبل صهيون تهتدى به الأمم كلها إلى المدنية الفضلى فى الأحوال الاجتماعية والسياسية والقضائية والأدبية والزراعية وسائر الشؤون المعاشية ، ومن قوانينه تتعلم دول أخرى طرق الرشاد فى تدبير الممالك كما تتعلم الأمم والشعوب من نظامه الاجتماعى حقيقة المدنية ، ومن سيادته الروحية معنى الديانة الحقيقية " !

والأهم من ذلك أن تعرف يا عزيزى القارئ أن قد كان للتجمع الصهيونى فرع فى الإسكندرية ، فى ذلك الزمن الأغبر حيث لم تكن لمصر إرادة ومغلوبة على أمرها ، وتنشر الصحيفة الإسرائيلية الناطقة بلسان الفرع ، داعية إلى موالاة يهود مصر للدعوة الصهيونية قائلة :

" أيها الإخوان ، إن شعبنا ما برح يعلل النفس بأن تكون له أمة (دولة) ولم

يتوان فى السعي ولن يتوانى مهما عارضته الصوارف ، وناهضته الصوادف ، وقد مضى على أؤلئك الذين دافعوا الدفاع الأخير عن fيتنا المقدس ألفا سنة كانت الأيام فيها تساورنا وتحاول محونا من لوح الوجود فعجزت بأبنائها عن زلزال عقائد إسرائيل ، وإن قواعد ديننا وأحكام شريعتنا تقضى علينا بأن نستمسك بعروة وطننا القديم ونعتقد أن سيعود إلينا مجدنا التليد ومكانتنا السامية • تمزق شعب إسرائيل كل ممزق وتفرق شمله فى الأرض ، ولكن بلاد صهيون كانت معهد الارتباط بين أفراده فهى مأمن السرب ، فرجة الكرب ، وبسببها بقينا حافظين للعهود ، محافظين على سنن الآباء والجدود ...

" إن أعاصير الظلم والاضطهاد وعواصف التعصب والعناد ، التى تعصف باليهود لتمسكهم بدينهم ، قد اضطرتنا إلى العمل بما تكنه السرائر ، وإظهار ما انطوت عليه الضمائر ، والخروج من مضيق الاستعداد إلى فضاء الإيجاد ، فالمشروع الصهيونى يطالبنا الآن بالمبادرة إلى العمل ، والمسارعة إلى اتخاذ الحيل ، ويحذرنا عاقبة الفتور والكسل ،حسبنا أننا مخرجون (منفيون) من كل مكان ، مبغضون من كل إنسان ...إذا لا علاج لهذا الامتهان إلا الاتحاد والاعتصام لتأييد النهضة المالية التى تأسست فى النمسا من أفاضل شعبنا لحفظ حقوقنا المقدسة ... "

المبكى بالفعل أن شيخ المنار ، يستعيد هذا الذى كتبه عقب انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول ، ويتعجب أن تمر عليه سنوات أربع ثم لا يجد تحركا من الأمة الإسلامية ، والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه أن شيخنا مات منذ سنوات طويلة ، حتى لا يرى القرن الحادى والعشرين قد أتى وما زالت صيحته ، التى أضيفت إليها صيحات آلاف آخرين ، مجرد سطور على الأوراق •

بين صحافة الفكر

وصحافة الخبر *

منذ سنوات بعيدة ، أواسط الستينيات ، كنت أدرس موضوعا للدكتوراه يتعلق بمجال من مجالات الفكر فى حقبة سابقة من حقب تاريخنا الحديث (عهد الاحتلال البريطانى) ، من خلال البنية التحتية للمجتمع ، وعاب أحد الأساتذة الذين قرأوا لى قبل المناقشة اعتمادى الكبير على " الصحف اليومية والأسبوعية "، فكان أن خصصت جزءا طويلا فى المقدمة فى محاولة للرد على هذا الاتهام ، مبررا ما فعلت بأن صحافة الأمس كانت صحافة " فكر " ، أما صحافة اليوم -حتى فى ذلك الوقت المبكر نسبيا ، الستينيات - فهى صحافة خبر وصورة وتحقيق ، وهذا الجزء أجد نفسى بحاجة إلى العودة إليه الآن ، ولابد أن أسجل هنا أن ما سوف أشير إليه لا يعنى سعادة به ، ولا تسليما بأن هذا هو الصحيح ، ولكن ، فقط " فهما " لمتغيرات ، وتفسيرا لتحولات ،

فلو استعرضنا بعضا من أسماء رؤساء تحرير صحف الأمس فسوف نجد أن قد كان منهم " أحمد لطفى السيد " فى " الجريدة " و " مصطفى كامل " للواء ، ومحمد عبده للوقائع المصرية ، ومن قبل للعروة الوثقى مع أستاذه جمال الدين الأفغانى ، والشيخ عبد العزيز جاويش ، هذا قبل الحرب العالمية الأولى ، وبعد ذلك سوف تجد الدكتور هيكل فى السياسة ، والدكتور محمود عزمى لها أيضا ، وطه حسين نفسه ...وهكذا ، مجموعة من نجوم الفكر والأدب ، فماذا ينتظر القارئ من صحف يرأس تحريرها أمثال هؤلاء ؟ ثم ، ما حال اليوم ؟ لا أقصد أبدا أن أنال من أحد " فلكل عصر رجال " ، و " كل ميسر لما خلق له" ، ولكن كثرة رؤساء تحرير صحف اليوم ليسوا من فئة " المفكرين " العمالقة الذين

---

* جريدة نهضة مصر فى ٢٠٠٤/١٢/٦

يتميزون بأنهم أصحاب رؤى معينة ، ويكونون مدرسة فكرية لها تلاميذ ، ويشكلون " منعطفات " واضحة على طريق العقل ٠

ولم يكن عالم الأمس يعرف ما عرفه عالم اليوم مما يسمى بظاهرتى " انكماش الزمان " وانكماش المكان " ، فهناك سيولة لا مثيل لها فى الأخبار التى تتصل بكل صغيرة وكبيرة فى مختلف أنحاء العالم تذيعها شبكات التلفزيون والراديو فى التو واللحظة ، وبذلك تضع السامع والمشاهد فى قلب الأحداث ، فيهتم بها ، ويرغب فى متابعة ما يحدث ، وظروف كثيرين قد لا تتيح لهم فرصة المتابعة المسموعة أو المرئية ، فتجد الصحيفة اليومية أمام ضرورة سد احتياجات القراء فى هذا الشأن ، فتتقدم أهمية الأخبار ، تصحبها الصور المتصلة ، والتعليقات والتحليلات ٠٠٠ولم يكن هذا بنفس الدرجة بالأمس حيث كان ملايين الناس يعيشون حياتهم دون أن يشعروا بأن ثمة أحداث كبرى هنا أو هناك من أنحاء العالم ، فتتراجع مساحة المقالات الفكرية ٠

وهل نتذكر : كم كانت الصحيفة تتكلف فى طباعتها وأجور محرريها ، وتوزيعها ، سواء داخل مصر أو خارجها ؟ بضع مئات ، وربما عشرات من الجنيهات٠ وهل نعرف ماذا تتكلف اليوم ؟ عشرات الألوف ، مما لا يمكن تحمله إلا بكثرة الإعلانات ، وآه من الإعلانات ! وانظر إلى صحيفة مثل الأهرام فى يوم الجمعة ، وأخبار اليوم يوم السبت ، وقارن بين مساحة الإعلانات ومساحة الموضوعات المحررة ، هل يمكن التضحية بمساحة تجئ بألوف الجنيهات ، من أجل مساحة لا تجلب قرشا وربما تجلب مشكلة !

والصحيفة سلعة مكلفة لابد لها من " زبون " ، هذا الزبون يتعرض يوميا إلى ما يصعب حصره من عمليات " تجريف " فكرى ، وتسطيح عقلى ، وانظر على سبيل المثال إلى مجال مثل " كرة القدم " حيث الهوس والجنون مما يجذب اهتمامات ملايين من الناس ٠٠صحيح أن هذه الظاهرة لا تنفرد مصر بها ، ولكن شبابنا - مثل مثيله فى بلدان عربية أخرى ونامية - لا يجد أمامه أوعية

فكرية تستقطب اهتمامه ، مثلما كنا نرى من وجود الوفد القديم ، ومصر الفتاة ، والإخوان المسلمين ، والجماعات الماركسية ، فيهرع إلى قنوات أخرى تستقطب طاقته ، خاصة وأنها غير مهددة للأمن ! ومن هنا تقلب الصحيفة اليومية فتجد أنها تفرد صفحات عدة للكرة ، وأحيانا " ملاحق " أسبوعية ، وفى المقابل لا تجد الصحيفة أنها أمام زبائن بمئات الألوف يريدون قراءة المقالات الدسمة ، بل يُنظر إليها على أنها "موضة قديمة " !

وهناك أيضا قضية حرجة للغاية ، ففى عصرنا الحاضر نجد أن " المعدة الإعلامية " وصلت إلى حجم مهول ، وتمتد فى أغلب الأحوال طوال أربع وعشرين ساعة يوميا تجد نفسها بحاجة إلى أن تقدم لها مادة مذهلة يوميا ، وهنا نجئ إلى المحظور : تسرب الكثير مما هو غث ! وما علاقة هذا بموضوعنا ؟ علاقته أن هذا الجهاز الضخم أصبح هو الذى يقدم " الغذاء الثقافى " لجماهير المشاهدين ، وبمرور الأيام تتعود عقولهم على هذه المستويات المتدنية مما أصبح الجميع يلاحظه ، وخاصة فى السنوات القليلة الماضية ، من " نط " و " عرى " وتحريك لأجزاء الجسم السفلية ، و " خبط " و " دق " أو ما يسمونه " موسيقى"

وعندما " يتعود " العدد الأكبر من الناس على مثل هذا ، فسوف لا يقبل على المقال " الدسم " ، وإذا وجد جزءا منه ، فسوف ينحيه جانبا ويعتبره من مخلفات روح مضت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولأننا ما زلنا نعيش مجتمعات متخلفة فى عالمنا العربى ، لم تمارس التعددية والديموقراطية التى تتيح لكل إنسان أن يعبر عن رأيه بغير خوف ، ولا تحرمه من موقع لأنه ليس من أصحاب المسايرة ، أصبحت الفرص أكثر من أن تعد وتحصى ، من جوائز ، وظهور مكثف فى أجهزة الإعلام ، والسفريات ، وحفلات التكريم ، فتقدم بعض ممن ليسوا أهلا للفكر الحقيقى الجاد ، وأصبح من السهل إضفاء ألقاب ضخمة وفخمة ، فهذا " كاتب كبير " ، وذاك " أديب كبير " ، وتلك " نجمة الجماهير " ..إلى غير هذا وذاك من ألقاب ، ومن ثم تجد

الساحة قد امتلأت بشخوص تجلس على كراسى ليست أهلا لها ، أو ، فى أحسن الأحوال ، أكبر أو أوسع منها ، وكثيرا ما يحدث العكس لفئة أخرى ، ربما يحملون فكرا حقيقيا ، لكنهم لا يجيدون ما يسمونه اليوم بفن العلاقات العامة ، أو لا يسايرون ويُجملون ويبررون ، فلا يصبح مرحبا بهم فى مواقع الصحف والإعلام .

ومن هنا فإذا كانت صحف الأمس تنشر لإبراهيم المازنى والرافعى والعقاد وطه حسين ومنصور فهمى وتوفيق دياب وسلامة موسى ، وغيرهم ، فإننا اليوم نفتقد إلى هذه النوعية " عالية الجودة " ، إلا ما ندر ، لأن المسألة ليست مجرد فكر يقدم ، بل ممن يصدر هذا الفكر ؟ فالفكر الذى يترك " بصمة " على العقول ، ويسجله التاريخ هو فكر أصحاب المواقف المميزة ، والنزعة النضالية ، والتحرر العقلى غير مدفوع الأجر !

وهناك أيضا ، على مستوى الدنيا كلها ، على وجه التقريب ، إيقاع التغير الحادث ، فمنذ أكثر من نصف قرن كان الهدوء والبطء سمتان ملاحظتان سواء فى حركة الناس ، أو المواصلات ، أو العلوم وتطبيقاتها ، ويكفى أن نتأمل بعض الشئ عندما يعرض فيلم سينمائى من فترة الثلاثينيات أو الأربعينيات ، حيث الشوارع الخالية ، والهدوء الواضح . ومن شأن نمط حياة بهذا الإيقاع أن يتيح للقارئ فرصة الاهتمام بالقراءات المطولة فى الصحيفة اليومية ، على عكس ما أصبح عليه الحال اليوم ، من سرعة غير معهودة ، وازدحام خانق ، ودارسو " ثقافة الازدحام " يشيرون كثيرا إلى ما تؤدى إليه من ضيق خلق ورغبة محمومة فى " التعجيل " بالأمور .

وعندما يستحضر الإنسان - مثلا - جدول أعمال أستاذ له فى تلك الحقب البعيدة ، سوف يجد أنه يكاد أن يكون محصورا فى التدريس ، والقراءة ، فإذا ما حاولت أن تنظر إلى حال اليوم ، فسوف تجد أن كثيرا من الأساتذة يلهثون فى أعمال متعددة : اجتماعات ، ولجان ، ومؤتمرات ، وسفريات . .وربما لا يجدون

-أحيانا - الوقت الكافى لمتابعة عملهم الأساسى فى التدريس ، فضلا عن القراءة ، إذا كانوا قد حصلوا بالفعل على درجة الأستاذية ، حيث يتعامل الأساتذة الجدد الآن باعتبارها نهاية المطاف ، وانتهاء القراءة والبحث ، إلى الدرجة التى يلحظ فيها بعض الدارسين الذين تناقش رسالة لأحدهم ، أن القراءة الفاحصة للرسالة لم تتم !

ولنتساءل : ترى لم لم نعد نرى " المدارس الفكرية والعلمية " التى كانت تحفل بها الجامعة فى مصر ، والساحة الثقافية ؟ كنت تستطيع أن تشير إلى " أمين الخولى " باعتباره بالفعل صاحب مدرسة لها تلاميذ ، وكنت تستطيع أن تشير إلى طه حسين كناظر مدرسة فكرية ، وقل مثل هذا بالنسبة لتخصصات علمية أخرى ، مثل " شفيق غربال " فى التاريخ ، " وعلى مشرفة " فى العلوم ، ومصطفى عبد الرازق فى الفلسفة الإسلامية ، ويوسف مراد فى علم النفس ، ومصطفى زيور فى التحليل النفسى ، وإسماعيل القبانى فى التربية ، وغيرهم .

كان من ميزات المدرسة الفكرية أن توجد امتدادا لأخلاقيات ، وتوجهات ، وآداب ، وتقاليد ، فيحافظ التلاميذ على كل فاضل من آثار أستاذهم ..لكن تلاميذ اليوم " أيتام " فى الحقيقة ، لا يجدون أستاذهم ليتعلموا منه " بالصحبة " و " المعايشة " وهما أكثر فاعلية فى التعليم والتعلم من الكتب والأوراق ، ومن هنا حدث انقطاع فلم يحافظ اللاحق على ما تركه السالف من تقاليد وآداب ، ثم تبدأ الجامعات تشهد أجيالا من " الأساتذة " ربما كانوا كذلك بحكم " الدرجة " و " الرتبة " ، لكنهم لا يعودون كذلك من حيث " الرسالة " و " الدور "!

والاستطراد فى الحديث عن حال التعليم وجنايته على الثقافة حديث موجع وطويل ، لا يتحمله هذا المقال ، ولو شئت أن نشير فقط إلى حال تعليم اللغة العربية لهالك الأمر ، فإذا فقد المتعلم " الحبل السرى " الذى يربطه بالثقافة العربية الرصينة ، فكيف يقبل على قراءة ما هو مطول من المقالات ، وما هو جاد وعميق ؟ بالأمس فقط ، حكى حفيدى أن معلمته كانت تتحدث عن طريق

الكباش المعروف في الأقصر ، فإذا بها تنطق كلمة الكباش بفتح الكاف وتشديد الباء ، وكان الحفيد ، وهو فى الصف الثانى الابتدائى ، قد سمع الكلمة بنطقها الصحيح من أبيه أكثر من مرة ، فقام بتصحيح النطق لمعلمته ، ومن حسن حظه أنها كانت مرنة فلم تنهره كما يحدث عادة.

وأنا أرجو من قارىء متابع ، وعلى صلة أن يمسك بأى رسالة ماجستير أو دكتوراه ، فى العلوم الإنسانية ، إن وجد صفحة لا تخلو من خطأ لغوى ، فسوف أرفع يدى حمدا لله ، فهل مثل هؤلاء يمكن أن يقبلوا على ما دسم وعميق مما ينشر فى الصحف ؟

كان أستاذنا فى الجامعة يا سيدى ، منذ عدة عقود ، عندما نلتقيه أول محاضرة ، يكتب لنا " مفردات المنهج " ، ثم قائمة طويلة بالمراجع ، ونتنافس فيما بيننا فى الاطلاع عليها ، ثم بالقيام بالبحوث والترجمات ، فى مرحلة التعليم الجامعى الأولى ، وكانت قاعة المطالعة فى المكتبة مزدحمة بنا طوال الساعات التى تخلو من محاضرات .

لم نكن مخلوقات خارقة من كوكب آخر ، كنا مصريين مثل طلاب اليوم ، من تراب هذا البلد نشأنا ومن مائها ارتوينا مثل طلاب اليوم ! فما الذى حدث ؟

أصبح هم القائم بالتدريس الأول عندما يلتقى طلابه لأول مرة أن " يأمرهم " بشراء " مذكرة " فى غالب الأحوال ، أوكتاب وحيد مقرر فى نادر الأحوال ، وغالبا ما يلحق بالمذكرة أو الكتاب صفحات ملونة تتضمن ملحقا لأعمال السنة ، يمكن فصله وتقديمه للقائم بالتدريس ، كوسيلة غير كريمة لإلزام الطلاب بالشراء ، وضمان عدم استخدام نسخة عام مضى ، لأن هذه الصفحات الملونة الملحقة تتغير كل عام وتحمل تاريخ العام .

هذه النوعية الرديئة التى يتغذى منها عقل الطالب لا يمكن إلا أن تصيبه " بالعقم الفكرى " ، فإذا ما وضعنا أمامه كتابة أخرى ضاق صدره وعجز عن احتمال القراءة ، وتعود عقله على " الاتجاه الواحد " فى التفكير والحوار ، إن

كان ثمة حوار أصلا !

هل نتحدث عن هذا الوباء السرطانى الذى يسعد به الآباء والأمهات ، وهو ما يسمى بمدارس اللغات ، فمصر - وربما بعض البلدان العربية الأخرى - تتفرد بين الكثرة من دول العالم بالسماح بالتعليم فى التعليم العام بلغة أجنبية (وهذا غير تعليم اللغة الأجنبية ، فهذا مطلوب وواجب)، وترى الفرح باديا على أوجه الآباء والأمهات عندما يسمعون من طفل الروضة شيئا باسم أجنبى تلقاه فى الروضة ، لكنهم لا يشعرون بحزن أبدا عندما ينطق بكلمات عربية غير صحيحة ومحرفة ، وعندما يقف الإبن الكبير عاجزا عن أن يفهم بعض الكلمات العربية العادية ٠ ٠أو قل " التى كانت عادية " ، منذ بضعة عقود ، ولا نقول منذ قرون ٠

والذى يتأمل جيدا فى حال السينما فى السنوات الأخيرة سوف يجد أن ما يسمى " بالموجة الشبابية " ، ليس المقصود بها نزعة جديدة فى الفن السينمائى من حيث القصة والسيناريو والتصوير وسائر مفردات هذا الفن ، وإنما هى عملية " مجاراة " و " ترسيخ " لما أصبح ملاحظا على سلوك شبابنا الجديد ، ومن هنا لو دققنا فى جمهور السينما فسوف نجد أن أغلبه - فى كثير من أحوال - من تلاميذ المدارس والصفوف الأولى من التعليم العالى والحرفيين ، معظمهم يذهب ليس من أجل فكرة يكتسبها أو اتجاه جديد يريد الاطلاع عليه ، وإنما من أجل " تضييع الوقت " والترفيه ، أو الالتقاء بين البنين والبنات ، فيحدث تعزيز مشترك ، حيث تغذى هذه النوعية من السينما حالة " التسطح الفكرى " لدى الشباب ، وتغرى كثرة هؤلاء المشتغلين بالسينما على الإكثار من هذه النوعية ، وتتدفق ملايين الجنيهات على أصحاب الأفلام ، وترتفع أسعار هذا وذاك من الشخصيات أو الاتجاهات ، فتروج فى سوق الثقافة صور " التجريف العقلى " لنوعيات من " الزبائن " لا تستهدف " تثقفا " و "وتعمقا " فى التفكير ٠

وعندما أتذكر كيف كان ألوف الناس يقبلون على سماع " القصائد الشعرية المغناة " ، مثل نهج البردة ، وولد الهدى ، وسلو قلبى ، وكليوبترا ، والجندول ،

والكرنك ، والأطلال فيكتسبون لغة راقية ، ومعان سامية ، وأنغاما شجية ، وصوتا رائعا ، فتشيع فى القلب والوجدان والعقل مشاعر وأفكار وكأنها تحمل السامع إلى سماء عليا " لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم " ، ثم أقارن هذا بما يسمعه الجمهور الآن مما أخشى معه على ذوق القارئ ، لو حاولت أن أسوق له أمثلة ، ويكفى فقط التنبيه إلى أمر ، ربما يكون شكليا ، لكنه ذو دلالة لا تخفى ، فالسامع الذى كان يسمع ما أشرت إليه من قصائد وأغانى الأمس كان يهز " رأسه " طربا و " انسجاما " ، لكنك تجد سامع اليوم يهز منطقة الوسط ..منطقة الاهتزاز الأولى هى منطقة الدماغ ، ومنطقة الاهتزاز الثانية هى منطقة الشهوة الحسية !

ويطول بنا المقام حقا لو حاولنا أن نستغرق القضية من جوانبها المختلفة ، لأننا نجد أنفسنا أمام قضية مركزية كبرى ذات وجهين ، أولهما الثقافة ، وثانيهما التعليم .

ومن هنا ، فليأذن لنا قارئنا أن نكثف الأمر كله فى التأكيد على أن من العسير تحميل هذه الصحيفة أو تلك ، أو جملة الصحف اليومية ، مسئولية هذا التراجع فى " الوزن الفكرى " و " الثقل الأدبى " و " الدينى " ، وإنما هى أزمة كبرى تتعدد أطرافها الفاعلة مما هو " مجتمعى " ، وتكون النتيجة المؤسفة هى " تهميش " الثقافة ، و " تسطيح " التعليم .

وأرجو ألا يسارع القارئ إلى اتهامى بأننى قدمت صفحة قاتمة ، وركزت على مظاهر الأزمة ، دون أن أقدم الحلول . وأنا أعترف بذلك ، لا عن عجز وإنما عن تمرد على نهج تقديم " روشتات " النصائح والتوصيات الفردية التى تقدم من خلال سطور مقروءة أو دقائق محدودة مسموعة ، ذلك لأن فردا ، أيا كان ، يستحيل عليه أن يبصر الحل الناجع وحده ، إذ ما دامت القضية متعددة الجوانب ، فلا بد أن تكون الرؤى متعددة الجوانب أيضا .

عندما تكون " البيئة " صديقة* ...

ليست البيئة موضوع حديثنا هنا هى تلك البيئة التى تحيط بنا من " مناخ " إلى تربة ، وماء وأشجار وحيوانات ، وما إلى هذا وذاك من مفردات البيئـة " الطبيعية " ، " المادية " ، وإنما هى جملة العناصر الأساسية للنظام الاجتماعى والسياسى والثقافي ٠ والصداقة المقصودة هنا هى أن تكون هذه البيئة مساندة ومؤازرة بل ومتبنية ما تؤمن به وتفكر فيه وتعتقده ٠

وتزداد الحاجة إلى البيئة الصديقة بالنسبة للمسلم الملتـزم فـى عـصرنا الحاضر خاصة ، حيث تشير معظم المؤشرات إلى أن البيئة القائمة هى بيئـة معاكسة ، إن لم تكن معاكسة إلى حد بعيد ، ولعل الإشارة إلى بعض المظـاهر تؤكد على ما نقول ...

فالمساجد لا تفتح إلا قبيل رفع الآذان مباشرة ، فإذا قضيت الـصلاة يـتم إغلاقها ، مع أن وظيفتها لا تقتصر على أن تكون مكانا للصلاة ، فالمـسجد ذا وظيفة " تربوية " بمعنى أن يضم من الأنشطة ما يكون عنصرا إيجابيـا فـى تنشئة المسلم ...

وبرامج التلفزيون ، حدّث عنها ولا حرج ، فكم المساحة الزمنية لما هـو دينى يكاد ألا يصل إلى نصف فى المائة ٠ وليس هذا فحسب ، بل إن محتوى الكثرة الغالبة من البرامج تسير في اتجاه لا يربط بين الموضوع وبين مقاصـد الشريعة ، وأدهى من ذلك وأمر إذا ما ابتليت وسمعت ولو عرضا بعضا مـن هذا الذى يسمونه أغان حديثة وما فيها من عرى وخلاعة وإثارة للشهوات ٠

وعند الاختيار والتعيين للمناصب وخاصة فى الدولـة ، وفـى مـستوياتها المختلفة ، يكون " التدين " عنصرا سلبيا ، بل وفى مؤسسات التربية والتعليم

---

* جريدة المصريون الإلكترونية ، فى ٢٠٠٧/٩/١٢

والتنشئة ، يعتبر " التدين " علامة نقص وإرهاب ، وإن أنسى فلا أنسى أن من الملاحظات التى سجلت على طالب فى إحدى الجامعات القاهرية " أنه يُكثر من التردد على المسجد " ، على اعتبار أن هذا مما يجعله فى دائرة الشك والتحفظ!

وقس على هذا ، أمثلة أكثر من أن تعد وتحصى ...

لكن الظروف أتاحت لى فى الأسبوع الأخير من أغسطس ٢٠٠٧ أن أزور بيئة صديقة للتوجه الإسلامى ، على الرغم من تحفظات متعددة يمكن أن تؤخذ عليها . أما هذه البيئة الصديقة ، فهى السودان ..، حتى أننى فهمت أخيرا : لمَ توضع هذه الدولة فى بؤرة الاهتمام الأمريكى سلبيا ، ولمَ تُزرع فيها المشكلات وتبذر الفتن والحروب الداخلية ، ولم هذا الفتور الشديد بين مصر والسودان ، على مستوى القيادات ، إلا فيما ندر ، وكأن هذا النادر يمضى باعتباره مجرد أداء واجب !!

كنت كثيرا ما أتعجب : كيف تأتّى لى أن أزور كل الدول العربية ، باستثناء البلدين المجاورين لمصر : ليبيا والسودان ، وكانت السودان بصفة خاصة هى الأكثر مدعاة للشوق من حيث الزيارة ، على اعتبار أننى واحد من جيل تربى منذ تفتحت عيناه على الدنيا ، النظر إلى أن مصر والسودان دولة واحدة : " السودان لمصر ومصر للسودان " ، كما كان محمد عبد الوهاب يغنى بصدق ، ونسمعه بحب : " عاشت مصر حرة والسودان " .

وكان من أكبر سلبيات ثورة يوليو ١٩٥٢ أنها لم تُحسن التعامل مع القضية السودانية فأسلمت ملفها إلى " صلاح سالم " الذى لم يكن بالقدر الكافى من الخبرة والنضج اللذان يكفلان له حسن التعامل مع القضية ، خاصة وأن الطرف الآخر " الإنجليزى " كان على العكس من ذلك من حيث الدهاء والمكر والقدرة على توجيه الأمور بحيث تخدم ما يريدون ، ألا وهو الانفصال ، فضلا عن وجود قيادات وزعامات سودانية ذات طابع دينى ، حيث تمثل توجيهاتهم وتعليماتهم ما يشبخ الأوامر للتابعين القاضية بوجوب الاتباع والطاعة .

وكان من سلبيات صراع السلطة فى مصر بين محمد نجيب وعبد الناصر ، والذى انتهى إلى إقصاء الأول ، من أبرز العوامل التى شجعت السودانيين على ألا يختاروا الوحدة مع مصر ، حيث كان نجيب قريبا لقلوب السودانيين ، فأمه كانت سودانية ، فضلا عن خبرته السابقة ولون بشرته الأميل إلى السمرة ، وقدر من السلوكيات العامة التى تجعله أقرب إلى قلوب الناس عامة ٠

ثم إذا بى فى أواخر أغسطس ٢٠٠٧ أتلقى دعوتين مرة واحدة وفى فترة واحدة ، الأولى خاصة بمؤتمر عن جامعة المستقبل ، والثانية عن تأصيل المناهج الجامعية ، وكأن شعار المؤتمرين ينمان عن مبدأين أساسيين فى نهوض الأمة الحضارى ، فمن ناحية لابد من الاتصال الوثيق بثوابت وأصول الهوية الحضارية للأمة ، وأعنى بها هنا الأمة الإسلامية ، وفى الوقت نفسه أن نكون على اتصال وثيق وعمل دءوب فى الاستجابة الواعية الرشيدة مع متغيرات المستقبل ٠

وكان من الضرورى أن أختار أحدهما حيث لم تتح الظروف التنقل بين المؤتمرين ، ووقع اختيارى على مؤتمر تأصيل المناهج الجامعية دون أن يمثل هذا " نزعة شخصية " ، وإنما هى الظروف المحيطة التى حسمت الاختيار ، حيث كنا مجموعة من الزملاء والأصدقاء الذين يعرفون بعضهم بعضا من مصر ، و" الصحبة " عنصر مهم فى السفر إلى الخارج ٠

كان الاستقبال فى مطار الخرطوم مفاجئا لى إلى حد كبير ، فلأول مرة أجد – مع زملائى – سيارة تنتظرنا عقب النزول من الطائرة ، لتقفز بنا فوق كل تلك الإجراءات المتعبة المعروفة التى يمر بها كل مسافر إلى أن يخرج من المطار ، وأشعر وكأن الناس يعتبروننا من علية القوم كما يعامل الزعماء ٠

لكن ، من المفارقات حقا ، أن العودة ، حيث غادرت قبل موعد انتهاء المهمة ، مع أخ آخر ، كانت على العكس من ذلك تماما ، وعانينا الكثير ، مما

لا داعي لإثقال القارئ بوصفه ، وبرز في ذهني تساؤل : لم لم يكملوا " نهجهم " الودود في المغادرة ؟

هنا أضع يدي على أمر مؤسف ألا وهو الضعف الواضح في التنظيم والترتيب ، في معظم الأمور ، وهو الذي يدفع الإنسان إلى التساؤل عن جوهر " الإسلامية " الذي من المفروض أن يدفع المسلم إلى أن يكون منظما ، دقيق التنظيم ، حيث لو تأملنا في كثير من الأساسيات الإسلامية فسوف نجد أنها مُثُل عليا في التنظيم ودقته ، ومن ثم ، فإن استمرار ممارستها تعد " تدريبا " يؤصل للانتظام والدقة بحيث يصبحا " عادة " .

لا أريد أن أتوقف عند هذه القضية كثيرا وما يتصل بها أيضا من حيث تقدير قيمة الوقت ، فهذه قيمة لمست ألا وجود لها ، فجدول الندوة يحدد – مثلا – بتوقيت معين ، لكنه أبدا لا يتم ، وهذا يعطيك موعدا ، فلا يكون التأخر دقائق بل يمكن أن يصل إلى ساعات ، حتى لقد لفت أحد الزملاء نظرنا إلى أن " الساعات " المعلقة على جدران المؤسسة التي كنا نعقد فيها الجلسات ، كانت معطلة ، مع أنها مؤسسة عسكرية ، حيث مفروض أن تقوم أمورها على الانضباط وحسن التنظيم ودقة الترتيب ، وكأن توقف الساعات عن العمل ، كان إعلانا عن أن التحديد الزمني غير مهم . وأعود هنا أيضا إلى لفت النظر إلى أن النهج الإسلامي مفروض أن يُعَوّد المسلم على الانضباط الزمني ، ويكفي أن أسوق مثالا واحدا ألا وهي توقيت الصلاة خمس مرات يوميا .

إن هذا هو ما يقلقني كثيرا في البيئات التي يمكن وصفها بالإسلامية ، فأتساءل بيني وبين نفسي : ما جدوى القراءة والحفظ في المصادر الإسلامية والتعبد ، إذا كان السلوك اليومي والتعامل مع الناس لا يعكس كل هذا ؟

لكن الغريب حقا ، في ظل هذه الصور من السلبية التي أشرت إليها ، وكان هناك غيرها كذلك ، أنني كنت أشعر بالعجز عن الغضب من الإخوة السودانيين المنظمين للندوة أو المؤتمر ، ذلك من شدة ما كنا نشعر به من دفء

المودة ومشاعر الحب ، و " الطيبة " الواضحة ، حتى ليبرز إلى ذاكرتى فى التو واللحظة المثل الشعبى الشهير " حبيبك يبلع لك الظلط ، وعدوك يعد لك الغلط " ، وهكذا تجد نفسك وقد أجبرت على ابتلاع " الظلط " من شدة ما تلمسه من حب وود وطيبة فى قلوب الكثرة الغالبة من السودانيين !

كان من اللافت حقا أن تعقد الجلسات فى أكاديمية الشرطة ، حيث تعودنا فى مصر على وجود هوة واسعة بيننا وبين الشرطة ، فالشرطة هى عصاة الحاكم وسياطه ، ومن هنا يجئ مثال واضح عن البيئة الصديقة ، ذلك أن النظام الحاكم يتبنى التوجه الإسلامى ، فإذا بهذه المؤسسة العسكرية تحتضن مؤتمرا عن " التأصيل الإسلامى " ، بل وأسمع عن التحاق بعض الضباط بدورات هذا المعهد الفريد حقا ، والذى أنشئ فى أحضان جامعة الجزيرة ألا وهو معهد (إسلام المعرفة) ، وهو المصطلح المرادف للشعار المعروف (إسلامية المعرفية) • ويزيد الإخوة السودانيون ، على هذا بأن " البشير " نفسه ، رئيس الدولة " سبق له أن حضر بعض الدورات التثقيفية فى التأصيل الإسلامى ، ناهيك عن وزراء وقادة كثيرين •

وعجبت أن أرى سودانيا جالسا معنا ، فلما صعد المنصبة ليلقى كلمة ، عرفت أنه وزير للتعليم العالى ، بينما لم تحط به أية مظاهر من تلك المظاهر المفزعة التى ألفناها فى مصر ، تصاحب الوزراء ، وأكثر من هذا ، أن أرى الرجل يغادر المكان ويستقل سيارته بنفسه ويعود بها إلى منزله ، أيضا دون هذه " الزفة " المخجلة التى تواكب كل تحركات الوزراء المصريين !!

كان من الملاحظات التى قلتها فى مداخلة لى ، أنه على الرغم من سعادة الإنسان بأن يتبنى النظام الحاكم مثل هذا التوجه الإسلامى مما يعين كافة المجالات والقطاعات على أن تعمل على المضى قدما فى التمكين للنهج الإسلامى ، سياسة واقتصادا وثقافة وتعليما ، إلا أننى أخشى دائما من أن يتحول النهج إلى عملية " فرض وإملاء " من أعلى ، على الجماهير ، ويتحول

التوجه إلى أن يكون توجها " نخبويا " ، وأن المفروض أن يكون " شـــعبيا " ، حتى لا نقع فيما وقعت فيه النظم الشمولية الاشتراكية من فرض نهجها علـــى الناس ، ومن كثرة الإلحاح الرسمى فى كل المواقع يتخيل البعض منا أن التوجه قد تغلغل فى قلوب الناس وعقولهم ، لكن ما أن انهارت القيادات حتـــى انهـــار النظام كله وهرع الناس إلى الرأسمالية ، يتصورونها الجنة التى تجـــرى مـــن تحتها الأنهار !

كذلك ، توحى إليك الأحوال وكأن السودانيين جميعا قد أصبحوا يؤمنـــون بالتوجه الإسلامى ، وهنا لابد أن نذكر بالتفرقة بين أن يكون الإنسان " مسلما " بحكم الميلاد والانتماء الرسمى ، وبين أن يكون " إسلاميا " ، أى يؤمن بالنهج الإسلامى فى مختلف مجالات الحياة ، فلا يقتصر فقط على أداء العبادات.

ومن هنا كان إلحاحى على ضرورة فتح أبواب الحـــوار والنقـــاش مـــع " المغايرين " ، بالحجة المنطقية والجدال بالتى هى أحسن ، حيث أشرت إلى أننى سمعت وقرأت وشاهدت ، شخصيات سودانية متعددة ، مغايرة ، واضطرت إلى الخروج من السودان ، توجه العديد من الانتقادات إلى النظام القائم .

على أية حال لا أستطيع أن أصدر حكما شاملا موضوعيا ، فأربعة أيـــام فقط ، مع مجموعة بعينها ، فى مكان محدد ، لا تتيح لمثلى أن يرى الـــصورة كاملة ، بكل أطيافها ومستوياتها ومواقف أطرافها ، ولعل هذا ما أدعـــو الله أن يتاح لى استكماله فيما بعد إن كان فى العمر بقية .

الشمس تشرق من البر التركى*

كانت آخر زيارة لى للولايات المتحدة الأمريكية فى مايو ٢٠٠١ ، وكانت هى الزيارة الخامسة منذ عام ١٩٨١ عندما وطئت قدماى أرضها لأول مرة فى مهمة علمية لعدة أشهر ، وعندما عدت فى المرة الأخيرة كتبت مقالا بعنوان (شروق من الغرب) ، وهو نفس عنوان للراحل الدكتور زكى نجيب محمود ، لكنه كان لمقصد مغاير كثيرا ، حيث لاحظت التطور المذهل للنشاط الإسلامى فى أمريكا ، وسواء من حيث تزايد عدد المسلمين ، أو من حيث النشاط ومستوى الوعى ودرجة النضج ، مما جعلنى أشعر بأن النهوض الإسلامى سوف يشرق من أمريكا ، خاصة وأنها بيئة مغايرة كثيرا عن البيئة التى يعيشها المسلمون فى بلدانهم الإسلامية ، من حيث الديمقراطية والتفتح العقلى وكرامة المواطن والسطوة الأمنية .

لكن ظنونى خابت مع الأسف الشديد ، عقب زيارتى بأشهر تقل عن أصابع اليد الواحدة (سبتمبر ٢٠٠١) ، حيث أصبح النهوض الإسلامى يواجه منذ ذلك الوقت بضربات أمريكية أحيانا ، وبضربات محلية أحيانا أخرى استرضاء للسيد الأمريكى .

وما من مرة أسمع فيها أو أقرأ أو أشاهد بعض الأحداث الدامية التى تنسب إلى مسلمين إلا وأشعر بالخجل الشديد لسببين ، أولهما هو ما ينتج عن هذه الحوادث من إهدار لأرواح كثير منها أرواح بريئة لا ذنب لها ، ثانيا ، توقع أن يزيد العداء للإسلاميين ، وكيف لا ، وبعضهم يقدم المبرر ، وآخر هذه الحوادث ما تم من اختطاف لكوريات على يد طالبان فى أفغانستان ، لا حول لهم ولا قوة ، وإن كانوا قد أفرجوا عنهم أخيرا ، لكن بعد ما لوثت طالبان

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٧/٩/٨

سمعة الإسلام والمسلمين مع الأسف الشديد ٠

ومنذ أن تقلد حزب العدالة والتنمية مقاليد الحكم فى تركيا ، وأنا أراقب ما يحدث على الساحة التركية ، تلك الساحة القريبة إلى قلب معظم المسلمين ، حيث كانت مقرا لآخر خلافة إسلامية باسم الدولة العثمانية ، خاصة وأنا أشعر بالندم على سنوات طويلة اكتشفت بعدها أننى مثل كثيرين تغيب وعيى فصدقت ما شاع عن الدولة العثمانية بأنها كانت دولة احتلال ، بينما كانت دولة خلافة ، وما شاع عنها كان بفعل الهجوم الأوربى انتقاما للدولة التى استطاعت أن تخترق كثيرا من الأرض التركية وتدخلها إلى الساحة الإسلامية ، فضلا عن التمهيد لابتلاع البلدان الإسلامية التى كانت تنضوى تحت المظلة العثمانية ٠

كل هذا مع التسليم بأن هناك أخطاء مؤسفة خطيرة وكثيرة ارتكبتها الدولة العثمانية ٠٠٠

كانت الفرحة الأولى ، يوم أن فاز حزب الرفاه بقيادة " أربكان " فى أواسط التسعينيات إلى درجة أننى رأيت فى ذلك " سلوى " شخصية من بعض الطعون الدامية التى استهدفت اغتيالى أدبيا ومعنويا واجتماعيا فى تلك الفترة ٠

لكن يبدو أن أربكان ، لم يكن حصيفا بالدرجة المفروضة ، ولم يحسب حسابا للمتغيرات المحلية والإقليمية والعالمية ، التى تشكل فى مجملها بيئة غير صديقة للتوجه الإسلامى ، وتعجل الرجل الخطوات ، فكانت النتيجة أن ضاعت طموحاته ، ومكّن العسكر أن ينقضوا على تجربته ويهيلوا عليها التراب ، وتلك نتيجة طبيعية ، ولو رجع أربكان ورفقاؤه إلى نهج الرسول صلى الله عليه وسلم ولاحظوا التدرج والبطء حتى تتهيأ التربة للزرع الجديد لأدركوا خطأ ما فعلوه٠

ولعل هذا أيضا يشير إلى النهج الخاطىء ، بل والموغل فى الخطأ وقصور النظر الذى نلاحظه على جماعات العنف المسلح الذين يتذرعون بسعيهم القضاء على من وما يعيق تطبيق النهج الإسلامى ، ذلك أن النهج إذ يقوم على

زرع عقيدة والتمكين لفكر ، فمن المستحيل أن يتم ذلك بالرصاص والسيوف والقنابل ، وإنما يكون بالفكرة والمعرفة والنهج العلمى ومنطق التطور الاجتماعى وسنن المولى عز وجل فى التطوير الحضارى ، وإلا فهم ينهجون النهج نفسه الذى تنهجه قوى البطش والقهر والاستبداد مع المخالفين لها .

أما حزب العدالة والتنمية ، فلربما تصور البعض أنهم إسلاميون اسما ، وليسوا إسلاميين جوهرا وحقيقة ، لكن هذا التصور خاطئ ، لأن أصحاب هذا الحزب يتحركون بعقلانية ومنهجية منضبطة حقا ، تبصر المنطق الحقيقى لتغيير الشعوب وتطويرها ، بعيدا عما كان يسمى بالنهج الثورى ، عندما كان بعض العسكر - أو غيرهم - يصدرون القرارات والقوانين ويُقصون بعضا ويُقربون بعضا آخر وينفون ويسجنون ويستبعدون ويقربون ، على أساس أن ذلك من شأنه التطوير والتغيير والنهوض ، فقد أثبتت التجربة أن هذا نهج فاشل لا يتسق مع منطق التطوير المجتمعى ، حتى لو استمرت التجربة الثورية أكثر من سبعين عاما مثلما حدث فى الاتحاد السوفيتى - سابقا - فكان السقوط المدوى ، لأن الأسس التى قام عليها كانت معاكسة للمنطق الحضارى .

والدارس جيدا للتاريخ الاجتماعى ومنطق النهوض الحضارى ، يكفيه ، مثلا ، أن تكون لدى حكومة العدالة والتنمية التركية إبان الغزو الأمريكى للعراق أن ترفض أن تكون الأرض التركية معبرا لقوات الغزو ، فى حين سمحت بذلك حكومات دول عربية وإسلامية وبعضها يعلن طابعا إسلاميا ، ثم يتجلى الذكاء التركى فى أن يستند على رأى الشعب ممثلا فى نواب البرلمان ، حتى يقطع الطريق على الغضب الأمريكى على الحكومة ، فإذا بالنواب يرفضون ، فلا يجد الأمريكيون بدا من الرضا بالنتيجة خاصة وهم يعلمون علم اليقين أن نواب البرلمان التركى هم نواب حقيقيون ، لم يأتوا بالتزوير أو الرشوة أو الفرض والتعيين ، ومن ثم لابد من أن يقتنع الأمريكان بأن هذه

رغبة " شعب " ، وهم يملأون الدنيا صياحا بأنهم يسعون إلى نشر الديمقراطية وأنهم رسل الحرية إلى مختلف دول العالم ٠

وعلى طريق سعى حزب العدالة إلي تهيئة التربة ، وجد أن رئاسة الجمهورية أحيانا ما تقف حجر عثرة على طريق طموحاته ، فكان السعى إلى اقتحامها ، أيضا لا بانقلاب ولا بعنف ، وإنما بنفس اللعبة الديمقراطية ، فالنهج الديمقراطى حقا يثبت يوما بعد يوم أنه النهج الصحيح فى حكم الشعوب ، بل وفى التعامل فى الحياة على وجه العموم ٠

وإذ تفشل محاولة الحزب فى الزج بعبد الله جول إلى سدة الرئاسة أول مرة ، يتصرف بذكاء شديد ، فيبكر بانتخابات برلمانية زادت من عدد نوابه ، وكان هذا يحمل رسالة صريحة أن الكثرة الغالبة من الشعب التركى تؤازر هذا الحزب ، وبالتالى يصبح هذا إشارة خضراء إلى أن فرص نجاح الحزب فى اقتحام الرئاسة لابد أن تكون قد زادت ٠

وهكذا جرت المحاولة الأخيرة ، التى أوصلت وزير الخارجية السابق ، ورئيس الوزراء السابق أيضا " عبد الله جول " بالفعل إلى رئاسة الجمهورية ، فأصبح حزب العدالة مسيطرا على المفاصل الرئيسية للنظام التركى : الحكومة – البرلمان – رئاسة الجمهورية ٠

وتتعدد مظاهر " التعقل " ، فإذا بجول يطمئن العلمانيين بأنه سوف يكون حريصا على المبادئ العلمانية ، وفى الغالب فإن البعض من المتحمسين ربما يعتبرون هذا تذيرا سيئا ، إذ كيف لزعيم إسلامى يتعهد بالمحافظة على العلمانية؟

إننى حقا أتفهم منطق جول وأؤيده ، وربما كتبت مقالا يحمل هذا المعنى من قبل أن يصل جول إلى سدة الرئاسة حتى لقد عنوت المقال ب (العلمانية هى الحل) ، وعاتبنى كثيرون ، على الرغم من أننى لم أكن أعبر عن وجهة نظرى بقدر ما كنت أعرض لوجهة نظر ناشط إسلامى يعيش فى السويد ،

حيث أكد لنا الرجل أنه لولا العلمانية الحاكمة فى السويد لما أمكن لهم أن يحظوا بالخدمات والحماية والتسهيل والمؤازرة ، خاصة وأن العلمانية هنا علمانية عاقلة مخلصة لمبادئها على عكس العلمانية التى يتبناه العسكر فى تركيا ، والتى تجنح إلى التعصب وضيق الأفق .

ويكفى مظهرا للتعصب الذى يتناقض مع أبسط مبادئ الليبرالية التى يقوم عليها النظام العلمانى هو أن تحتل مسألة مثل غطاء رأس المرأة هذه المساحة العجيبة من النقاش ، وكأن " الحجاب " هو قضية القضايا ، سواء بالنسبة للإسلاميين أو بالنسبة للعلمانيين ، دون التفات إلى أن الأكثر أهمية هو مدى حركة النهوض والتقدم الحادثة على أرض الواقع ، وإذا ، فماذا يفيد الإسلام إذا كانت كل نسائه محجبات أو حتى منقبات ، وهو يحتل قائمة المؤخرة على سلم التقدم والتنمية ؟

إن النظام الذى يقوم على العلمانية فى الدول غير الإسلامية ، خاصة إذا كان غير متعصب ، من شأنه أن يتيح الفرصة لكل صاحب رأى أن يعبر عن رأيه بحرية ، وكل ما يطلبه هذا النظام هو ألا يكون ربط بين الدين وبين الحكم ، من خلال ما يسمونه الدولة الدينية .

والحق أن الإسلام فى حقيقته لا يعرف هذا الذى يسمى دولة دينية ، لأن من يحكمون لابد أن يكونوا من الخبراء والعلماء المتخصصين فى شؤون المجتمع المختلفة ، وإنما المطلوب هو مجتمع ينهج فى تعاملاته بما لا يخالف تعاليم الدين وثوابته .

بل إن حزب العدالة يمكن له فى ظل العلمانية غير المتعصبة أن يصل فى بعض الأحيان إلى تطبيق توجه إسلامى ما فى هذا الشأن أو ذاك ، إذا احتكمنا إلى رأى الجماهير . وقد بانت ملامح تطور مثل هذا ، فيما أعلن عن عزم حزب العدالة على طرح دستور جديد ، أيضا بموافقة الناس ، يمهد للتربة ، فيتخلى عن هذا الحظر الاستبدادى لدخول أية طالبة الجامعة إذا كانت محجبة ،

فمثل هذا الذى كان هو من نفس نوعية ما يعاب على الإسلاميين من أنهـم إذا حكموا فرضوا توجهاتهم بالقوة ولم يسمحوا لتيارات أخرى بالتواجد ...

إننى متفائل إلى حد كبير بأن شمس النهوض الإسلامى يمكن أن تشرق من تركيا ، وإن كنت ما زلت قلقا من اليد العسكرية التى تألف القهـر والاسـتبداد بحكم طبيعتها والتى خبرناها – وما زلنا – نحن المصريين منذ أكثر من نصف قرن .

لا إله إلا الله ..!

مقال فى فقه مقاومة الطغيان*

ليس هذا المقال سباحة فى بحر الدراسات الدينية الإسلامية شرحا وتفصيلا وتعليقا وبيانا ، إذ لا أستطيع أن أزعم أننى من أهل " الاختصاص " ، الذى يستوجب تأهلا له شروطه ومقوماته التى لا أملكها ، لكننى وجدت نفسى وأنا أمسك بهذا المفتاح (لا إله إلا الله) أشعر بأننى أمام ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من ساحات واسعة لا تحصرها دائرة إبصار ، وخاصة من خلال تلك الزاوية التى تؤرقنى وتقض مضجعى طوال ما وجدت قلبى يدق وأنفاسى تتردد ، ألا وهى هذا القهر الذى نعيشه فى كل مكان من هذا العالم الذى يضم هذه الأمة التى وصفها المولى عزّ وجل بأنها خير أمة أخرجت للناس ، ولكنها تعيش حالا أقل ما يمكن أن توصف به أنها أبأس حال صار عليه الناس ، لأنها نسيت شرط " خير أمة " ألا وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأى خير أكثر من أن يفكر الإنسان بغير خوف وأن يتحدث بغير رعب وأن ينام مطمئن الخاطر لا يرتقب جندا تعتقله بغير ذنب جناه إلا أن يسعى لأن يكون إنسانا ، وهل يمكن للإنسان أن يكون كذلك إلا إذا مارس حرية ما ميزه الله به عن سائر المخلوقات ألا وهى حرية العقل ؟

لا إله إلا الله : إقرار بوحدانية الخالق ، ومن ثم إفراده بالعبودية ...

كل المسلمين يعرفون ذلك ، لكن قليلون هم الذين يبصرون ما يستتبعها ، ألا وهو إسقاط تأليه ما سوى الله عز وجل .

وهل هناك من يفعل ذلك ؟

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٧/٩/١

نعم ٠٠٠ملايين من الناس ٠ ما قد يخفف من فعلهم الفظيع هو أنهم فـــى غفلة عن حقيقة ما يفعلون ، مما يجعلنا نردد قول رسول الله العظــيم : اللهــم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون !!

أن تقر بوحدانية الله وإفراده بالعبودية يعنى أن تفكر وتتصرف على أساس أن لا أحد – غير الله – له الحق فى أن تحنى له رأسك ، ولا أحد مــن بــين الخلق أجمعين يملك حق إجبارك على ما لا تريد ٠

هناك قوانين عدة تحكم تصرفاتنا وعلاقاتنا ، عندما نخضع لها فليس فـــى هذا عبودية لأحد ، فأنا أسمع كلام شرطى المرور بالتوقف عند الإشارة ، لأننى لو حللت الأمر جيدا لوجدت أنه لا يتحكم فى شخصى ، وإنما يسعى إلى حماية حياتى ، وحياة ألوف مثلى من المواطنين ٠

وعندما لا أجرؤ على التقدم بأوراق ابنى بعد حصوله على الثانوية ، إلـــى إحدى الجامعات ، لا أصف رفض هذا الطلب بأنه استبداد وتحكم ، ذلـــك لأن التقدم للجامعة يتطلب مواصفات وشروط خاصة لم تتوافر لدى ابنى ، وتزوير الأوراق بحيث يبدو وكأنه قد حقق الشروط المطلوبة ، إنما فيه اعتــداء علـــى كثيرين غيرى ، ولا يمكن أن يكون تصرفى هذا مما يقع فى باب الحرية ، لأن حريتى ترتبط بحدود حرية غيرى ، وبذلك ندرك الفرق الجوهرى بيننا كبـــشر وبين الحيوانات التى نتصور أنها تمارس أقصى حدود الحرية ٠

إن حرية الحيوان هى حرية تقوم على مقدار ما يملكه من قـــوة جـــسمية ، وحرية الإنسان هى حرية من يملك عمق التفكير وسلامة الرؤية وطهر القلـــب ٠٠٠حرية مسئولة ، تتم ممارستها وعينها مبصرة لحق الآخرين فى ممارســـة الحرية ٠

لكن ، انظر إلى حقك فى أن تعرف : من أين ينفق هذا المسئول أو ذاك ، أيا كان موقعه ؟ إنه مظهر من مظاهر "كسر التأليه" عن إنسان ما وضـــعته الظروف فى موقع مسئولية ، علت أو توسطت أو دنت ، فما ينفقه إنما هو من

حق الأمة كلها ، وهو من مالها ، وهو نتيجة عرق أبنائها وجهدهم وكــدهم ، فكيف لا يعرفون : كم أخذه هذا أو ذاك ؟ وفيما أنفقه هذا أو ذاك ؟

أرأيت مثالا واحدا يكشف لك : كيف أننا لا نتمثل هذا المبدأ الكلى الجامع : لا إله إلا الله ؟

الله وحده ، هو الذى لا نملك أن نحاسبه ، لأننا بعض من عطائـــه ، ولا أحد منا يملك ما يعطيه له ، فما نملك هو أيضا ملكه هو ، لكن راتـــب رئـــيس الدولة ورئيس الوزراء ونواب البرلمان ، وكبار المسئولين هو مالك أنت ومالى أنا ، كما هو مال هؤلاء ، وما دام أمرا مشتركا ، يجب أن يكون لك ولى رأى : كم يتحصل منه ؟ وفيما ينفق ؟

لكن هذا لا يحدث ••• وتلك خطيئة كبــرى نرتكبهــا جميعــا ، حكامــا ومحكومين !!

وفى كل دائرة عمل ، أيا كان ، هناك لوائح وقوانين تحكم العلاقــة بــين العاملين بعضهم ببعض وبينهم وبين رؤسائهم وبينهم وبين المجتمع ، وفى كل نص ، إذ يقرر عليك واجبا ، فلابد أن يكون مقابلا لحق لك •••

فقانون الجامعات مثلا وأعرافها ، ولوائح العمل الداخلى بها تقــرر واجبــا على الطالب أن يحضر المحاضرات ، وأن يستمع إلى ما يلقى مــن دروس ، وأن يذاكرها جيدا ، وأن يحصل على ما يؤهله للنجاح •• هــذه الواجبــات ، ترسم فى الوقت ذاته حقوقا للطالب تجاه الجامعة : أن تهيئ له مكانا يمكــن أن يكون مناسبا للتعلم والتعليم ، وأن تعين له من الأساتذة مــن يحــسنون علــم التخصص ويجيدون الشرح والتعليم ، وأن يكونوا على درجة عالية من الخلــق تجعلهم منصفين ومهذبين وأمناء على ما ائتمنهم عليه المجتمع •

فماذا لو قصرت الجامعة فيما يجب عليها من حقوق تجاه الطلاب ؟

لا يحق لها أن تطالبهم بما قررته عليهم من واجبات •

هل يعنى هذا تمردا وثورة لابد أن يقوم بها الطلاب ؟

كلا ، فهناك درجات ومستويات :

لابد أن تكون هناك منافذ وقنوات يمكن من خلالها للطلاب أن يعبروا عن رأيهم وشكاواهم ، أما أن تُزيف مثل هذه المظاهر ليجئ من يقول زيفا وكـذبا وبهتانا بغير الحقيقة ، فهنا لابد من الاحتجاج ، الذى لابـد أيـضا أن يتـدرج بوسائل سلمية تؤكد أن الجمع متيقظ ، وأن الزيف مفضوح ، وأن الحق لابد أن يحصل عليه أصحابه ، فالجامعة ليست ملكا لفرد قيادى أيا كان ، وليست ملكا لحاكم ..إنها ملك لكل من يعمل بالجامعة ، وهـى بالدرجـة الأولـى ملـك للمجتمع.

فإذا لم يحدث هذا فكأننا قد حنينا رؤوسنا لمن لا يملك حقا ...والمالـك الجامع المهيمن على الجميع هو الله وحده ، وما كل هؤلاء إلا مستخلفون على الأمر ، فإن قصروا فى مهمة الاستخلاف يجب العمل على أن يذهبوا عنه ، لا بحجارة وعصى ، ولا بارود ومدفع ، فالجمع إذا أحسن التماسك ، حـى ولـو اقتصر على وقفة احتجاجية كلامية ، فسوف تهتز كراسـى وتـسقط تيجـان وتتهاوى عروش .

لكننا لا نفعل ذلك ، ونقنع بالأسف والأسى ومصمصة الـشفاه ، مـع أن النص واضح فى كتاب الله عز وجل بأننا لا نستحق أن نكون تلك الأمة التـى وصفها إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل والأشد فزعا ، أننا بذلك " نؤله " هذا وذاك ونتصرف وكأنه " لا شريك له " فى الأمر مـع أننـا نحـن شركاءه ...لابد أن يكون لنا الحق فى التوجيه والتقرير ، كل وفق ما يملـك من قدرات وإمكانات ومواصفات ، وبالوسائل المقترنة بكل هذا وذاك ..

لو تأملت جيدا فى مثل هذا المثال وذاك ، فسوف تجد أنك تردد القول ب " لا إله إلا الله " باعتباره شعارا كلاميا ، مع أنك لابد أن قد سمعت عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم بأن الإيمان " الحقيقى " هو ما وقر فى القلب وصـدقه العمل !!

فى أثناء الانتخابات العامة ، كلنا يعرف ويشاهد ويتقـين أن إرادة النـاس كثيرا ما تُزيف ، مع أن المسألة ليست مجرد أن يجلس إنسان فى مقعد برلمانى لا يستحقه ، ولكنه يمتد إلى الأخطر ٠٠٠فهذا وذاك ممن نجحوا زورا وبهتانا ، هم الذين تصدر بإرادتهم كافة القوانين التى تسير حياتنا وترسم مستقبلنا وتحدد علاقاتنا بكل دول العالم ، وتتحكم فى كل ما ينفق من مال فى بلـدنا ، فمـاذا تتوقع ممن سيقوا إلى هذا المكان العظيم زورا وكذبا إلا أن يكونوا صانعين كل ما يستمر به الحال من السوء وإلا ما يحول بين المستحقين حقيقة وبين أن يصلوا إلى هذا المكان ٠٠

فماذا يعنى هذا ؟ معناه أننا نسكت على أن تذبح إرادتنا ٠٠٠أن نقنع بـأن يسرق مستقبلنا ٠٠٠أن نرضى بما يمزق حاضـرنا ٠٠٠ألا نغـضب علـى استباحة كرامتنا ٠٠٠

كيف يتسق هذا مع ترديدك كل يوم ، عدة مرات بأن لا إله إلا الله ؟

يقول كثيرون أن المقار الانتخابية تحاط دائما بالكم الغفيـر مـن الجنـد المسلح ممن " بُرمجوا على الضرب والسحل " ، وكأن القلوب قد انتزعت مـن بين ضلوعهم ، والعقول فى رؤوسهم قد تجمدت ، فنقول : ترى ولـو تجمـع الناس ، صغيرهم وكبيرهم ، يمينهم ويسارهم وأوسطهم ، فقيرهم وغنيهم على قلب رجل واحد ، بغير حجارة ولا طوب ولا بنادق ولا قنابـل ولا سـكاكين ٠٠٠لو حدث هذا بغير خوف ، وبغير تقاعس وتخاذل ، فسوف يتراجع هؤلاء الجند المدججون بالسلاح ٠٠٠

تقول : أبدا ، سوف يضربون ويفعلون كذا ، فأقول : ألا سـمعت المثـل العامى الشهير " مفيش حلاوة من غير نار " ؟ وأين هو الشعب الذى نال حريته ، فى أى بلد من بلدان العالم ، فى أى فترة من فترات التاريخ ، دون أن يفقـد شهداء حق ؟

أين هو الشعب ، فى أى أى مكان ، وفى فترة من الزمان ، جلس مطمئن البال ليجئ له من يستغلوه ويستبدون به ليعطوه حريته سلما وتسليما ؟

أن تقول : لا إله إلا الله وفقا لشرط " ما وقر فى القلب وصـــدقه العمــل " ، فمعناه : ألا تستسلم لقهر قاهر إلا الله وألا تفرد بالعبودية إلا الله ، أما غير الله : فنحن رجال وهم رجال !!

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد !!

العلمانية هى الحل* !

كانت تلك قنبلة المؤتمر حقا ، تلك التي ألقاها أحد الناشطين الإسلاميين في السويد ممن تجنسوا وأصبحوا من المندمجين في المجتمع السويدى ، وهو من أصل مغربى ، مما استوجب عاصفة من الاعتراضات التي بلغ بعضها حدة واضحة ، على الرغم من أن الرجل عاد في التعقيب ليوضح أن ذلك لا يعني شعارا مطلقا ، وإنما طالما هم يعيشون كأقلية في مجتمع أجنبى يتسم بقدر كبير من الالتزام بعلمانية تتيح فرصة للآخر- وهو هنا المسلم - يصبح من المهم التمسك بهذا الشعار للمجتمع السويدى ، حيث لا يتسق مع العقل أن يرفع شعار " الإسلام هو الحل " ، في مثل هذا المجتمع وإلا تم لفظ من يرفعه وينظر إليه باعتباره ساعيا إلى هدم هذا المجتمع من جذوره ، على الرغم من إيمان لا شك فيه للمسلم بمصداقية الشعار .

ولكن لابد من التنبه إلى أن ما يصدق في البلدان الإسلامية قد يتم التحفظ عليه في مجتمعات غير إسلامية ويكون المسلمون فيها أقلية هى في الأصل موضع شبهات مع الأسف ، بل ويعيشون صور حصار ومضايقة ، ولعل هذا ما دعا كثيرين من علماء المسلمين في السنوات الأخيرة يجتهدون فيما أصبح معروفا " بفقه الأقليات " .

كان ذلك في جلسة جامعة أخيرة من جلسات مؤتمر (الحوار مع الآخر) الذى عقد في رحاب جامعة الشارقة ، ونظمته كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بها في أواخر أبريل ٢٠٠٧ ، وكان لى شرف حضوره وتقديم دراسة في إحدى قضاياه .

والحق أن من الصعب التحدث عن " موضوع " أو موضوعات المؤتمر

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٧/٨/٢٥

من غير أن نتحدث عن تلك الشخصية النادرة التى وقفت وراءه ، على الرغم من أننا نعلم جيدا صدق المقولة التى تؤكد على " المؤسسية " وعلى الموضوعية ، ومن ثم ضرورة البعد بقدر الإمكان عن الجوانب الشخصية ، ذلك لأننا فى الثقافة العربية ما زلنا حتى الآن نعيش فلسفة زعيم القبيلة ، والبطل ، والأب ، والرئيس ، إلى غير هذا وذاك من مفردات تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أنه من العسير ، إن لم يكن من المستحيل ، أن ننحى جانبا فكرة " البطل " الذى يقود ويوجه ويخطط ويدير الأمور فى مجال ما .

أما " البطل " هنا فهو الدكتور عبد الناصر موسى أبو البصل ، عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الشارقة ، سماه أبوه "عبد الناصر" لأنه كان من العاشقين للزعيم العظيم الراحل ، وهو أردنى يحتاج إلى حديث طويل ، نرجو أن تتاح لنا فرصته فى مناسبة أخرى ، إذ يكشف للقارئ عن نموذج من مثقفى هذه الأمة وعلمائها ، ممن يحملون من الطاقات والإمكانات العقلية والعلمية مما لو أتيح له أن يستثمرها حق الاستثمار بعيدا عن القيود والعقبات وردود الفعل اللاعقلانية فسوف يكون هؤلاء طاقة دفع حضارى ونهضة ثقافية تقفز بالأمة قفزات ضخمة إلى أمام .

وهو من الشخصيات القليلة المحافظة على زى علماء الدين فى الشام بتلك العمامة المميزة بعض الشئ عن العمامة الأزهرية ، لكنه يلبس تحتها " بنطلونا وقميصا " كزى غربى ، فكأنه بهذا يعكس حالته العقلية والثقافية فى الجمع بين الثقافتين ، فهو فى الوقت الذى يقف فيه فى صفوف أهل الفقه وخاصة الملتزمين بدينهم قولا وعملا ، يملك عقلا متفتحا وعلى صلة مستمرة بشبكة الانترنت ليتابع كل ما هو جديد فى عالم المعرفة والثقافة ، ويزور مجتمعات غربية ويتعامل مع لغات أجنبية .

وكان من قبل عميدا لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة اليرموك ، حيث أتاح لى فرصة الدعوة أستاذا زائرا لفصل دراسى عدة سنوات ، شاركته فيها فى عدد مهم من الجهد العلمى فى مجال التربية الإسلامية .

فى حفل الافتتاح ، حيث كنا فى انتظار حضور الدكتور سلطان القاسمى حاكم الشارقة ، وأنا أحمل التوقع العادى بأن تأخيرا لابد أن يحدث ما دام الحاكم هو القادم ، فإذا بى أجد ولأول مرة حقا أن الرجل يأتى قبل البدء بالافتتاح ليصافح الجميع فردا فردا ، ومن ثم يبدأ المؤتمر فى موعده المحدد ، ولعل هذه الزاوية بصفة خاصة تهمنى بصفة أساسية وأعتبرها علامة فارقة فى مدى الجدية والالتزام وتقدير الآخرواحترامه ، وخاصة عندما تكون سلوكا مميزا لمسئول على هذه الدرجة الرفيعة ..إنه لأمر نادر مع الأسف الشديد فى حياتنا العامة.

كانت الجلسة الأولى تضم عددا من الأعلام ، بعضهم أعرفه وبعضهم الآخر سمعت عنه وكنت تواقا لرؤيته ، وبعضهم فوجئت فعلا بشخصيتهم الرائعة ..

من الفئة الأولى ، كان الدكتور عبد الله التركى أمين عام رابطة العالم الإسلامى الشهيرة بمكة المكرمة ، وكان من قبل وزيرا للأوقاف ، ومديرا لجامعة الإمام محمد بن سعود بالسعودية .

أما من الفئة الثانية فهو الدكتور عز الدين إبراهيم ، أحد المصريين النادرين الذين تركوا البلاد منذ أكثر من نصف قرن ليستقر فى الخليج ، وخاصة الإمارات ، وعندما كان مديرا لجامعة الإمارات سمعت عنه ما يشرف ويشوق الإنسان إلى معرفته . ويبدو أن الرجل قد بلغ من العمر عتيا ، لكنه حاضر الذهن والبديهة ، لا يتحدث إلا بالفصحى ، وإذ تشعر وأنت تتحدث إليه أو تستمع ، بتدفق ثقافى ملحوظ ، إلا أنه فى الوقت نفسه حاضر الدعابة ،

سريع البديهة والتعليق الذى يجئ كثيرا جامعا بين العمق الثقافى وروح المرح والفكاهة .

ومن الفئة الثانية ، الدكتور عصام بشير ، الذى كان وزيرا للأوقاف بالسودان ، فهذا الرجل بالفعل كان مفاجأة لى ، وحاسبت نفسى حسابا عسيرا : كيف لم أكن أعرفه وهو العالم الكبير الذى يقف أمام الميكروفون فكأنك أمام شلال هادر من الكلمات الدقيقة التى تحمل لك أدق المعانى وأعمق الدلالات ، يفيض حماسة وحيوية بحيث يستحيل على أحد الحضور أن " يسرح " بعيدا عن الموقف ، أو يشعر بملل من طول الحديث .

كانت بحوث المؤتمر كثيرة للغاية حتى لقد وصل عددها إلى ما يزيد على المائة والثلاثين ، لا تلك التى قدمت ، ولكن تلك التى تم عرضها ، مما فرض على المنظمين أن تكون هناك أربع جلسات متوازية ، وكل جلسة يعرض بها ما قد يصل إلى ستة بحوث ، وهذا فرض ألا يزيد نصيب الباحث عن عشر دقائق لعرض بحثه .

وفى هذا الشأن بصفة خاصة لى وجهة نظر مغايرة ، ذلك أن الفرصة لا تتاح كثيرا لأى من الحضور أن يقرأ البحوث قبل عرضها ، بل هى الآن لا تكون جاهزة إلا بعد انفضاض المؤتمر ، وبالتالى فإن العشر دقائق لا تتيح فرصة لأحد أن يفهم القضية جيدا ، وكم أود أن يتم تصنيف بحوث المؤتمرات إلى فئتين ، فئة تُنشر ولا تعرض ، وفئة تنشر وتعرض ، والفئة الأولى تخصص للبحوث الأقل شأنا ، التى تتجه إلى الجوانب الفنية أكثر ، بينما الفئة الثانية تكون للكبار من العلماء والمفكرين ، ممن تكون دراساتهم ذات طابع فكرى عام ، ومن ثم لا يعرض إلا عدد قليل من الأوراق ، فيكون أمام أصحابها متسع من الوقت لبسط أفكارهم ، ويكون أمام الجمهور كذلك متسع من الوقت لمناقشتهم ، فتتم الفائدة بالفعل .

الملفت للنظر هو أن الكثرة الغالية من البحوث والدراسات والتعليقات والكلمات دارت كلها حول إثبات أن الإسلام يحترم الاختلاف وأنه يشجع على التعديش ويحث على التسامح ، وينهج نهج المنطق والعقل والعلمية فى المناقشة ، وينبذ التعصب والصراع المذهبى ، ويشجع على حرية الفكر وتبادل الآراء وتفاعل الحضارات •

لكنك إذ تسمع كل هذا تشعر بأن كل جهودنا التى تكاثرت على هذا الطريق فى السنوات الأخيرة ، وكأنها عريضة دفاع أعدت لمواجهة عريضة اتهام لنا بالعكس من كل هذا ، وهى صورة من صور عقلية رد الفعل التى غلبت علينا منذ عدة عقود بحكم ما أصبحنا عليه من تخلف وتبعية وذيلية حضارية وضعف وتخاذل واضحة جلية لكل مراقب ، حتى أصبح " الآخر " هو الذى يحدد لنا " أجندة " وقائمة أولويات المناقشة والاهتمام ، ومن غير شك فإن تحديد مثل هذه الأجندة إنما يعكس المصالح والاهتمامات التى تخص القائم بالتحديد ، وبالتالى فكأنه يفرض علينا ما ينبغى أن ندرسه ونناقشه ونهتم به بغض النظر عما لنا من اهتمامات وما لنا من مصالح •

والغريب حقا أن كل صور الدفاع التى نسوقها دفعا لاتهامنا بالتعصب وضيق الأفق والعنف والبغضاء والإرهاب ، لو دققنا جيدا فى واقع الحال منذ قرنين من الزمان وحتى الآن فسوف نجد أنها هى التى ينبغى أن يوصف الغربيون بها فى علاقتهم بنا • نعم ، هم فيما بينهم يكونون على حال ، وفيما بيننا وبينهم يكون الحال مغايرا تماما ، وأبرز مثال على ذلك هو فى المسألة الديموقراطية ، مما لا يتسع المجال للإفاضة فيه •

وقائمة العدوان الغربى وتعصبه وسوء استغلاله وحقده وأكاذيبه علينا وقهره واستبداده ، تملأ كتبا ومجلدات ، وهى مستمرة منذ قرون طويلة ••منذ آخر القرن الحادى عشر، عندما بدأت الحملة الصليبية الأولى •

ولو تأمل إنسان فيما تم من حوارات عبر نصف قرن بين أهل الأديان وأهل الثقافات والحضارات ، فلن يجد الحصيلة قد حركت جانبا من جوانب الواقع فى اتجاه التحسن ، ولا يعنى هذا كفرا بالحوار وصرفا عنه ، فهو فريضة دينية وضرورة عقلية ، وحتمية حضارية ، ولكنه عندما يتم بين مستويين أحدهما يقف فى أعلى عليين – من حيث القوة المادية والهيمنة السياسية – والآخر يقف موقف الضعيف المستجدى الذى لا يملك من أمره شيئا ، لا يؤمل منه شئ إلا مزيدا من التنازل ، تماما كما نرى فيما يتم من مفاوضات بين أطراف سياسية ، حيث تعكس المفاوضات موازين القوة ، وهو ما نراه في العلاقة – مثلا – حاليا بين ما يسمى بالسلطة الفلسطينية والدولة الصهيونية ، حيث الحصيلة دائما ما تسفر عن لا شئ إلا مزيدا من الغطرسة الإسرائيلية .

عندما احتفت " الهلال " بأمين الريحانى
" ناشر فلسفة الشرق فى بلاد الغرب "* !!

المعركة التى فجرها رئيس تحرير مجلة الهلال ، العزيز " مجدى الدقاق " عن أمين الريحانى ، وأحدثت ضجة بدأت منذ شهور وما زالت مستمرة ، دفعتنى إلى أن أفتش بين أرفف مكتبتى العتيقة عما يتصل بالموضوع ، فكان أبرز ما وجدت ، كتاب أصدرته " مكتبة الهلال " عام ١٩٢٢ ، حرره " توفيق الرافعى " جامعا فيه عددا كبيرا من الكلمات والخطب والقصائد التى صدرت عن كثيرين من أدباء مصر ومفكريها ، فضلا عن آخرين من " الشام " قدمت فى حفلات تكريم متعددة أقامها عدد من هؤلاء المفكرين والأدباء لأمين الريحانى باعتباره " ناشر فلسفة الشرق فى بلاد الغرب " !

كان من أبرز ما وصف به محرر الكتاب ، مفكرنا الريحانى قوله " ...ومن اطلع على بنات أفكاره ونفثات يراعه وبديع أسلوبه وجميل مقالاته وغزارة مادته وما عنده من بعد التصور وسمو الخيال وتقرير الحقائق الفلسفية وإيراد اختبارات روح الاجتماع بأسلوبه الشعرى المنثور ، ومن سمع رنة صوته الموسيقى أثناء الخطابة وإشاراته التى تأخذ بمجامع القلوب ، يعجب لهذا الاجتماعى الكبير ويفتخر به لأنه شرقى راق عاش بين الطبقة الراقية من الأمريكيين ونال شهرة ومكانا رفيعا ، وله مكاتبات كثيرة مع كبرائهم وعلمائهم " ، ص ١٢

وأنت تستطيع أن تطرح جانبا الكثير من هذه السمات التى عرف بها الخطاب العربى الأدبى فى هذه الفترة من الزمن من المبالغات ذات الرنين اللفظى العالى ، لكنك لابد أن تقف مثلى حائرا من هذه الكوكبة من المفكرين

---

* مجلة الهلال ، أغسطس ٢٠٠٦

والأدباء التى راحت ، فى حفلات مختلفة تعلن التقدير والاحترام والتقريظ لرجل يتفقون على وصفه بالكثير مما يجعله مفكرا كبيرا وفيلسوفا بارزا وأديبا أريبا واجتماعيا إصلاحيا ، ثم تقرأ بعد ذلك بنحو ثلاثة أرباع القرن أن كل هؤلاء كانوا مغشوشين فى الرجل ، لأنه تورط فى أن يكون أداة فى يد الاستخبارات الأمريكية كما أكد الأستاذ الدقاق !

وأنا مع الأسف الشديد لا أملك فى الوقت الحالى ما أنفى به هذه التهمة أو أؤكدها ، وإن كنت أستطيع أن " أتفهم " كيف أن بعض الكبار يمكن بالفعل أن " يتورطوا " ، ربما بعلم ، وربما بغير علم ، فيما يخدم أجهزة الاستخبارات الأجنبية ، ولنا هنا أن نتذكر كيف أن مجلة (الكاتب المصرى) التى كان الدكتور طه حسين يرأس تحريرها عام ١٩٤٦ ، ويستكتب فيها أعلام الثقافة العربية فى مصر وخارجها ، نكتشف أن الذين كانوا وراءها يهود على صلة بالقوى الصهيونية ، وإن زعموا أنهم مصريون يقومون بخدمة الثقافة العربية عامة والثقافة المصرية خاصة !

وكانت هناك أيضا مجلة (حوار) التى كانت تصدر فى أول الستينيات من بيروت ، وتورط فى العمل بها أيضا أدباء كبار ومفكرين عظام ، ثم ثبت أنها كانت تمول من جهات استخباراتية ...

وغالبا ، سوف تكشف الأيام فيما بعد أن عددا ممن نحنى لهم الرؤوس الآن ، هم كذا وكذا ، مما يصعب الآن تصوره !

وماذا نقول عن زعماء وقادة عسكريين وسياسيين ، اكتشفنا بعد فترة عمالتهم ؟!

كان الشيخ محمد عبده صديقا مقربا من عميد الاحتلال البريطانى " كرومر " ، وكان كذلك ، زعيم الأمة سعد زغلول ، مما أتاح الفرصة لأعداء هذا وذاك أن ينثروا بعض شكوك !!

ثم ، هل نسينا قائمة المصروفات السرية التى أبرزتها قيادة ثورة ١٩٥٢ ، بعدما اشتد هجوم مفكرين ومثقفين كبار عليها أثناء أزمة مارس ١٩٥٤ ، وضمت القائمة العديد أيضا من الكبار ٠٠والكبار جدا فى ساحة الثقافة والفكر ٠

هل معنى هذا أن نحيط مفكرينا ومثقفينا وزعماءنا بغلالات شك وريبة وتخوين ؟

أبدا ، كل ما هنالك أن نُعمل المبدأ الشهير : أن الشخص يظل بريئا إلى أن يثبت العكس ٠٠

إن المشكلة الكبرى فى هذه المسألة أن " المفكر " نعتبره زعيما أخطر من زعماء السياسة ، ذلك لأنه يصيغ عقول ألوف مؤلفة من أبناء الوطن فى الاتجاه الذى يؤمن به ، ومعظم من يعجبون به فيقرءون له ، يصدقون كل ما يقول ، بل قد يصل الإعجاب به إلى حد أن لو أن أحدا منهم قال بأن واحد زائد واحد يساوى ثلاثة فلربما وجد من يصدقه ، مفسرا هذا بأن عبقرية المفكر ربما اكتشفت خفايا لم يكن أحد يدرى بها ، وكل الأفكار الجديدة والاختراعات المبتكرة ، كانت " خيالا " يتجاوز حدود العقل والتفكير !

ونعود إلى الريحانى الذى ولد قرية " الفريكة " من لبنان فى سنة ١٨٧٦، ثم هاجر وهو لم يتجاوز العاشرة من العمر مع عمه إلى نيويورك حيث درس مبادئ الإنجليزية ، ثم اشتغل بالتجارة خمس سنوات ، ومارس فن التمثيل فترة ، ودخل كلية نيويورك اللاهوتية مدة عام ٠٠٠وهكذا تعددت إقاماته بين أمريكا وسوريا ولبنان ٠٠٠إلى أن جاء فى زيارة له إلى مصر عام ١٩٢٢ ، كانت هى الزيارة الثانية ، كما قيل ، فكتب محمد لطفى جمعة المحامى يوم الأربعاء أول فبراير فى جريدة المقطم مرحبا به ، داعيا إلى الاحتفاء به ، يقول ضمن مقال مطول " مصر ترحب بالشاعر اللبنانى الذى غزا الغرب بقلمه وجدد مجد العرب بشعره ، وأحيا موات الأرض بخطبه وكتبه فى وطنه٠٠٠٠" ٠

وفى اليوم التالى أقام الدكتور يعقوب صروف صاحب المقطم ، والمقتطف حفلا بمنزله بشارع عماد الدين ، ويكفى أن تلقى نظرة على قائمة المشاركين فى الاحتفال لتدرك مقام الرجل فى المجتمع المصرى ، فمنهم : الشاعر أحمد شوقى ، وإسماعيل صبرى ، وأحمد تيمور ، وأنطون جميل ، وعبد الحليم المصرى ، وأحمد زكى باشا ، والآنسة مى وغيرهم .

وفى الرابع من فبراير يقيم " سليم سركيس " حفلا آخر فى منزله بمصر الجديدة ، كان من ضيوفه ، فضلا عن معظم من سبق ذكرهم : خليل مطران ، وأمين واصف ، ومحمد المويلحى ، وأحمد حافظ عوض ، وأحد صاحبى دار الهلال ، إميل زيدان ، وداود بركات وبعض السيدات .

وتوالت بعد ذلك الحفلات التى كانت تحفل بالكثير من الكلمات والأشعار إشادة بالرجل ، وكان بين المحتفين ، الأديبة اللبنانية الشهيرة مى زيادة ، فوقف فى أحد الاحتفالات الشاعر أسعد خليل داغر يقول :

بين ميّ وأمين شبه　　فى ذكاء ونبوغ وإجادة

ولكل منهما الحق إذا　　ما ادعى على الغير السيادة

فهى قالت عن أمين أنه　　خير من شرف فى الغرب بلاده

وأمين قال عنها عندما　　سألوه : هى ميّ وزيادة !!

وكان أضخم الحفلات ، حفل الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، والتى لم يكن قد مضى على إنشائها أكثر من ثلاث سنوات ، حيث كانت قد أنشئت عام ١٩١٩ ، وكان مما قاله الشاعر عبد الحليم المصرى عن المحتفى به أمين الريحانى :

هو منا وحسبنا وطن الشر　　ق فمصر ولبنان أختان

هو منا وإنما مصر روض　　وكذا الروض منبت " الريحان " !

وعن الدور الذى كان الريحانى يقوم به فى الغرب ، قال المصرى :

فارفع الشرق فى ذرى الغرب وانشر　　لغة الشرق فى بنى الإنسان

وأر الغرب أن فينا رجالا رجحوهم فى كفة الميزان

أما الشاعر أحمد محرم ، فكان مما قاله :

قل يا " أمين " لأنت أبلغ قائل غوث النفوس وطال عهد حرانها

أمنن على الأقطار منك بحكمة تهدى الشعوب إلى ديانهـــــا !

وكان من اللافت ، هذا الشعر الذى ألفه أمين الريحانى نفسه ، مما ســمى بعد ذلك بشعر النثر ، إذا صح هذا التعبير ، فكان مما أنشده منه أمام المحتفلين به :

أنا الشرق ..

أنا شبح يا فتى الغرب الباسل .

شبح فى موكب الزمان – فى موكب الحياة الدنيا .

ولكن للشبح صوتا بل أصواتا تسمع شيئا منها اليوم وستسمعها مليا غدا.

أصوات متضاربة ، متنافرة ، إلا أنها من قلب واحد .

لها صدى فى هياكلى كلها ، ولها صدى فى كليات بلادك .

صوت يضج فى الخلوات ويتراجع فى الأماكن المقدسة ..

وصوت يحدو فى الصحراء ويملأ جبال تقواى سكونا طيبا ..

والملفت للنظر ، أن الحفلات التى أقيمت للريحانى ، توالت يوما بعد يوم ، ما يعد مؤشرا مهما لمكانة الرجل وتقدير الناس له ، فمن ذلك الحفل الذى أقيم فى الثالث عشر من فبراير الذى دعا إليه الأمير ميشيل بك لطف الله فى قصر الجزيرة ، والذى دُعى إليه ما يقرب من مائتى أديب ومفكر ، نــذكر مــنهم ، بالإضافة إلى من سبق ذكرهم : الشيخ محمد رشيد رضا ، والشيخ محمد شاكر ، ومحمود عزمى باشا ، وحلمى بك عيسى ، والدكتور محجوب ثابت ، وتوفيق دياب ..وغيرهم .

فى هذا الحفل ، وكأننا بإزاء الأحاديث التى كثرت فى السنوات الأخيــرة تجادل فيما يسمى صراع الحضارات أو حوار الحضارات ، فها هو الريحــانى

نفسه وهو يلقى كلمته تحية لمن احتفوا به ، يسخر من المقولة القائلة بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، تعبيرا على استحالة الحوار ، وتأكيدا لمقولة الصراع والصدام ، فيبرهن على فساد المقولة بقوله (ص ١٢١) :

" إن هذا القصر الجميل يا سادتى ، بل فى هذه القاعة الفخمة ليجتمع الشرق والغرب اجتماعا فنيا جميلا لا تناكر فيه ولا تنافر ، فهذه صناعة الشرق وقد تناهت دقة وجمالا تظلل صناعة الغرب وفنونه وقد سمت شكلا وصنعا ، وبين الفنين تناسب أنيق جميل بين الصناعتين صلة لا تكلف فيها ولا اجتهاد ، صلة طبيعية يتهادى إليها الجمالان ، وتذوب عندها أطراف السحر والبيان ، أما فى السحر أو الرسم أو التطعيم أو الهندسة ٠٠فالغرب والشرق من هذا القبيل صنوان ٠٠" ٠

ولعل هذا يكشف لنا عن ملاحظة جدير بنا أن ننتبه إليها ألا وهى الخاصة بمضمون ما كان يلقى من كلمات وأشعار ، ففى العادة فإن الناس فى حفلات التكريم تكاد تدور وتلف حول مدح المحتفى به ، وصاحب الدعوة ، لكننا ، وإن وجدنا مثل هذا فى الكلمات والأشعار التى قدمت ، إلا أننا من ناحية أخرى نلاحظ مشاركة فى طرح قضايا فكرية كانت تشغل العقل العربى فى ذلك الوقت ، وفى كل وقت مثل القضية الخاصة بما ينبغى أن يكون بين الحضارتين الشرقية والغربية ، وموقف العربى المقيم فى دول الغرب يعيش ثقافته ولا ينسى جذوره الثقافية ، وما ينبغى كذلك أن يكون من علاقات بين مصر وبين البلدان العربية الأخرى ٠

كذلك تكشف الكلمات التى ألقيت ، والأشعار التى أنشدت ، بواكير التفكير القومى العربى ، الذى يرى فيما بين مصر والبلدان العربية الأخرى ، فى المشرق من الروابط ما يعزز من الوحدة ، ويحلم بإقامتها ٠

أما شيخ العروبة ، أحمد زكى باشا ، فقد أراد أن يكون الحفل الذى أقامه احتفاء بالريحانى ، " تحت ظلال الأشجار الحرام التى غرسها الصحابة الكرام

فى سفح الأهرام بلهيث " أبو الهول " الفصيح بإشارته ، البليغ فـى صـحته ، القائم على الدوام بحراسة كنانة الله فى أرضه " ، كما جاء فى خطاب دعوتـه يوم الإثنين ، العشرين من فبراير عام ١٩٢٢ ، وكان من الـضيوف ، فـضلا أيضا عن كثير ممن ذكرناهم من قبل : الشيخ أبو الفضل شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ عبد الرحمن قراعة ، والسيد عبد الحميد البكرى ، والـشيخ بخيـت ، وجمهور غفير من المستشارين والقضاة والمهندسين والأعيان ٠

وكان مما أنشده أحمد شوقى :

إيه " أمين " لمست كل محجب   فى الحسن من أثر العقول وباد

قم قبل الأحجار والأيدى التى   أخذت لها عهدا على الآبـــاد

وخذ النبوغ عن الكنانة إنها   مهد الشموس ومسقـط الآراد ٠٠

ويصف أنطون الجميل تجمع هذه الكوكبة الضخمة من المفكرين والأدباء بالواحة وسط الصحراء " تلك الواحة التى وصفتها بالحقيقة وصورتها بالخيال ٠

"هى أنتم يا خلاصة مدنية المصريين والفينيقيين ممدنى العالم فـى غـابر الأجيال ، مدنية الفراعنة ومدنية فينقية ، كلتاهما تحدرت إليكم من ثنايا الليـالى والأيام بعد أن هذبتها آداب النصرانية وعدلتها شرائع الإسلام ٠٠٠" ص ١٤٠

أما أحمد رامى فقد أنشد للريحانى :

يا طائر الشام الرخيم غناؤه   أسمعت صوتك نائى الأقطار

ووصفت مجد الشرق فى أيامه   ونشرت ما درجت يد المقدار

وكشفت عن سر الحياة فأصبحت   مجلوة للنفس والأبصـــار

وقال الريحانى فى مصر حديثا تفوح منه ريح نفاذة تنطق بالتقدير والحب:

مصر هى أكبر الشرقيات الباسـمات للـدهر ، وهـى أحـدث الـشرقيات الناهضات ٠٠٠

هى أول من هزت الشمس سريرهن ، وأول من قبلهن الليل علـى ضـفاف النيل ٠٠٠

هى أول من لعب فى ذرى الصناعة والفنون ، وأول من رقـص والقمـر تحت النخيل ،

هى أول من بنى ركنا للعلم ، وبيتا للحضارة ، وأول من شيد للحياة هيكلا وللموت قصورا ..

هى أول من نطق فى قلب العالم كلمة العبادة والابتهال ..

هى أول من أضرم فى ليل الحياة نار الإيمان ...

إلى آخر هذه القصيدة النثرية الطويلة التى قد لا يطاولهـا قـصيد عاشـق ولهان فى حبيبة رائعة الجمال ، ساكنة قلب عبر سنوات طوال !!

وحوى الكتاب التذكارى الخاص بالريحانى مقتطفات من كتابات مختلفة ، لفت نظرى منها ما يتصل بأجواء نعيشها اليوم ، حيث تنتشر موجـة تـدين ، مفروض أن تملأ الدنيا عدلا وخيرا ، لكن هذا إنما يكون مع الـصدق ، ومـع الوعى الدينى الذى يرى جوهر التدين فى السلوك الخلقى مع الناس ، وليس فى مداومة الصلاة وغيرها من العبادات ، مع أن النص واضح فـى أمـر مثـل الصلاة التى وصفها المولى عز وجل بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن ثم فإن الذى يقوم بها ويستمر فى الفحشاء والمنكر فلا صلاة له ، يقول الريحانى (ص ٢٣٤) :

" إن حسنة واحدة تأتيها ، لخير من ليال بالصلاة تحييها .

إن التعبد لفى الصالحات ، لا فى تمتمة الصلوات .

ورب صغار يلعبون ، أصدق إيمانا من شيوخ يتورعون .

ورب محسنة فى موبقات الوجود ، أحب إلى الله من راهب فى الدير ....

السالكون عملا وفكرا ، خير من السالكين ذكرا .

أنت السالك ، يا من تطابق بين أقوالك وأعمالك

الندامة حبا بالغفران ، كالإحسان حبا بالشكران .."

إننا نرجو المزيد من التحرى والدقة ، لا من قبل أصحاب الاتهام فقـط ، بل من من قبل المدافعين كذلك ، الذين يتصورون أن الزعماء والمفكرين غير قابلبين للتخطئة ، ذلك أن كثرة الاتهام للزعماء والمفكرين والقادة له آثار مدمرة على الأجيال الجديدة بصفة خاصة ، وبث بذور ضعف ثقة فى الذات القومية ، ألم يُخوّن البعض الرئيس الراحل ، السادات ؟ واتهم كاتب راحل عبد الناصر ؟ ترى فمن يتبقى ممن تشرف بهم مصر ؟ وإذا كان كل هؤلاء كـانوا ملائكـة وعظاما ، فلماذا صارت البلاد إلى ما هى عليه الآن ؟!!

حرية العقل فى مصر*

هو عنوان رسالة صغيرة صفحاتها ثنتا وثلاثون صفحة للشهير " سلامة موسى " ، ليس عليها تاريخ نشر ، لكن من سياق الكلام نفهم انها صدرت بعد عام ١٩٤٥ عن دار الفجر ، ودار الفجر هذه لمن لا يعلم كانت دار نشر " ماركسية " ، ونتأكد من هذا من بعض ما نشرته كما تشير إلى ذلك قائمة بمنشوراتها فنجد منها – معظمها ترجمات – الرفيق ستالين – الزواج والأسرة في الاتحاد السوفيتى – الجيش الأحمر – الثقافة السوفيتية – الدين فى الاتحاد السوفيتى ٠٠٠إلخ

والقضية التى دارت حولها الرسالة هى القضية نفسها التى يدور تفكيرنا حولها اليوم (حرية الصحافة) ، حيث اعتبر سلامة موسى هذه الحرية مظهرا أساسيا لحرية العقل ٠ صحيح أن الصحافة تمارس اليوم حرية أوسع كثيرا مما كان زمن كتابة الرسالة ، لكن لا يسلم الممارسون لهذه الحرية من حرب خفية كانت أوعلنية بأقذر الوسائل وأعجبها ٠

ويشير موسى إلى أن أحد الصحفيين كان يُتهم بالتشرد ويُرسل إليه (إنذار) تمهيدا لمحاكمته ، فرأى الصحفى انتقاما لكرامته أن يصدر جريدة من المنيا اسمها (إنذار) !!

ويسعى موسى إلى إقناع القارئ بأن هم " الرقابة " من بعد الحرب العالمية الأولى حتى الأربعينيات هو الحيلولة بين الفكر الاشتراكى وبين الذيوع والانتشار فى مصر " ولو أنه تفشت بيننا ثقافة ماركسية لعرف الشعب أين يضع يده على الداء وكيف يحصل على الدواء " ٠٠٠ترى لو عاش سلامة موسى إلى اليوم ، ماذا يكون رأيه ؟

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٦/١٢/١٠

ويروى موسى أن إسماعيل صدقى ألغى امتيازه سنة ١٩٣٠ بإصدار " المجلة الجديدة " ، وقدم المبلغ الذى نص عليه قانون المطبوعات وهو ١٥٠ جنيها لوزارة الداخلية فرفضته ، ثم جاءت وزارة عبد الفتاح يحيى باشا ، فتوسط له الراحل عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ فى إعادة إصدارها ، فكان أهم وأخطر ما طلب منه من التعهدات ألا يدعو إلى الاشتراكية ، ولم يُطلب منه إيداع مبلغ ال ١٥٠ جنيها ، بل قنعت إدارة المطبوعات منه بضمان عامل عنده فى المطبعة !!

فلما رُد الامتياز إليه ، رأى أن يحرص على شرفه الأدبى ورسالته المذهبية ، فنشر فى أول عدد مقالا فى عشرين صفحة عن التفسير الماركسى للتاريخ . وموسى بالتالى يريد التأكيد على أن مثل هذه المجلات " المذهبية " هى الوسيلة الفعالة للنهوض العقلى ومحو الأبجدية السياسية المتفشية.

ودعا موسى فى نهاية رسالته القارئ أن يدعو : دعوة الحرية : حرية الكاتب وحرية القارئ وحرية النشر وحرية البائع وحرية الشعب المصرى .

وهو يستعير ما كتبه أحمد لطفى السيد سنة ١٩١٣ عن قانون المطبوعات موجها كلامه إلى نواب الجمعية التشريعية ، وهي الشكل البرلمانى الذى كان قائما : " نوابنا ، حرية الصحافة هى الحرية الشخصية تطورت حتى صارت نظاما اجتماعيا ضروريا للجمعيات المدنية ، فهى من حيث كونها حقا من حقوق الفرد الأصلية لا يحل للشارع أن يمسها ، وهى من حيث كونها نظاما اجتماعيا هو علة تأليف الرأى العام وعلة تطوره فى مراتب الارتقاء ، تستحق حماية الحكومة وحرص الأمة ..." .

ويبدى موسى أسفه أن يكرر – بعد عام ١٩٤٥ – ما سبق أن كتبه لطفى السيد سنة ١٩١٣ ، ولكن بماذا تصف حال حرية العقل فى مصر عندما تجد نفسك مضطرا إلى تكرار ما كتبه لطفى السيد سنة ١٩١٣ ، وما كتبه موسى سنة ١٩٤٥ فى نهاية عامنا الحالى ٢٠٠٦ ؟!

هاشم الرفاعى ..شاعرا*

فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة ، جاء آلاف من الناس يبكون موت شاعر شاب ، كان قد ملأ الدنيا فى الخمسينيات من القرن الماضى شهرة فى الشعر ، ولم يزل بعد فى مقتبل الحياة طالبا فى كلية دار العلوم فى أوائل العشرينيات من العمر ، حيث كان قد ولد بأنشاص عام ١٩٣٥ ، ومات غدرا عام ١٩٥٩ .

قال كمال الدين حسين الذى كان وزيرا مركزيا للتربية فى دولة الوحدة مع سوريا ، ومن أبرز قادة الثورة " لم أصدق عينى أول الأمر عندما قرأت نعى هاشم الرفاعى وأنا فى غيبة عن الوطن ، فقد كان عهدى به غير بعيد يوم وقف فى دمشق بين آلاف الشيوخ والشباب والأمهات يتدفق حماسة وهو ينشدهم شعره الوطنى " .

وقال الأديب المعروف يوسف السباعى " لقد سمعته ينشد شعره مرة واحدة ، فأُخذت به ، وأحسست أن الله منحنا به موهبة فذة ، ولم أشك فى أن صوته سيرتفع بيننا فى كل حفل ..."

أما " على الجندى " العميد الأسبق لدار العلوم والشاعر ، فقد قال شعرا :

أطول الفخر أن تحوز الذى حزت من الفخر فى الزمان القصير

نلت ما نال حافظ وخليل بل وأدركت حظ شوقى والأمير

وكان الجندى يقول أيضا : " لو عاش هاشم الرفاعى إلى سن الثلاثين ، لغطى على جميع شعراء العربية فى العصر الحاضر " .

أما " زكى المهندس " ، العميد الأسبق أيضا لدار العلوم فقال " لو قدر لهاشم الرفاعى البقاء لكان أشعر أهل زمانه " .

---

* جريدة الوفد فى ٨ ، ٢٠٠٦/١٠/٢٢

مات شاعرنا " شهيدا " فى غير معركة ، كما أشار " محمد كامل الحته " وهو يصدر ديوان الرفاعى ، لكن دون أن تحمل الدراسة ما يشير إلى ظروف وكيفية مقتل الشاعر ، وكان قد نال الشهادة الابتدائية الأزهرية عـــام ١٩٥١ ، والثانوية عام ١٩٥٦ ، والتحق فى السنة نفسها بكلية دار العلوم .

لكن مطالعة قصيدة مهمة له عنوانها " مساكنكم يا أيها النمل " تشى بحرب حقد وضغينة شنها بعض حاقدين على ما أحرزه الرجل من شهرة غير مسبوقة ، فكان مما قاله فيها ، بعد أن عدد بعض أخلاقياته مما أبلغه مرتبـــة عاليـــة ، وحاز التكريم والتقدير :

ولكن قوما – لا عفا الله عنهم – يرون ذنوبى أن يدين بى النبـــل

وما حيلتى فيهم ، وذنبى لديهم مقامى حميدا حيث لا ينزل الذل

وإنى وقد أنضجت غيظا قلوبهم على حين لم يُسمع لدىّ لهم قول

لئن شئت عاشوا فى ثياب مذلة ولكن لى عنهم بنيل العلا شغل

وبعد أبيات عدة ، ختم الرفاعى قصيدتهِ موجها خطابه إلى هؤلاء الحاقدين :

فيا أيها القوم الذين بلوتهم فأغرقنى من خبث أخلاقهم سيل

لقد جاءكم منى سليمان فادخلوا مساكنكم فى الأرض أيها النمل !!

وهكذا تبرز لنا صورة من صور المأساة التى تعيشها ثقافتنا عندما تبرز موهبة ، ويسطع كوكب جديد ، فتثور أحقاد ويتحرك أذناب لا هم لهـــم إلا أن يئدوا العبقرية الجديدة .

وإذا كان الذين غدروا بالرفاعى ، حقدا ، من ليس لهم شأن عـــال ، إلا أن هذه المشاعر المضادة لمن يحرز نجاحا نراها كذلك لدى " كبار " نالوا شـــهرة وعلو مركز ، لكنهم يريدون أن يكونوا " آخر الرجال المحتـــرمين " ، وكـــأن مصر لم تنجب مثلهم !!

الرفاعى ينتقد الأزهر !

وإذا كنا قد تناولنا فى المقال السابق تناولا عاما الشاعر هاشم الرفاعى ، الذى كان ملء المسع والبصر طوال حقبة الخمسينيات ، فإن ما يستوقفنا من شعره هنا تلك الصور النقدية التى تناول فيها التعليم فى الأزهر ، وتصرفات بعض شيوخه ، ففى مارس ١٩٥٤نظم قصيدة جاء فيها :

قم فى ربوع المجد وابك الأزهرا ... واندبه روضا للمكارم أقفـرا

واكتب رثاءك فيه نفثة موجع ... واجعل مدادك دمعك المتحدرا

المعهد الفرد الذى بجهاده ... بلغت بلاد الضاد أعراف الذرا

سار الأنام إلى الأمام وإنه ... فى موكب العلياء سار القهقرا

ثم يتجه الرفاعى إلى جوهر القضية الأزهرية ألا وهى ما يتم تعليمه فيه من علوم ومعارف حيث كانت قد بلغت درجة من الجمود معيبة للغاية :

هذى العلوم وحشوها لغو بها ... من كل جيل لا يزال مسطـــرا

علم نعالجه بفكر جدودنا ... يبدو به الهذر القديم مكــررا

إنا نريد من التقدم قسطنا ... ونريد للإسلام أن يتحـــررا

ونود أن نسقى الفنون رفيعة ... تجدى ، وليست طلسما متحجرا

ما العلم إلا ما تراه لديك فى ... لجج الحياة إذا مضت بك مثمرا

ومن عجائب الأزهر أن أحد شيوخ معهد الزقازيق كان يحارب النـشاط الرياضى وينظر إليه باعتباره عبثا ينبغى ألا يقربه طالب الأزهر ، فما كان من شاعرنا إلا أن أنشأ قصيدة جاء فيها :

ألا فليسقط العبث الحقير ... فمعهدنا له شيخ وقــــور

يحرم فى الرياضة ما أحلت ... شعوب الأرض ، إن العلم نور

إذا شاء الشباب لها نشاطا ... تبدى منه تصريح خطيـــر

وحوقل واستعاذ من المعاصى ... وأطلق فوق مكتبه البخـــور

وصاح : رجال هذا الدين ضلوا ... فغير العلم بهتان وزور

وعندما أصدرت إدارة الأزهر فى نوفمبر ١٩٥٣ قرارا تحتم فيه على طلاب المعاهد الدينية ارتداء العمامة والجبة ، وكان شاعرنا طالبا فى معهد الزقازيق ، نظم قصيدة احتجاجا على القرار ، كان منها :

قالوا العمامة زى الدين قلت لهم ... إن الشريعة بالأزياء لم تقـم
كم عمة فوق رأس حشوه خرف ... وحاسر ليس فى علم بمتهـم
ما كان أتفهها من فكرة ملكت ... عليكم اللب يا أضحوكة الأمـم
لو أنصفوا أصلحوا من شأن أنفسهم ... فجرحهم ليس فى الوادى بملتئم

الغريب حقا أن شاعرنا يقف بعد ذلك بعـامين علـى وجـه التقريـب ، وبالتحديد فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٥ بجمعية تحفيظ القرآن الكريم بالزقـازيق يشيد بالأزهر ، فكان مما قال :

بفيض الهدى والعلم والخير والمنى ... تدفق ماضيه وأشرق حاضره
فمعقل إرشاد ومنبع حكمــــــة ... وبحر علوم ليس يدرك آخره ؟!!

مجمعى يقترح
الحروف اللاتينية بدلا من العربية* !

سكان مصر الجديدة يعرفون من غير شك " مترو عبد العزيـز فهمـي " ، فضلا عن الشارع الشهير المسمى باسمه .

ودارسو تاريخ مصر الحديثة يعرفون " عبد العزيز فهمى " باعتبـاره أحـد ثلاثة (الآخران : سعد زغلول ، وعلـى شـعراوى) ذهبـوا إلـى المعتمـد البريطانى فى ١٣ نوفمبر عام ١٩١٨ كخطوة على طريق المطالبة بالاستقلال .

وهو أيضا الذى كان رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين منذ فبراير ١٩٤١ ، خلفا لمحمد محمود ..

لكننا نتناوله هنا باعتبار أنه كان عضوا فى مجمع اللغة العربية ، ومع ذلك فقد تقدم الرجل إلى المجمع باقتراح أراد من خلاله استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، مما أثار دهشة كثيرين ، أولا ، لأن الرجل اشتهر بحرصه على اللغة العربية وعلى التراث العربى ، وثانيا ، لأنه عضو بهذا المجمع الذى وظيفته حراسة اللغة العربية وتعزيزها ، فماذا قال مبررا موقفه ؟

كتب فى مقدمة المشروع مشيرا إلى تساؤل الناس : كيف يمر بخـاطره – وهو ممن يعتزون بقوميتهم وبلغتهم العربية – أن يستبدل الحـروف اللاتينيـة بالحروف العربية لرسم الكتابة ؟

والتمس صاحبنا للمتسائلين كل العذر ، لكنه يؤكد أنه ممن يعرفون واجبهم حق المعرفة ، ويؤكده فى أى وضع يكون . لقد ترك العمل ، وعـول علـى قضاء ما بقى من زمنه بقريته هادئا ، بعيدا عن المغامرات والسجالات

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٦/٦/٢٩

والمناصبات فى أى منحى من مناحى الحياة العامة ، لكنه " لشقوته " – حسب تعبيره – لم يذره القدر يهدأ ، بل فوجئ فى عزلته فيما فوجئ بتعيينه عضوا فى مجمعنا اللغوى ، وقد تردد بين القبول والرفض ، ففى القبول مشقة ، وفى الرفض – فى ظن الناس – ما يشبه فرار الجبان : " وفكرة الجبن شر ما تضيق به نفسى " .

قبل الرجل على مضض ، معللا النفس بأن الأمر خدمة العربية بمعهد هادئ بين نخبة من خيرة علمائنا وأدبائنا الأفاضل ، إن قصر فى مجاراتهم ، كان له من رجاحة عقولهم ورجاحة صدورهم وكرم أخلاقهم ما يسع قصوره أو تقصيره .

وأول ما عنى به ، معرفة واجب عضو هذا المجمع اللغوى ، فقرأ فى مرسوم تأليفه أن أول مهامه : المحافظة على سلامة العربية ، وفى قرار وزير المعارف أن عليه أن يبحث أمر تيسير هذه الكتابة تيسيرا يقى ألسنة قرائها من اللحن والخطأ ، فواجب المجمع فى هذا الصدد معين-بالنصوص الصريحة ، وهو من ضمن لجنة الأصول المكلفة بتأدية هذا الواجب ضمن ما عليها من التكليفات ، فواجبه إذن واضح وهو : المحافظة على الفصحى ، وجعل قارئ ما هو مكتوب بها لا يلحن فى قراءته ، ولا يخطئ .

وإذ قبل عضوية المجمع ، فإما أن يؤدى هذا الواجب ، وفقا لما يراه ، وإما أن يفارق .

ولم يكن سبيل فى رأيه لتأديته حق التأدية إلا باتخاذ الحروف اللاتينية وفيها حروف الحركات – لا إطلاقا – بل على وجه خاص رآه – أما الشكل الكلى أو الجزئى أو ما رآه البعض من حروف أو ذنبات توضع للحركات فى غضون الرسم ، فقد فكر فيه كثيرا ، ولم يجد شيئا منها صالحا .

وقد طبع الرجل هذا المشروع ، وقدمه إلى المجمع ، فلم يقدر له النجـــاح ، ذلك لأن الحروف اللاتينية ليست سبيلا إلى المحافظة على سلامة اللغة العربية وتراثها المجيد •

لقد أخطأ مفكرنا الكبير ، وزعيمنا السياسى الشهير ، فيما يبدو ، بفعل هذا الانبهار الذى غلب على البعض فى تلك الفترة فصاروا لا يرون وسيلة للتقـــدم إلا باقتفاء أثر الغرب فى كل شئ ، دون وعى بأن اللغة عامة والعربية خاصة ، هى العمود الفقرى للثقافة العربية ، ويكفى أن نقول إنها لغة القرآن الكـــريم الذى تعهد المولى سبحانه وتعالى بالحفاظ عليه ، وإذا كان القرآن هو مجمـــل اللفظ والمعنى ، فمؤدى هذا أن الحفاظ على العربية –سليمة عفية – هو حفـــاظ على كتاب الله الكريم •

شياطيـــــن الأعمـــــال*

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦))

ليسوا أبدا والله " رجال " أعمال ، وإنما هم " شياطين " أعمال ، ذلــك أن " الرجولة " ، ليست مجرد ذكورة كما يتوهم البعض وإنما هى صـــفة جامعـــة لمجموعة من الخصائل مثل التقوى، والشهامة ، وحسن تحمـــل المـــسئولية ، والأريحية ، ورشد التصرف ، والأخلاقية ..وما سار على هذا الدرب ، حتى أننا أحيانا ما نصف امرأة بأنها " راجل " دون أن نقصد بطبيعة الحال جانبا من جوانب خصائص " النوع " ، بل نقصد فى أغلب الأحوال أن بها قدرا غير قليل من مثل هذه الصفات التى سقنا لها أمثلة .

فإذا ما سعينا إلى تطبيق هذه الصفات على كثرة ممن نصفهم اليوم بـــأنهم " رجال أعمال " وقعنا فى التناقض ، ذلك أن استقراء سلوكياتهم يشير لنا علـــى الفور بأنهم ليسوا " رجال " أعمال ، بل شياطينها !! وإلا فماذا نقـــول عـــن " الأغنياء الجدد " الذين يثرون لا نتيجة تراكم لرأس مال بدأ بسيطا ثم أخذ ينمو نتيجة كد وكدح ومجاهدة ، وعرق ، وينفق فى أوجه استثمار إنتاجي يخصم من الاعتماد على الخارج ، ويضع لبنة فى بنية القدرة الاقتصادية للأمة ، ويمتثـــل للتوجيهات الإلهية بعدم الإسراف والبذخ واللهو ، فيكون شعاره قول المولى عز وجل : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومـــا محسورا " .

لقد أصبحت الطريقة مشهورة لأن تصبح مليونيرا ، بل ومليـــارديرا فـــى شهور قليلة ، لا بما تملك ولكن بما " تنهب " و " تنصب " و " تتحايل " ،

---

* جريدة نهضة مصر فى ٢٠٠٨/٧/٤

و . . . " كله بالقانون " ، ولولا شعرة من حياء ، أو خوف من المجاهرة لقالوا " سرقة قانونية " ، و" نصب شرعى " ، و" تحايل حلال " ! ولا تسل عما فى هذه العبارات من تناقض منطقى ووطنى وشرعى ، ففى الظلام الدامس ، توقع كل شئ وأى شئ ومن أى جهة ، وفى أى اتجاه (ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا) !

لقد ملأنا الدنيا ضجيجا وصراخا على الظاهرة التى عرفت ب" شركات توظيف الأموال " فى الثمانينيات " ووصفنا أصحابها بالعديد من النعوت المنفرة ، فماذا حل محلها ؟ كان أصحاب هذه الشركات يجمعون رؤوس أموالهم من الناس مباشرة ويتاجرون فيها ، لكن شياطين اليوم يستولون أيضا على أموال الناس لا مباشرة وإنما عن طريق الدولة ممثلة فى بنوكها ليقيموا مشروعات تقوم على الاستثمار الاستهلاكى : منتجعات سياحية ، مشروعات سكنية ، شركات أغذية جاهزة ، تجميع سيارات ، توكيلات لتوزيع منتجات شركات خارجية . . .وهكذا ولا تجد من بينها من يستصلح أراض ، ولا يقيم مصانع تعزز القدرات الإنتاجية للمواطنين .

ولأن الدولة غائبة فى كثير من الأحيان عن التفكير الاقتصادى الرشيد ، لانشغالها بالمحافظة على النظام وتتبع كل من يسير على طريق " المغايرة " والتربص بهم وتلفيق التهم لهم ، والاحتفاء بكل من يسير على طريق " المسايرة " ، وجد شياطين الأعمال الطريق سهلا وميسورا على الرغم من العديد من القضايا التى " أعلنت " منذ سنوات تنبئ بالنهب الكبير لقروشى وقروشك أيها المصرى المغلوب على أمره التى تتبقى فى يدنا نريد أن ندخرها ليوم قادم لا نعلم ماهيته ، ومع ذلك فالعرض مستمر ، كما أخبرتنا بذلك أنباء آخر كارثة عما سمى بمذبحة الزمالك .

منذ سنوات قليلة ، ربما تقل عن أصابع اليدين ، فوجئ الرأى العام بحادث مروعة. لم تكن الكارثة التى حملها لنا هذا الحادث تكمن فى مصرع أربعة

أشخاص فحسب من أبناء هذه الطبقة المترفة ، بل فيما كشف عنه الحادث من صور ومظاهر بذخ وترف وسوء إنفاق ، لو كان من حر مال بطل القصة لسكتنا ، على الرغم من حرمة مثل هذه السلوكيات ، ولكنها فى حقيقة الأمر من قروشى ومن قروشك التى كسبناها فى عشرات الأعوام ، وبكد وكدح وعرق ودموع وسهر الليالى فى المعاناة والسفر الشاق .

من بين ما قرأناه عزيزى القارئ ، وجود ثلاثين ساعة يد مملوكة لبطل الرواية ، لا يقل ثمن الواحدة عن مائة وخمسين ألفا من الجنيهات ، أى أن ثمن الساعة الواحدة توازى دخل أستاذ جامعى مثلى تجاوز من العمر سبعين عاما وله فى الخدمة أكثر من ست وأربعين عاما لمدة خمس سنوات على فرض أن متوسط الدخل ألفان وخمسمائة جنيه ، فى السنوات القليلة الأخيرة ، بينما كان معظم الفترة بضع مئات لا تتجاوز اليد الواحدة ...هذه هى قيمة الأستاذ الجامعى فى مصر قياسا إلى " ذرة " مما عرفنا عن الرجل ...

ليس هذا حسدا و " قرا " ، لكن المصيبة الكبرى التى نكرر الإشارة إليها أنه " فنجر " على حسابى وحسابك ، والوسيط هنا هو : الدولة !!

هذا هو الجزاء الذى تكافئ به الحكومة المصرية أستاذ الجامعة الذى يصل الليل بالنهار باحثا قارئا معلما ، مسافرا وراء المعرفة ، ينير طريق المعرفة أمام ألوف من أبناء الأمة ...

أما " شياطين " الأعمال ، فجزاؤهم مختلف : يتم تسليم مفتاح الكرار للص ، كى يسهر إلى الصباح ويحتسى الخمور ، ويراقص الراقصات ، ويتزوج الممثلات والمغنيات ، ويسكن القصور التى تمتلئ بالفازات الثمينة والتحف والأنتيكات غالية الثمن والرياش الفاخرة ، وجيش من الحراس ، وكم من الأسلحة الفتاكة ، وكوكبة من الموظفين الخصوصيين ، وأسطول من السيارات العالمية ذات الأسعار الفلكية ...

لسنا حاقدين والله ، فهناك غيرنا من ملايين المصريين أبأس منا حالا ...

لم نكن شامتين والله ، لأنها على أية حال خصم من سمعة بلدنا وقدراته وطاقاته ...

ولم نكن حاسدين والله لأننا نؤمن بأن " الآخرة خير وأبقى " ...

لكننا نشعر بأن قلوبنا تتفطر ونحن نرى بلادنا تُسرق وتُنهب ، ويعلو فيها النصابون ، واللصوص ،والمرتشون ، ونصرخ فى الجميع أن :

اتقوا لله فى المال الذى أتاكم ...

اتقوا الله فيما استخلفتم فيه ...

اتقوا الله فإن زلزلة الساعة شئ عظيم

والزلزلة زلزلتان : زلزلزة صغرى فى الدنيا تقوم بها الشعوب ، وزلزلة كبرى فى الآخرة من لدن منتقم جبار !!

صراعات دولية وإقليمية

فى الشارع اللبنانى* ..!

قدر على هذا البلد الجميل أن تكون أرضه بصفة غالبة ، هى أرض صراعات تدور بين أطراف دولية وإقليمية ، وهى لا تستطيع أن تدير صراعاتها إلا إذا كان لها وكلاء من أهل الداخل ! ولا يعنى هذا بالتأكيد أن ليس بلبنان من يكون محركه " داخليا " ، لكن ، فيما يبدو ، فإن هذا الصنف الثالث ، إذ يعتمد على المصلحة الوطنية وحدها ، لا يجد لنفسه تمويلا ، حيث جاهر أحد الأطراف ممن لا يحضرنى اسمه من حسن الحظ بقوله " الكل فى لبنان بيقبض " ، وكان قد قالها ردا على آخر يتهم فريقه بأنه يتمول من الجهة كذا خارج لبنان ! ولأن أصحاب المحركات الداخلية لا تمويل لهم ، فهم ضعفاء ، لا تكاد تلمس لهم ثقلا فيما يجرى على الساحة !

وإذا كان الأمر كذلك ، فهل ينطبق على من يتناولون ، من الخارج ، الشأن اللبنانى من غير أهل لبنان ، بالكتابة والبحث والدرس والتحليل ، بمعنى أن من يكتب مناصرا فريقا فمعنى ذلك أن جهده يصب فى مصلحة هذه الجهة الخارجية أو تلك ؟ أحيانا يمكن الإجابة عن هذا التساؤل بالإيجاب ، وأحيانا تكون الإجابة بالنفى ، كيف ؟

خذ مثلا تلك الدول التى توصف بالمعتدلة ، علما بأن هذا التوصيف جاء من قبل وزيرة الخارجية الأمريكية مما يعلق تهمة فى رقبة الاعتدال المقصود ، ذلك لأنه – فى الحقيقة – يعنى أن تلك الدول تحظى بالرضا الأمريكى ، وهناك الكثير مما يمكن قوله لو حاولنا أن نشرح دلالات هذا ، أبسطها أن تخدم مواقف هذه الدول المشروع الأمريكى فى المنطقة .

---

* نشر بجريدة المصريون الإلكترونية ، في ٢٠/١٢/٢٠٠٦

على أية حال ، فالكثرة الغالبة من صحف هذه الدول ومجلاتها يمكن أن تسميها " بالرسمية " ، على الرغم من أمرين : أولهما ، أنها ، قانونا ، ليست مملوكة للدولة ، لكنها ، بدرجة أو بأخرى لا تستطيع أن تخرج عن السياسة العامة لها ، بل لابد أن تجند ما لديها من طاقات للدفاع عن هذه السياسة وتبريرها ، إلا إذا كان الأمر يتعلق بمسائل تندرج فى السياسة الداخلية مما يتعلق بهموم الناس اليومية ، فهذه فى عرف الدول المستبدة غير مهمة ، مثل مناقشة ونقد مسألة تعليمية أو صحية أو سفلتة شارع أو قضية تموينية ، فلا بأس هنا من النقد والمعارضة ، واتخاذ مثل هذه الصورة دلالة على أن هذه الصحف تقول " الحق " ، ولا شئ غير الحق ! المهم أن يقع النقد خارج دائرة ما يسمى الوزارات السيادية !

ثانى الأمرين ، أن هذا البلد أو ذاك ، قد تكون به صحف مما يسمى " المستقلة " ، وقد تكون بعض هذه الصحف المستقلة صارخة التناقض مع النظام الحاكم ، كما نرى فى مصر على سبيل المثال ، لكن المشكلة الكبرى أنها - بكل الأسف وبكل الأسى - غير مؤثرة على مجرى الأمور العامة ، وخاصة سياسة الدولة ، تطبيقا للنهج المعروف عن توصيف الحرية والديموقراطية فى البلدان المتخلفة : فليقولوا ما يريدون ، وسوف نفعل نحن ما نريد !

هنا تجد كثيرا من كتاب صحف مثل هذه الدول (شبه الرسمية) لابد أن يقفوا مناصرين للفريق الحاكم فى لبنان ، منددين أو على الأقل يغمزون ويلمزون فى فريق المعارضة عامة وخاصة حزب الله ، حيث لا تجد أحدا ينتقد من فريق المعارضة إلا هذا الحزب ، ولا يقربون - مثلا - واحدا مثل العماد ميشيل عون !

فهذا كاتب إعلامى شهير يكتب فى الأهرام ٦ ديسمبر ٢٠٠٦ بصورة تبدو محايدة ، ثم إذا به يسجل عبارة غريبة يقول فيها " الحزب الذى يقول أنه انتصر ..." ، ووجه الغرابة ، أنه يشير إلى هذا الحزب بصيغة " التجهيل " ،

مع أن الحزب هو أشهر حزب فى العالم العربى ، إن لم يكن فى العالم الإسلامى ، وكأن الرجل يستكثر على قلمه حتى ذكر اسم الحزب ، ولم يذكر الاسم إلا بعد سطور عديدة حيث اضطره السياق إلى ذلك ! فضلا عن غرابة المقولة نفسها ، فالحزب ليس وحده هو الذى يقول أنه انتصر ، بل يقول ذلك الطرف الآخر فى الصراع ، مما قد لا يتسع له المقال الحالى ، فالتحقيقات التى تمت ولا تزال جارية فى إسرائيل ، كلها تقوم على أساس أن إسرائيل " أخفقت " فى المواجهة ، وهذه الكلمة " أخفقت " هى الكلمة المخففة لكلمة الهزيمة . وفضلا عن ذلك هناك عشرات الشهادات فى دول غربية. وعندما اضطر كاتبنا الإعلامى إلى القول بأنه لا يعنى بذلك التقليل من إنجازات المقاومة ، لكنه يرجع مرة أخرى إلى وصف هذا الانتصار بأنه " معنوى " !!

وإزاء مثل التوجه نجد الرئيس اللبنانى " المحاصر " – إميل لحود – يرد على مندوب الأهرام فى حديث معه ، بتاريخ ١٤ ديسمبر ، حيث سأل المندوب : " مع من تكمن مصلحة لبنان : هل مع محيطه العربى أم مع بعده الإيرانى ممثلا فى ولاءات حزب الله ؟ " ، بقوله " لابد أولا القول أن حزب الله الذى يمثل المقاومة اللبنانية فى وجه العدو الإسرائيلى لم يتبن أى قرار أو فكرة لا تصب فى مصلحة لبنان ، ومن الظلم القول أنه يحمل ولاءات إيرانية " .

ولعل إجابة لحود هذه مؤشر يدلك على أحد الأسباب الرئيسية التى جعلت منه رئيسا مكروها من الغرب ، ومن الفريق الحاكم ، ومناصريه من النظم العربية .

ولو كان لنا أن نكمل الإجابة لتساءلنا : مع من من المحيط العربى للبنان يتحالف حزب الله ؟

مع هذه الأطراف التى تفتح حدودها على مصراعيها للإسرائيليين ، وتسدها أمام الفلسطينيين ، وإن فتحتها فبعد تفتيشات وتحقيقات وعذابات ؟

مع هذه الأطراف التى التى رأت فى المقاومة الفلسطينية " انتحارات " ؟

مع هذه الأطراف التى تشارك فى حصار الشعب الفلسطينى وتجويعه ؟

مع هذه الأطراف التى عاونت على ذبح العراق وتدميره واحتلاله ؟

قائمة طويلة مما هو مخجل ومخز ، مما قاوم القلم كثيرا فى أن يكتبها ، عندما أسعفته الذاكرة ببعضها وكأننى كنت أحمله على أن يغوص فى قمامة أو فى طين أو مخلفات البشر والحيوان !!

من أبرز العلامات التى ترسم وفقا لها الاستراتيجيات الدولية رشد البصر بتحديد العدو ، والصديق ؟

فلنسلم جدلا بأن إيران تريد الهيمنة على المنطقة ... ولنسلم جدلا بأن إيران ليست مجرد كيان سياسى ، بل هى كذلك كيان مذهبى يسعى إلى إذاعة وهيمنة هذا المذهب المخالف لمذهب الكثرة الغالبة من الدول المحيطة ، ولنسلم جدلا بأن إيران بهذا ، من العسير النظر إليها على أنها " صديق " ... لكن السؤال هو : وهل كل من إسرائيل وأمريكا أقرب صداقة ؟

فلنرجع إلى التاريخ ولو مدة قرن من الزمان ، ولنسأل :

من الذى استعمر بلادنا ونهبها وخربها واستذلها ؟

لا نجد لإيران بصمة واحدة على هذا الطريق ..

من الذى اغتصب أرض فلسطين وشرد شعبها وكلفنا حروبا مات لنا فيها عشرات الآلاف ، وضاع لنا فيها مليارات الجنيهات عبر خمس وعشرين عاما فقط (٤٨-١٩٧٣) ؟

لا نجد أثرا لإيران وإنما " آثارا " واضحة صارخة لكل من أمريكا وإسرائيل طبعا .

من الذى يقف ضد أى قرار فى صالح الفلسطينيين فى مجلس الأمن ، وأى قرار يدين إسرائيل ؟

قد يحتاج الأمر منا إلى صفحات طويلة استطرادا لهذه الزاوية بالذات ، فعلى أى أساس تحولت أمريكا وإسرائيل إلى أصدقاء وحلفاء ، مع أنهما ما زالا على طريق التهديد لكل ما يأتى لصالح هذه الأمة ؟

ومن هنا فإن لنا أن نسأل : ما الذى نفهمه من هذا الإصرار الغريب من الرئيس الأمريكى ووزيرة خارجيته على تكرار التصريح بأن الحكومة اللبنانية عظيمة وقانونية ودستورية وديموقراطية ، ولن يسمحوا أبدا لأحد أن يزيحها عن موقعها ؟

ونفس المعنى تتضمنه تصريحات قيادات إسرائيلية دعما للحكومة اللبنانية الحالية ؟

لست فقيها فى القانون الدولى ، لكننى تعلمت من ثقافتنا الشعبية ومن تقاليدنا الاجتماعية مبدءا مهما يتخلص فى عدة صيغ : عدو عدوى صديقى . قل لى من تعاشر أقل لك من أنت . المرء بقرينه يقرن ، وما يسير على هذا الطريق .

من هنا فما المانع من المساعدة الإيرانية فى مواقف تصب فى تعطيل المشروع الأمريكى لإعادة تشكيل المنطقة وفقا لمصالحها الاستراتيجية ؟

لقد عرفت السياسة الدولية الكثير من التحالفات التى نحت الدواعى " الإيديولوجية " جانبا وأعلت بدلا منها " المصالح " ، وضربت أمريكا نفسها لنا أكبر الأمثلة عندما تحالفت مع " ستالين " رأس الديكتاتورية المناقضة " للديموقراطية " الأمريكية ، وزعيم الشيوعية " العدو اللدود للرأسمالية الغربية ، لأن مصلحتها قضت بذلك حتى تتخلص من غول النازية ، وبعد أن انمحى هذا الغول ، التفتت إلى العدو الشيوعى تناصبه العداء وتكرس له كافة الجهود والطاقات لمحاربته .

وهى أمريكا نفسها التى تحالفت مع القوى الإسلامية التى رفعت المصحف ، ودانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المصحف نفسه الذى

تسعى أمريكا الآن إلى تنحيته عن معاهد التعليم في البلدان الإسلامية ، والاكتفاء " بالتأويل " و " التفسير " حيث هنا تكون المساحة متاحة لبث الأفكار والقيم الهزيلة!

تحالفت مع بن لادن وغيره من زعماء الجهاد الديني لأنها أيقنت أن هذه هي " المتاريس " الحقيقية التي تحول بين الشيوعية التي حلت قهرا بأفغانستان ...

فإذا كنا نتخذ أمريكا منبر الهدى (!) فلماذا لا نقلدها في هذا ؟ لماذا لا نردد أقوالها كالببغاوات تشكيكا في إيران ؟ إن أمريكا لها منطقها في معاداة إيران لأنها تقف في مواجهة مصالحها ، وبخاصة المشروع الإسرائيلي ، فما الذي يخفنا نحن من إيران ؟

لم تزعجنا قنابل إسرائيل النووية القائمة منذ عدة عقود ، لكننا نظهر الانزعاج من " مشروع " إيران النووي ، تقليدا للأمريكان ، ومناصرة لمخاوف إسرائيل التي ضمنت كلية إلى أن لا خطر يهددها الآن من جانب أي دولة عربية ، وإنما الخطر عليها يتمثل في تنامي القوة الإيرانية والنفوذ الإيراني ، وهذا بالضبط هو ما يجعل مثلي يسعد بإيران ، رغم التناقض المذهبي ، والمخالفة لبعض أسس الحكم القائم هناك ..لكنها عدو عدوي ، لذا فهي صديقي !

قميص عثمان اللبنانى*

عندما امتدت يد الغدر لتغتال الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وانتشر الحزن وعم الفزع والغضب لهذه الجريمة البشعة ، والتى تمت لثانى مرة فى بداية الدولة الإسلامية الوليدة ، حيث كان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب أول من راح ضحية مثل هذا الغدر ، انتهزت قوى متعددة فرصة اغتيال عثمان رضى الله عنه وراحوا يطالبون بالقصاص من القتلة ومن هم وراء القتلة ، وبدأ التاريخ الإسلامى يعرف ، مع الأسف الشديد ، إلباس الأهداف السياسية بتبريرات دينية ، ليفتح الباب للبس مغرض يظهر الحق باطلا والباطل حقا ، ويعطى بالتالى فرصة ذهبية للمغايرين أن يطعنوا فى الارتباط بين السياسى والدينى .

شئ من هذا يعود للتكرار على الساحة اللبنانية منذ الرابع عشر من فبراير عام ٢٠٠٥ ...

فلقد كان رفيق الحريرى ، الزعيم الذى راح ضحية غدر ، شخصية فريدة حقا فى تاريخ لبنان الحديث ، وعزز من قدراته ومكانته ما كان وراءه من امبراطورية مالية ، وعلاقات وثيقة بقوى متعددة فاعلة .

ومن المؤكد أن قتل أى إنسان ، عن غير طريق محاكمة عادلة من قبل السلطة المسؤولة ، هو أمر منبوذ بكل المقاييس ، فما بالنا إن كان هذا الإنسان بحجم الحريرى ؟

لكن المؤسف ، هو أن المشهد ، وكأنه يعيد علينا ما حدث عقب مقتل عثمان بن عفان .. اتخاذ الحادث تكأة لتصفية حسابات سياسية واقتناص الفرص لكسب مغانم سياسية ، وفى الطريق إلى ذلك ربما تضيع حقوق وطن ،

---

* جريدة الأسرة العربية فى ٢٠/١١/٢٠٠٦

وتخسر شعوب الكثير ..

صحيح أن الساحة اللبنانية على درجة من التنوع والتعـدد والاخـتلاف والتضارب والتناقض بصورة يصعب معها أن يخرج الإنسان بالرأى الأقـرب إلى الصواب ، إلا أن الإنسان يمكن بجهد بسيط أن يرى تلك الحقيقة التى ترتبط أجزاؤها ارتباطا منطقيا ، ويسلم أحدها إلى الآخر فى تسلسل عقلى من الصعب إنكاره ...

فالقوة الوحيدة ، خارج الأرض الفلسطينية ، التى تملـك الـسلاح وإرادة المقاومة هى تلك المتمثلة فى حزب الله القابع فى جنوب لبنان ، حارسا له مـن الغدر الصهيونى ، ومتطلعا إلى تحرير ما تبقى مـن الأرض اللبنانيـة ، فـى مزارع شبعا ، فى وقت رفعت فيه كل الدول العربية بغيـر اسـتثناء الرايـة البيضاء لإسرائيل ، وأصبح كثير منها " يلهث " وراءها ، لعلها ترضى عنه ، وبالتالى ترضى عنه القوة الأعظم ...الولايات المتحدة !!

والحزب لا يملك قدرة تمويلية كى يشترى بها ما يحتاج من سلاح ، حيث لا يمثل قوة سياسية شرعية متمثلة فى دولة كما هو الـشأن فـى دول العـالم تستطيع أن تتعاقد وتشترى ، لكنه من حسن حظه ، ومن خلال الوضع اللبنانى الفريد ، يستطيع أن يتحرك بعيدا عن سلطة الدولة بقدر من الحريـة ، وهـو الأمر الذى لا تستطيعه أى قوة ، غير رسمية ، فى أى دولة عربية .وهذا نفسه أعطاه القدرة على حرية الحركة فى التعامل مع العدو الإسرائيلى .

هنا برزت إيران ، مصدرا للتسليح ، فهى القوة الوحيدة الآن التى ترفع راية العصيان فى وجه الولايات المتحدة ، مع كوريا الشمالية وفنزويلا وكوبا ، وأمريكا لا تخشى كل هؤلاء بقدر ما تخشى إيران بحكم ما لها من قدرة نفطية ، وموقعها على الخليج ، وحجمها الكبير .

وعزز من هذا ، تشارك فى المذهبية الدينية ...الشيعية .

لكن إيران ليست مجاورة للبنان ، وإنما سوريا ، فكان من طبائع الأمـــور أن يقوم تعاون بين القوى الثلاث ، وكان من الطبيعى أن ينتج عــن هــذا أن تصبح القوى الثلاث ألد أعداء إسرائيل ، وبالتالى ألد أعداء الولايات المتحدة ، ويصبح همها اليومى ، كيف تقود الدنيا كلها ضد هؤلاء ..

هنا يجئ اغتيال الحريرى فرصة لا مثيل لها لإلصاق تهمتـــه بـــسوريا ، وسواء أكان اتهامها بهذا حقا أو باطلا ، حيث لا نعلم قرائن حقيقيـــة تنفـــى أو تؤيد (وإن كنا – ربما – للنفى أميل) ، بل وانتهاز ذلك فرصة لـــشن حـــرب باردة ضارية ضد سوريا ، استطاعت فيها الولايات المتحدة أن تجر العالم كله ، بحكم أوضاع كثيرة إلى أن تضيق الخناق على سوريا .وليست سوريا هـــى المقصودة فى حد ذاتها ، بقدر ما يحتل حزب الله موقع الـــصدر والقلـــب فـــى الجهود المبذولة .

ولا تسل عن موقف الدول العربية ، فحكامها بلا حول ولا قوة ، فأمريكا إذا قالت أن الإنسان يمكن أن يكون فى مكانين متباعدين فى وقت واحد ، لن يجرؤ أحدهم أن يعارض فى ذلك ، فإما أن يصمت ..وهو الاحتمال الضعيف ، وإما " أن يبذل مساعيه الحميدة لتقريب وجهات النظر وتخفيف حدة التوتر " ، وهو الاحتمال الظاهر ، وإما أن يقول " آمين " ، وهو الاحتمال الغالب ، وإن فـــى صمت !!

إن المنطق الذى يحرك قوى الامبريالية الأمريكية والصهيونية معـــروف ومفهوم ، لكن موقف بعض القوى اللبنانية ينثر أمامنا الكثيـــر مـــن علامـــات الاستفهام حقا ؟! ولقد كنا نتفهم ما تركته القوات السورية من مرارة فى نفوس اللبنانيين ، لكن ما بدأ يقال علنا منذ أيام قليلة مطالبة بنزع سلاح حـــزب الله ، هو كشف للمستور حقا من كل " اللعبة القذرة " التى بدأت بمقتل الحريرى !

لسنا فى حاجة إلى التأكيد على فداحة الخسارة باغتيال الحريــرى ، لكننــا نسأل : وهل كان أول المغتالين ؟ ألا يحمل التاريخ اللبنانى المعاصر العديد من الرؤساء الذين اغتيلوا ، فلم كل هذه الحركة على كل المستويات ؟

ولسنا راضين عن حال الديموقراطية فى سوريا ، ولنا على نظامها الكثير من التحفظات ، ولسنا نرضى أبدا أن تهيمن على الأرض اللبنانيــة ، ولكننــا نسأل : فى هذا الوقت الذى تتطاير فيها الشعارات والاتهامات ضد " بقايا الأمن السورى " ، هل تخلو الأرض اللبنانية من حركــة الـسى آى إيــه ، والموساد ؟ ألم تعد الساحة واسعة أمامهما بعد ذهاب القوات السورية ؟

كذلك فلا منطق يمكن أن يؤيد تدخل سوريا فى الشأن اللبنانى ، لكن : ألا يصرح كل فترة هذا المسئول أو ذاك ، من فرنسا ، وأمريكا بأنه يرفض كــذا ويعجبه كذا ويريد كذا فى أخص الشئون اللبنانية ؟ ألا يمر كــل مــن الـسفير الأمريكى وكذا الفرنسى على معظم القوى السياسية اللبنانية ، ومن خلال ذلــك يحرك ويفتى ويعترض ؟

لو كانت الحركة اللبنانية تعترض على " كل " التدخلات ، و " كل " صور الهيمنة لباركنا وأيدنا ، أما أن تعترض إذا كان هذا قادما من جهــة عربيــة ، وتبارك وتسعد إذا كان قادما من أعداء الأمة العربية ، فإن هذا يرســم علــى وجوهنا علامات دهشة ، وفى قلوبنا مشاعر أسى ، وأخشى أن أقول ، ويبــذر بذور ريبة !

أسد عليّ ..
وفى الحروب نعامة* ...!

منذ سنوات ، وقف الشاعر الراحل العظيم أمل دنقل يصرخ برائعته : لا تصالح ، فإذا بهذه الصرخة تجد صدى لها فى آذاننا فنهتف مع الراحل العظيم مرددين معه الصرخة نفسها ، وتكاد قلوبنا تصفق له ، إذ كـأن الرجـل قـد استطلع آراء الجمهرة الكبرى من أبناء هذه الأمة فنطق بما ترى ، وقال بمـا تؤمن ، موجها كلماته إلى أهل السلطة ، فهكذا تكون عظمة المثقف ..أن يقول لأهل الحكم ما يشعر – صدقا وعدلا – أنه رأى الناس ..كلام الناس ..أحلام الناس ، لا أن يكون مجرد شارح ، مبرر ، مُزيّن لهم .

كان الشاعر العظيم الراحل يبصر بثاقب بصيرته أن ما حاولوا أن يغرقونا فيه من أضغاث أحلام وأمانى مدهونة بالكذب والتزييف ، سوف تفيض علينـا لبنا وعسلا نتيجة سلام مفروض ، إنما هو خداع مفضوح ، قال ذلـك لا مـن منطلق نزوع لدينا فى اتجاه العنف ولا من منطلق هوايـة لنـا فـى العـداء والاعتداء ، وإنما العكس من ذلك تماما – فتحيتنا الدائمة فى كل لحظة عنـدما يلقى بعضنا بعضا :" السلام عليكم ..." ، وهى أيضا تحيتنا ونحن نقف بـين يدى الله خمس مرات فى اليوم ، مصلين – ولكن انطلاقا من شواهد وبـراهين وخبرات وتجارب أننا إزاء قتلة ..سفاحين ..مشروع استعمارى اسـتيطانى ينهج نهج النازية التى راح يصندع الدنيا بأنه ضحية لها ، ولا يتساءل أحد : فلم ندفع نحن الثمن ، ولا تدفعه أوربا التى شهدت أرضها هذا ، وقام به بعض من رجالها ؟!

وتأبى السنون التالية على وفاة الشاعر الراحل إلا أن تؤكد صدق

---

* نشر بجريدة المصريون الإلكترونية في ٢٠٠٧/١/٢٤

أحاسيسه ، وثاقب نظراته ، فمجازر العدو الصهيونى مستمرة ، واعتدائه على أية مواثيق قائمة ، واختراقاته للكثير من جوانب حياتنا ظاهرة ، ومع ذلك فأهل الحكم يزدادون له تقربا ، وأهل الحكم يسارعون فى خطـــواهم نحـــوه ، بـــل ويصفون الجزارين بأحسن الأوصاف ، على الرغم من أن هؤلاء الجـــزارين يحرصون عند كل لقاء مع أهل الحكم أن يُظهروا صورة من صور دمويتهم !!

ذلك سلوك النظام مع العدو الصهيونى ، فماذا يفعل مع جماعات الداخل ..فى مصر ؟

إنه يطلق نفس صرخة دنقل لمن يخالفه التوجه ويغايره فى الاتجاه ، وليكن مثالنا هنا هو جماعة الإخوان المسلمين ، التـــى يطلقـــون عليهـــا " الجماعـــة المحظورة " ، ولو شاءوا الدقة لقالوا " الجماعة المحاصرة " !

فأنت إذ تبرر دهشتك من دعوى التصالح مع العدو الصهيونى بالعديد من الشواهد ، مما يحتاج حصرها إلى " كتب " ومجلدات ، نكتفـــى منهـــا بـــبعض العناوين :

اغتصاب وطن عربى بالكامل ..

تشريد ملايين من أهلنا على أرض فلسطين ..

قتل آلاف من المصريين ....

تدمير العديد من المنشآت المصرية ...

استهلاك مئات الملايين من أموال المصريين لمواجهة وحشية هـــذا العـــدو الصهيونى عبر ما يقرب من خمس وثلاثين سنة ...

ومثل هذا وغيره كثير ، ربما يصعب حصره والتوقف عنده .

تفاجأ ومع ذلك ، بمن يرفعون شعارات :

عفا الله عما سلف ...

لا يوجد فى السياسة عداء دائم ...

السلام سوف يعوضنا عن كل ما خسرناه وزيادة ... إلخ

وفى المقابل ، تجد النظام الحاكم يتعامل مع الجماعة التى هى من أهل بلدنا ..مصريين ، لم يغتصبوا أرضا ، ولم ينهبوا ملايينا عبر خمس وثلاثين سنة ، ولم يقتلوا عشرات الألوف من جنودنا ، ولم يشردوا ملايين من أهل عروبتنا صارخا فى وجوههم : لا تصالح ...لا تصالح !

ويُكثر النظام من الدعوات والكتابات والمؤتمرات والخطب والتنظيمات ، كلها لتأكيد : التسامح ، والتعايش والسلام ، مع من ؟ مع هذا العدو الصهيونى الذى فعل ما فعل ، فإذا ما جاء إلى هذا الفريق من أهل وطننا المصريين ، لم يسمح لهم بالدخول إلى مظلمة التسامح ، والتعايش ، والسلام ، صارخا فى وجوههم : لا تصالح !!

يبررون ما يفعلونه تجاه الجماعة المحاصرة بأنها جماعة تقوم على العنف والإرهاب ، وفضلا عن أن هذه هى الدعوى نفسها التى يرفعها العدو الصهيونى والأمريكى الامبريالى تجاه ما كل ما له نزعة إسلامية ، فإننا نسأل :

هل سجلت منذ عام ١٩٥٤ – حادث إطلاق النار على جمال عبد الناصر – حادثة عنف واحدة ارتكبها واحد من أهل هذه الجماعة ..؟

ثنتان وخمسون عاما مرت وهؤلاء يجنحون إلى السلم ، ومع ذلك يوصفون بالإرهاب ...

واللذين ما زالوا يمارسون الإرهاب واغتصاب الأوطان منذ ما يقرب من ستين عاما ، يمدون إليهم يد العفو والسلام ..

إن أهل الحكم عندنا يعرفون جيدا أن هذه الجماعة المحاصرة ليست من أهل العنف والإرهاب ، وعندما يوصفون بأنهم خطر على مصر ، فهذه العبارة تحتاج إلى تعديل يقربها إلى الحقيقة وهى أنها خطر على أهل السلطة والمنتفعين بالسلطة ..

وهكذا تجد أهل السلطة ومواليهم يحاصرون النقابات المهنية ، على الرغم من أنها تقوم على الانتخابات ، بحيث يحكمها ويديرها من يختاره أهل المهنة ،

لكن هذه القاعدة الديموقراطية تداس بالأقدام ، لأن أهل المهنة يلمسون كم ونوع الخدمات التى يقدمها المنتمون لهذه الجماعة المحاصرة داخل النقابات ، فيعرون بذلك تقاعس أهل السلطة ومواليهم ، وتركيزهم على جلب المنافع الخاصة لكل منهم ، فمن الذى يمارس الإرهاب والعنف ويقف معاديا للديموقراطية والمجتمع المدنى ؟

أقول هذا لا من موقع المخدوع فيما تقوله الجماعة المحاصرة ، وإنما من موقف خبرة ، فولداى ، مهندسان منذ سنوات طويلة ، وكانا يحكيان لى دائما الكثير من هذا الفيض من العمل الخيرى والنقابى العظيم الذى كان يقوم به هؤلاء الناس ، وولداى لا ينتميان للجماعة المحظورة ، ولا اهتمام لهم بالسياسة!!

ومع ذلك فممنوع على عشرات الآلاف من المهندسين أن يُفعّلوا جماعة مدنية ، ويمارسوا حقهم الديموقراطى ، فمن الذى يمارس العنف والإرهاب ؟

إن صور الانتخابات البرلمانية الماضية لم تبرح ذاكرتنا بعد بكل ما تضمنته من قوات مسلحة من الأمن المركزى المدججة بالسلاح تحاصر اللجان وتمنع وتضرب وتعتقل كل من تشم له رائحة انتماء أو مناصرة لهذه الجماعة المحاصرة . وفى دوائر ثلاث شهيرة ، مورس فيها التزييف جهارا نهارا ، ورغم أنف القضاة والعالم كله : الدقى ، مدينة نصر ، دمنهور ، حيث كان التقدم واضحا لمرشحى الجماعة المحاصرة ، وتم فرض ثلاثة آخرين من المنتفعين بالنظام الحاكم ، وليحتلوا مواقع رفيعة ، ويمارسوا مهام كبيرة تحت قبة البرلمان ، فمن الذى مارس العنف والإرهاب ؟

إن هذه الحملة المسعورة التى انطلقت عقب تصريح رئيس الدولة بأن هذه الجماعة " خطر " تسوق النظام القائم إلى طريق مجهول ، هو الذى يشكل خطرا على مصر حقا ، ويمكن أن يفتح الباب لبعض أعضاء الجماعة لينحرفوا إلى تطرف ، مثلما حدث لبعض سابق ، نتيجة لما لاقوه فى السجون طوال

الخمسينيات والستينيات ، واعتبروا الجماعة مهادنة ، ووقعوا فى " جبّ" التكفير والعنف •

ونحن فى العلوم التربوية والنفسية ندرك جيدا أن " الشدة مع المتعلمين " فيما قال مفكرنا الراحل ابن خلدون " مضرة بهم " ، وتنتج الأسوأ ، ولا تعالج أبدا ، ومن هنا أصدرت وزارة التربية قرارها بمنع الضرب فى المدارس ، فلم نمارسه فى المجتمع ؟!

ومن ثم ، فبأى منطق يحرم عشرات ألوف من ممارسة حقوقهم فى المواطنة بحجة واهية ، أهل الحكم هم أدرى الناس بزيفها ؟

إن هذا الذى يحدث ، كان مقبولا منذ عشرات السنين – ربما – لأن النظام الذى كان قائما كان نظاما وطنيا يرفض رهن الإرادة الوطنية فى الأيدى الأمريكية ، ولا ينخدع بأوهام السلام مع الصهيونية النازية ، فغفرنا له ممارسات لا ديموقراطية ، وإذا قال لنا أحد : أن هذا النظام السابق جرنا إلى الهزيمة ، قلنا لأن الذين تضعون أيديكم فى أيديهم اليوم هم الذن تكتلوا لتدمير مصر ، وسوف نحتفظ لزعيم هذا النظام جمال عبد الناصر بمشاعر تقدير واحترام لأنه كان زعيما مخلصا شريفا ، مات وجيبه فارغ من أموال الدولة والتجارة المشبوهة •

قبلنا أن نشرب علقما فى ذلك الزمن حيث كان بمصر زعيم ، فما الذى يجعلنا نقبل هذا الخداع بالإرهاب ، وهذا البطش والقهر لألوف من أبناء هذا الوطن يريدون أن يعيشوا فى سلام – مثل الإسرائيليين – وأن يكون لهم صوت نسمعه منهم دون تهديد مثلما نسمع من الإسرائيليين •

وتنشط الصحف فيما تصوره من " ضربات أمنية " لمنابع التمويل للجماعة المحاصرة ، فنضرب كفا على كف ، لأن ألاف الناس تعاملوا بصفتهم " زبائن " مع هذه الشركات فما وجدوا فيها إلا أداء اقتصاديا متميزا ، فهل حلال على

الشركات الإسرائيلية أن تكسب من جيوب المصريين ، وحرام على أبناء هـذه الجماعة المحاصرة أن يكسبوا من أهلهم – قانونا وصحة – مالا ؟

يقولون أنهم يمولون به أنشطة الجماعة ! والسؤال هو : وما هى أنـشطة الجماعة التى تخالف الشرع والقانون ؟ هل هـم الخطـر أم تلـك الأحـزاب الكرتونية التى لا وجود لها فى الشارع وتستنزف آلافا من الجنيهات إعانة من أموال الناس ؟ هل هم الخطر : الذين يكسبون بعرق أيديهم ، أم الذين تنفق على صحفهم ملايين الجنيهات فى صحف خاسرة ، لا لشئ إلا ليستمروا فى التسبيح والحمد والركوع لأهل النظام ؟

هل وصل بنا الزمان حد أن يتمنى البعض من أهل أمتنا أن يحصلوا علـى بعض ما يحصل عليه أعداء الأمة الإسرائيليين ، نازيى العصر من أمن وأمان وتعايش وسلام وتسامح ؟!

أيتها الشرعية ...

كم باسمك ترتكب الآثام* !!

حتى نفهم بعض الظواهر السلوكية للغرب تجاهنا ، علينا أن نرجع بالذاكرة بعيدا إلى حيث جذور الحضارة الغربية فى بلاد اليونان القديمة ، التى قيل أنها " أصل " الديموقراطية ، فهل كان هذا حقا ؟

من ناحية الأصل اللغوى ، فهذا صحيح ...

لكن من حيث الممارسة ، فهناك خدعة كبيرة ، ذلك أن المجتمع الإغريقى – مثلما كانت الجمهرة العظمى من المجتمعات البشرية فى هذا الزمن السحيق – بل وما بعده لفترات طويلة ، كان ينقسم إلـى مجتمـع السـادة الأحـرار ، ومجتمع العبيد ، وكان عدد الفئة الثانية أكبر من مثيلها فى الفئة الثانية . فـإذا كانت الديموقراطية فى أصلها تعنى حكم الشعب للشعب من أجل الشعب ، فمن كان هو الشعب ؟ السادة الأحرار وحدهم ، أما العبيد ، فهم مثلهم مثل الحيوانات ، يُوفر لهم المأكل والمأوى والمشرب ، والملبس ، لكن ليس من حق أحد منهم أن يكون له دور فى اتخاذ القرارات المُسَيّرة لشئون المجتمـع والدولـة ، وإلا أُعتبر هذا مما يستوجب المؤاخذة التى تتدرج وفقا للخطأ المرتكب .

وهكذا يجب أن نفهم الموقف من " الديموقراطية " الملتبس ، ونحن نراقـب ونتابع السياسة الغربية عامة والأمريكية خاصة تجاه هذه القضية .

إن شعوب الدول الغربية المتقدمة ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، هى ما يماثل مجتمع أثينا من الأحرار ...

ومجتمعات الدول النامية ، وخاصة العربية الإسلامية ، هـم مـثلهم مثـل مجتمع العبيد ...

---

* نشر بجريدة المصريون في ٢٠٠٧/٧/١١

إننا نقر ونعترف أن شعوب الدول الغربية تمارس صورا من الديموقراطية تمثل لنا نحن المقهورين العرب أحلاما وأمانى ، لكن هذا لا يجعلنا بالضرورة نصدق الدعاوى الأمريكية عندما تقيّم دولا من عالمنا العربى بأنها ديموقراطية ودولا أخرى بأنها غير ذلك ، فليس غريبا أن نجد أن من لا تطالبهم أمريكا بالديموقراطية هم من أعتى الدول قهرا لشعوبها ، دون أن نعنى بهذا بالضرورة بأن من تطالبهم بالديموقراطية ، هم بالفعل دول ديموقراطية ، إذ لابد أن نعترف بأن هذه النظم هى كذلك بالفعل دول استبداد وقهر .

فالديموقراطية إذن مجرد " فزاعة " تستخدم لابتزاز الحكام العرب الذين نعلم جميعا أن أحدا منهم لم يجئ إلى مقعده بالفعل على أكتاف الناس ، ومن ثم ، عندما نجد أصواتا أمريكية – مثلا – تطالب بالإفراج عن سجين مثل أيمن نور ، فليس هذا بالفعل توجها ديموقراطيا ، وإلا ، فكم مثل أيمن نور فى السجون والمعتقلات ، من الإخوان المسلمين الذين لم يرتكبوا أى جرم ، ومع ذلك لا يذكرهم الأمريكان ؟ فلابد أن نعرف أن المراد من مصر هو أن تفعل كذا وكذا مما يحقق المصالح الأمريكية والإسرائيلية ، وإلا فتحوا عليهم نار المطالبة بالديموقراطية ، فيهرعون إلى تنفيذ ما يُطلب منهم لأن سجلهم فى القهر حافل ومتخم وفاضح !

الديموقراطية الغربية إذن هى فقط للشعوب الغربية ، أما الشعوب العربية – مثلا – والشعوب الإسلامية ، فهذه شعوب عبيد ..بشر من الدرجة الثانية ، لا حق لهم فى الممارسة الديموقراطية ، وإلا فإن " البنية الأساسية " للممارسة الديموقراطية هى أن ترفع قوى الهيمنة يدها عن الابتزاز والاستغلال والاحتلال ، ولن يكون للأشكال المعروفة فى الممارسة الديموقراطية من أحزاب وبرلمان وانتخابات ودستور جدوى ، إذا استمر هذا البلد أو ذاك واقعا فى براثن الهيمنة الأجنبية ، كما هو الأمر الحادث الآن فى مجمل الدول العربية .

فى ضوء هذا يمكن لنا أن نفهم ما تردد عبر الأسابيع القليلــة الماضــية حول أحداث غزة .

فلقد تعالت الأصوات من أركان مختلفة فى الغرب عقب سيطرة حمــاس على مقاليد الأمور فى غزة تطالب باحترام الشرعية ، وكان من الطبيعــى أن نسمع نفس الأقوال من " توابع " القوى المهيمنة من عدد من حكام منطقتنا تردد كالببغاوات الكلام نفسه ، مع أنهم لو تأملوا حالهم لوجدوا أنهم أبعد خلق الله عن الشرعية ، وهم أول من يعرفون ذلك ، حيث أن حكام غزة هم الوحيدون فــى العالم العربى الذين جاءوا برغبة شعبهم ، دون تزييف أو قهر أو إغراء ، سواء على ظهر دبابة أو بالميراث أو بالصدفة أو بالسطو ، وهى الطرق المعروفــة لتولى السلطة فى هذا العالم المنكوب .

ومع مجئ حماس إلى الحكــم ، إذا بخطــوات وإجــراءات واتــصالات وتصريحات ، كلها تسير فى اتجاه واحد يؤكد على معاقبة شــعب عربــى أن اختار بإرادته الحرة حكومة شرعية بتحديد من يمثلونــه فــى إدارة الــبلاد ، تلخصت كلها فى هدف واحد وهو ضرورة التفشيل وزرع العقبــات ، وكــان أبشعها من حيث لا إنسانيته هو " التجويع " .

وتسأل ساعتها ، ألم تكن حكومة حماس شرعية ؟

فلماذا لم يرتفع صوت عربى يطالب بالمحافظة على الشرعية ، ويتنــادى ولو عدد من الحكام للاجتماع للتفكير فى كيفيــة المحافظــة علــى الــشرعية الفلسطينية بإنجاح اختيار الفلسطينيين لحماس ؟

لا غموض فى الموقف ، إذ تستطيع أن تصل ، وبسرعة ، إلــى معرفــة الأسباب ، أولها ، أن المساهمة فى إنجاح الاختيار الفلسطينى فيه تعرية لموقف هؤلاء الحكام ، حيث لم يتوافر لهم مثل هذه الشرعية ، وإن كان بعــضهم قــد زرع الصناديق فى طول البلاد وعرضها ، وساق الناس جماعات لاختيارهم .

ومن الأسباب أيضا أن حماس ذات طابع إسلامى ، والنزعـة الإسـلامية أصبحت مكروهة من الحكام خاصة ، لا لأن هـؤلاء وهـؤلاء مـن بعـض الجماعات قد ارتكبوا عنفا وإرهابا حقيقيا ، وإلا فكثير من المجتمعات البـشرية عبر القرون المختلفة لا تخلو من عنف وإرهاب فى صور مختلفة ، حتى منـذ أيام قابيل وهابيل ، ولكن لأن النزعة الإسلامية تأبى الذيلية للقوى المهيمنـة ، وهى التى تحمل راية المقاومة لقوى الهيمنة ، وراية المحافظة علـى الذاتيـة العربية الإسلامية ، وهى العدو الجديد الذى توهمه الأسياد فى الغـرب عامـة وأمريكا خاصة .

لقد اختار الراحل ياسر عرفات أن يصدقهم ويسير فى ركابهم بهذا الاتفاق المشئوم " أوسلو " عام ١٩٩٣ ، فماذا حصد طوال فترة حياته ؟ لا شئ ...بل لقد حاصروه وجوعوه ، وفى النهاية قتلوه بالسم ، فأين كان الحكـام العـرب المتباكين على الشرعية الفلسطينية مما كان يجرى لعرفات ، بعد أن اكتـشف الرجل الخديعة فبدأ منذ عام ٢٠٠٠ يمارس شيئا من المقاومة للسياسة الأمريكية والإسرائيلية فكان ما كان من حصار وتجويع ، ثم تسميم !

ولو قارنت الصور التى كانت تلتقط لمقر عرفات فى شهوره الأخيـرة ، وكيف كان ينطق بالمسكنة والغُلب ، بما تعكسه الصور اليـوم لمقـر الخليفـة عباس ، فسوف تعرف الكثير ، لأن هذه مظاهر الأبهة ، والنعيم الكثير ، تشير لك إلى الشرعية الحقيقية ...من يمتصون دماء الشعب الفلسطينى ويـسرقون أمواله ويرشدون الإسرائيليين إلى زعماء مقاومته فيغتالوهم !

لقد استمعت عدة مرات لبعض الزعماء الفلسطينيين ، مثل هانى الحسن ، على الجزيرة ، وأحمد جبريل ، على الجزيرة أيضا ، فإذا بالصدمة تلو الأخرى تفزع مثلى ممن لا دراية لهم بما وراء الستار وخلف الكواليس ، كأن يكـشف جبريل عن جلسة غداء بين محمد دحلان ، رجل أمريكا وإسرائيل الحقيقى على الأرض المحتلة ، وبين " موفاز " فى أحد مطاعم لندن ، ولا يكتفى بهذا ، بـل

يؤكد أن زعماء فلسطينيين من فتح ، وخاصة من أصحاب الأجهزة الأمنيـة ، دائمي السهر في ملاهي تل أبيب وغيرها من المدن الإسرائيلية !!

ويكشف غير هؤلاء عن خطة كانت جاهزة يقودها محمد دحلان للإجهاز على حماس ، كان لابد أن تسبقها محاولات تلو محاولات لاستفزاز رجال حماس ، وإغراقهم في التنازع المستمر .

وفي الوقت الذي كان ألوف الفلسطينيين لا يجدون مرتبا يقتاتون به ويربون أولادهم ، من شدة الحصار ، كانت الأموال تتدفق على مـا يسمى بحرس الرئيس (عباس) ، وكأنه جيش خاص لا لمحاربة إسرائيل ومقاومة احتلال ولكن لمقاومة الشعب الفلسطيني وممثلي الشعب الفلسطيني ، فمن الذي يمثل الشرعية الفلسطينية ؟

وكان الجنرال " دايتون " الأمريكي هو المحرك والمشرف على تحريك الأمور بحيث تفشل حماس ، ليرى الفلسطينيون أن حماس غير قـادرة على إدارة وطنهم ، وعاجزة عن أن توفر لهم لقمة العيش ، حتى إذا جرى ما جرى ، وانتهز عباس الفرصة ليقيل حماس ويعين وزارة أخرى ، إذا بعشرات الملايين من الدولارات تتدفق على ما يسمى سلطة !!

وإذا كان محمود عباس ، الذي يلقى المديح والترحيب مـن قبل العدو الصهيوني – دون أن يعطوه شيئا أبدا يخص أماني الشعب الفلسطيني – رئيسا شرعيا ، أليست حكومة حماس هي أيضا حكومة شرعية ، فكيف تنقلب الثانية على الشرعية ؟

طرفان نقول عنهم شرعيان : السلطة ، والحكومة ، فإذا انقلبت الحكومة على السلطة قيل أن هذا انقلاب على الشرعية ، فلماذا لا يسمى انقلاب السلطة على الحكومة أيضا انقلابا على الشرعية ؟

بل إننا لنضرب كفا بكف على هذا المصطلح المضحك العجيب " السلطة " ، فأنا لا أدري حقا كيف يقبل هؤلاء أن يسموا ما لديهم سلطة ، ولا أحد مـنهم

يستطيع أن يعبر حاجزا إلا بإذن إسرائيلى ؟ كيف تسمى هذه سلطة ، وبإمكان أصغر ضابط إسرائيلى على أى معبر أن يوقف هذا الذى يسمى " الرئيس الفلسطينى " الذى يقضى معظم أيامه فى زيارات خارجية ينعم فيها بما يحصل ، وشعبه يجوع ولا يجد ألاف منهم أحيانا رغيف خبز يسدون به رمقهم ؟

ثم تتضح اللعبة القذرة عندما يتصدر هذا الذى يسمى رئيسا قرارا بمنع " المليشيات المسلحة " والتى يعرف القاصى والدانى أن المقصود بها جماعات المقاومة ، لكنه لا يملك الحد الأدنى من الجرأة والشجاعة التى تجعله يقولها صريحا بأنه أصبح ضد المقاومة ، لأن الجميع من الفلسطينيين ومن العرب سوف يسألونه : هل يعنى ذلك أن الفلسطينيين قد حصلوا على حقهم فى الضفة الغربية وقطاع غزة ؟

هؤلاء فتية آمنوا بربهم فزادهم هدى ، وهؤلاء عصبة كفروا بشعبهم فزادهم الله ضلالا !

ويل للمطففين* ..!

في إحدى سور القرآن الكريم ، بالجزء الثلاثين ، نجد سورة باسم (المطففين) ، والمطفف هو الذى يغش في الميزان ، كأن يعطيك الكم من الخضار أو الفاكهة – مثلا – على أنه يساوى ثلاثة كيلو ، بينما هو في الحقيقة أقل من ذلك .

وقد توعد الله سبحانه وتعالى هذا الصنف من الناس بالويل ، خاصة أنهم عندما تكون عملية الوزن خاصة بهم نجدهم يلتزمون ما يقول به الميزان ، لكنهم على العكس من ذلك إذا وزنوا للغير ، حيث يغشون فينقصون الميزان والمكيال ، يقول تعالى (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)) .

فإذا ما حكمنا القاعدة القائلة بخصوص اللفظ وعموم الدلالة ، فإننا يمكن أن نتجاوز مسألة الكيل والميزان ونتجه إلى آفاق أخرى ، فما الكيل والميزان إلا " معايير " نحتكم إليها فيحصل كل فرد على حقه ويأمن ألا يبخسه هذا الحق أحد .

وهكذا عرف الإنسان ما يسمى " بالمعايير الاجتماعية " ، فهذا يصح ، وذاك لا يصح ، وتلك فضيلة ، وهذه رذيلة ، إلى غير هذا وذاك مما هو متعارف بين الناس .

وما القوانين التي نشرعها إلا " معايير " لضبط التعامل بين الناس في مختلف المجالات .

ويوم تهتز هذه المعايير وتضعف أو تضطرب ، ويختلط الحابل بالنابل فيها ، أو تنقلب رأسا على عقب فيصبح الباطل حقا والحق باطلا ، فهنا يصيب

---

* نشر بجريدة المصريون ، في ٢٠٠٧/٨/٨

الإنسان شر عظيم • وانظر ذلك في مجال السياسة الدولية عندما تتعامل القوى المهيمنة وأذنابها مع قوى المقاومة والتحرير على اعتبار أنها قوى إرهابية •

قل ما شئت من اهتزازات في السياسة ، أو في الاقتصاد نشعر بها جميعا وتؤرق حياتنا ونتحدث عنها ليل نهار ، لكن تظل البنية الاجتماعية والثقافية – في رأينا – لا تقل خطورة ، إن لم تزد ، فإذا أصابها خلل ، تسرب هذا الخلل إلى البنى السياسية والاقتصادية • وهناك من يقولون العكس من ذلك ، بأن الخلل في البنى السياسة والاقتصادية هو الذى يسبب الخلل في البنى الاجتماعية والثقافية ، ونحن لا نقصد الدخول في مثل هذا الجدل ، على الرغم من أهميته ، وإنما نقتصر على هذا الجانب الاجتماعى والثقافى ، سواء كان نتيجة أو سببا •

لعل كثيرين منا يذكرون كيف نسمع أو نقرأ أحيانا عن بعض الحوادث ، عندما نفاجأ بأن أحد الكبارى قد انهار ، أو أن أحدها ، بعد أن صرفت عليه ملايين الجنيهات (مثل طريق المحور بين القاهرة ، وطريق الإسكندرية الصحراوى) يعودون بعد فترة وجيزة لعمل إصلاحات كبيرة فيه • وقد نسمع أو نقرأ عن أن مبنى عمارة حديث قد انهار على سكانه •

من السهل علينا في مثل هذه الأحوال أن نقول أن هناك " معايير " و " مواصفات " مفروض أن تتوافر في هذه المنشأة أو تلك ، لكنها لم تؤخذ بعين الاعتبار ، فكان من الطبيعى أن يحدث الانهيار ونفقد الكثير من الأرواح والأموال •

إن هذه الصور من الخسارة جسيم من غير شك ، وخطير بالتأكيد ، لكن ربما ما يفوقه خطرا حقا أن نخطئ في الأخذ بعين الاعتبار في بناء نظام ، أو بناء إنسان ، ثم لا يساورنا القلق والاهتمام ، ربما لأن الكثير من الخسائر هنا تكون غير منظورة ، وربما تكون متدرجة ، وممتدة ، كما يحدث في بناء الشخصيات والإهمال في تربية الأبناء •

وفى يقينى أن مصر تعيش منذ سنوات ، كثـرت أو قلـت ، حالـة مـن التشققات والشروخ والتصدعات التي تفقدنا الحاضر ، وتنثر الأشواك والأحجار على طريق المستقبل .

وابدأ من أعلى السلم ...

في عام ١٩٥٢ ، قامت ثورة الجيش المعروفة ، وأصبح ، بعـد فتـرة ، جمال عبد الناصر رئيسا لمصر ، مما يعنى أن الرجل جاء إلى الحكم " بالقوة " ، وعلى ظهر دبابة ، لكن الأيام والسنين التالية أضفت على حكمه الـشرعية ، بما اتخذ من قرارات وأنجز من منجزات ، حتى علـى الـرغم مـن النهايـة المأساوية التي شهدناها في عام ١٩٦٧ .

لكننا نعرف بعد ذلك أن عبد الناصر كان مسافرا لمؤتمر خـارجى عـام ١٩٦٩، فأسرع بتنصيب نائب له على مصر ، ألا وهو أنور السادات ، وقيـل أن هذا كان إجراء مؤقتا ، فإذا بالقدر يلعب دوره فيموت عبد الناصـر ، وإذا بهذا الذى تولى موقع النيابة صدفة يصبح هو رئيس البلاد ، وإن كان الرجـل كذلك قد أضفى على تبوؤه السلطة شرعية بما قام به في حرب أكتوبر ١٩٧٣

ثم إذا به هو أيضا يختار أحد قادة القوات المسلحة نائبا له صدفة ، ويُقتَل الرئيس ليصبح النائب هو الرئيس ...هكذا أيضا بالصدفة .

فكأننا بناء على هذا نُحكم لا وفقا لقواعد ومعايير وإجراءات شرعية حقيقية لتولى الحكم ، وهى تتمثل في نظامين معروفين : التوارث ، كما نرى في النظم الملكية ، أو الانتخابات ، كما في النظم الجمهورية ، ولا تـزعم أننـا نـشهد انتخابات رئاسية ، فأنا وأنت نعلم يقينا ما الذى يجرى ، وما الذى يدبر بالضبط ، فلا يكون تولى السلطة ملكيا أو جمهوريا ، أى يفتقد المعـايير ، والمـوازين والمكاييل ، لنصبح محكومين من قبل " مطففين " ، توعدهم المولى بقوله " ويل للمطففين " !!

ونتيجة طبيعية لذلك ، تجد الأمر نفسه يحدث على المستوى الوزارى ، حيث نستيقظ يوما فنجد الصحف والإذاعة والتلفزيون ينبئوننا بتولى فلان أو علان رئاسة الوزراء ، دون أن يعرف أحد على أى أساس تم هذا الاختيار ؟ هل كان بالفعل ممن مارسوا العمل السياسى وقتا طويلا ؟ فالأرجح ألا يكون كذلك ، وكأن المعيار ألا يكون ذا خبرة سياسية سابقة .

ويتوالى غياب المعايير في مفاجأتنا بتولى س أو ص أمر هذه الوزارة أو تلك ، بل أحيانا ما نسمع أن المقصود أن يكون فلان وزيرا لوزارة كذا ، فإذا به يتولى وزارة أخرى ، وأحيانا ما يكون المقصود شخصا معينا ، فإذا بآخر هو الذى يتم تعيينه لخطأ في الإجراءات أو تشابه في الأسماء ، وكأن المسألة لا تعدو أن تكون تعيين غفير على موقع بسيط في عزبة أو قرية صغيرة ، لا شخصية قيادية في حكم بلد بحجم مصر !!

وفى جامعاتنا ، كان هناك بصيص من الممارسة الديمقراطية عندما كان يتاح لأعضاء هيئة التدريس في كل كلية أن يختاروا عميدا لهم ، فإذا بغير المأسوف عليه حسين بهاء الدين يلغى هذا البصيص من النور عام ١٩٩٤ ليصبح اختيار العميد من حق السلطة الأعلى ،وهكذا عندما تنتهى فترة العمادة لهذا أو ذاك تجد صراعا كصراع الوحوش على الموقع ، ولا تستخدم فيه أبدا معايير الكفاءة والمعرفة والعلم والابتكار والثقافة ، وإنما وفقا لعلاقة هذا وذاك ببعض أصحاب السلطة والنفوذ ، وبمن كان آخر من اقترب من أذن المسئول في هذه الجامعة أو تلك . وعندما يتم التعيين ، لا تستطيع أن تسأل نفسك أبدا : أى المعايير تم الاستناد إليها عند هذا التعيين ؟

منذ فترة كنا في اجتماع يرأسه شخص معروف ، وجاءت سيرة تعيين عميدة لإحدى الكليات ، فإذا بهذا الشخص المعروف يسأل : زوجة من هذه ؟

كلنا بغير استثناء ضحكنا ، فالمعنى المقصود وصلنا بسرعة ، وهو يتضمن معيارا مهما لنظامنا في تعيين الإناث في مواقع قيادية !

وانظر إلى نتائج الامتحانات عندنا وخاصة في هذه الشهادة النكبة ، ألا وهى الثانوية العامة ، فالامتحان هنا هو المعيار ، ويطول بنا الحديث لو حاولنا أن نبرهن لك على أنه معيار فاسد إلى أقصى حد يمكن تصوره ، فلا الذين حصلوا على ما فوق التسعينات متفوقون تفوقا حقيقيا ، ولا الذين قلوا عن ذلك يعدون ضعاف القدرة على مواصلة التعليم ، لأننا لا نملك من المعايير أصحها وأسلمها لنحكم على مقدار أهلية التلاميذ .

بل إن مكتب التنسيق نفسه هو أكبر إعلان على فشلنا عبر أكثر من نصف قرن عن أن نحتكم إلى معايير صحيحة وعلمية في الحكم على من يستحقون أن يواصلوا تعليمهم العالى ومن لا يستحقون ، ذلك أن شخصية الطالب ، مثل أى شخصية ، لها جوانبها العقلية والجسمية والعصبية والاجتماعية والثقافية والنفسية والانفعالية التي تحتاج إلى معرفة وقياس بحيث يجئ حكمنا كليا وشاملا ودقيقا ، لكننا نعجز عن الحكم الموضوعى على الكثرة الغالبة من هذه الجوانب ، ولا نجد إلا جانب التحصيل المعرفى الذى يقيسه امتحان تقليدى يفتقد معظم الشروط التربوية والعلمية ، فيجيء حكمنا غير صحيح ، ونبنى عليه كذا وكذا مما لا يعد ولا يحصى .

ولو تساءلنا : وأين قياس الجوانب المهارية والوجدانية والاجتماعية والثقافية وما شابه ؟ قيل أن قياس هذه الجوانب يستحيل أن يتم " موضوعيا " ، وأن " الواسطة " من المؤكد أن يكون لها الدور الأساسى ، فلا نفكر وندرس ونبحث : لم يصعب هذا ، ونسعى إلى علاجه ، ولكن نستسلم إلى الحالة المَرَضية الثقافية والاجتماعية ، وبالتالى نسهم في مزيد من سوء البناء لا لفرد ولا لمبنى وإنما لأجيال وأجيال عبر عقود من السنين !!

وتستطيع أن تضع أمامك قائمة طويلة من المواقع متسائلا السؤال نفسه : وفق أى معايير ؟ ووفق أى شروط ومواصفات تم ويتم اختيار رئيس الجامعة

هذا أو ذاك ، وتم ويتم اختيار نائب رئيس الجامعة هذا أو ذاك ؟ ولماذا تم اختيار فلان رئيسا لمؤسسة قومية صحفية كبرى ؟

لا تجد إجابة عقلية موضوعية علمية ...إنها معايير " أمنية " بالدرجة الأولى ، فضلا عن العلاقات الخاصة ، والمنافع المنتظرة ، والضغوط المتوقعة أو الحادثة .

فإذا ما سار نظام في قياداته ومفاصله الرئيسية وفقا للامعايير ، فلابد أن يفتقد المجتمع المعايير في تعاملاته وقيمه وسلوكيات أفراده ، ونعيش حالة مماثلة لتلك التي كان يراها " السوفسطائيون " في المجتمع الأثينى القديم ، وهى أن الإنسان (الفرد) مقياس كل شئ ، ما يوجد ، وما لا يوجد ، ويسود منطق " اللى تغلبه العب به " ، فيكون هناك " اغتراب " نفسى واجتماعى مدمر يتسلل إلى الخلايا المجتمعية فيصيب الجسم الاجتماعى بما يصعب تصوره من أمراض ، فيصير المجتمع في حالة من " الوهن " التي لابد أن تؤدى به – عموما – إلى حالة " هوان " ، حتى على المستوى الفردى .

النقد المحرم*

من أعاجيب الحياة الغربية حقا هذه المفارقة الصارخة فى مجال النقد ، فمن المعروف أن الحضارة الغربية تفخر – ولها حق فى ذلك – بأن ساحة النقد والمساءلة مفتوحة على مصراعيها ، لا يملك أحد أن يفلت منها حتى ولو كان أكبر رأس فى البلاد ، بل إن حرية النقد أحيانا ما تتجاوز الحدود فلا يعترضون على من يصرح بعدم إيمانه بالله وينتقد فكرة الدين من أساسها وينتقد الأديان السماوية جميعها .

أما وجه المفارقة حقا فهو ذلك التحريم لنقد يوجه إلى الصهيونية وإسرائيل ، وخاصة إذا كان هذا النقد يطول ما يقال بأن النازية فى عهد هتلر قد أصابتهم بمذابح ومحارق وحشية ، فقد أصبحت هذه الأخيرة حقيقة تفوق – والعياذ بالله – حقيقة وجود الله ، إلى الدرجة التى لو اقترب واحد من هذه المنطقة وحاول أن يقلل أو يشكك فى المحرقة ، ناله الأذى البالغ والحرب الضارية .

ولو فرض وسلمنا بأن لهم ولو بعض الحق فيما يتصل بالمحرقة ، لكن المهم أنهم يتخذونها سيفا يصلتونه على كل من تسول له نفسه أن يوجه نقدا واضحا للوحشية الإسرائيلية وللسياسة الصهيونية ، وهناك أمثلة كثيرة ، يكفى أن نشير منها إلى ما فعلوه بالمستشار السابق فالدهايم الذى شغل وظيفة الأمين العام للأمم المتحدة وكان موضع تقدير واحترام ، ثم شغل منصب مستشار النمسا (١٩٨٦-١٩٩٢)، حتى إذا جاء من المواقف ما يجعله يبدو أقل حماسا وتأييدا للسياسة الإسرائيلية ، إذا بهم يقلبون الدفاتر القديمة ويكشفون أنه كان ضابطا فى الجيش زمن هتلر وأنه شارك فى موجة المعاداة للسامية ويهيلون على النمسا !

---

* جريدة آفاق عربية فى ٢٠٠١/٥/٣

ولعل الموقف الذى حدث فى النمسا أيضا مؤخرا لهو برهان آخر على ما نقول ..

والحكاية أن " أريل موزيكانت " رئيس المجمع اليهودى النمساوى اتهم الحكومة النمساوية بأنها تسعى إلى تصفية اليهود فى النمسا ، والسبب الذى دفعه إلى القول بهذا هو أن هذه الحكومة رفضت تسديد تعويضات للجالية اليهودية إضافة إلى التعويضات المقررة سابقا بموجب الاتفاقات الدولية للتعويض عن ضحايا النازية ، ويذكر أن النمسا قد تعهدت بدفع تعويضات بقيمة ٤٣٦ مليون يورو للأشغال الشاقة ، و٥٣٠ مليون يورو للممتلكات المسروقة من اليهود ، (ولا يفكر أحد فى تعويض مئات الآلاف من الفلسطينيين الذين طردوا منم ديارهم ومزارعهم ومتاجرهم ، بل ودمرت آلاف البيوت وجرفت مساحات شاسعة من الأراضى ، فضلا على آلاف القتلى والمسجونين والمشوهين نتيجة الحروب والتعذيب !) .

و" ليه وليه " جرؤ زعيم مثل هايدر على انتقاد موزيكانت رئيس المجمع اليهودى على اتهامه للحكومة النمساوية بمحاولة تصفية اليهود . المشكلة أن هايدر ساق نقده فى صورة كاريكاتورية مازحة ، فاستغل أن اسم رئيس المجمع حيث يبدأ ب " أريل " ، وهو اسم مشابه لمسحوق الغسيل الشهير، فقال : " لا أفهم كيف تكون يدا شخص يدعى أريل قذرتين إلى هذا الحد " !

ولما انتقد هايدر فى هذا ، واتهم بأن تصريحه يعتبر معاديا للسامية ، رد بأن الذى قاله إنما هو " مزحة " (هزار) . أما بخصوص اتهام أريل للحكومة النمساوية فقد صرح هايدر : " لن أسمح بأن أمنع من انتقاد ممثل عن طائفة دينية فى حال أعلن الحرب على حكومة انتخبت ديموقراطيا " .ولا يقف هايدر عند هذا الحد بل يتساءل : " أين الحدود بين انتقادات مجازة لعضو من الجالية اليهودية وانتقادات توصف بأنها معادية للسامية "؟ ثم : " من يعطى نفسه حق تحديد ما هو مسموح وما هو غير مسموح ؟ " إنهم اليهود يا سيدى !

عندما تصبح العقلانية تهمة* !

كان الحديث فى قاعة تدريس لطلاب ماجستير ، ودار فى جزء منه حول رأى لباحث كبير فى كتاب ابن سحنون عن (آداب المعلمين) ، ينقد اتجاه أهل السنة فى التربية الإسلامية على أساس أنهم لا يشجعون على "الرأى" فهم أكثر ميلا إلى الالتزام بالنص ، ولا يميلون إلى استخدام القياس ، لأنه يعتمد على العقل ، وإعمال العقل أمر غير مستحب ، ثم عقبت على هذا بأننى لا أتصور الإسلام إلا محتفيا بالعقل ، وأن المسائل التربوية فى معظمها مما يخضع لتقلبات الزمان والمكان ، فهى ليست مما يخضع للحل والحرمة .

وكان حاضرا اللقاء أحد الأساتذة الأفاضل من أساتذة العلوم الشرعية ، فلما وقف مبديا رأيه وجه أصابع الاتهام إلى " العقلانية " على أساس أنها مما ابتلى به المسلمون ، بدءا من المعتزلة ، وأن العقل محدود ليس له أن يكون حكما فى المسائل الدينية ، وأن العقل لا يُحَسن ولا يُقَبح ، وإنما هو الشرع الذى يحسن ويقبح . وأحسست أن هناك لبسا يمكن أن يصيب تفكير الطلاب بضرر كبير ، وأن هذا اللبس يكمن فى مفهوم العقلانية ومدى إعمال العقل ومجاله ، فكان من الضرورى أن أعقب على التعقيب .

وقد تذكرت فى تلك اللحظة ما نال الدكتور محمد عمارة من هجوم من بعض الإسلاميين لأن الرجل يعتد بالعقل كثيرا – فى مجاله . بل إن الأستاذ المعقب عندما ساق أمثلة لبعض من يستحقون النقد لميلهم إلى العقلانية ، هو نفسه الدكتور محمد عمارة .

---

*كان ذلك فى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة اليرموك ، عام ٢٠٠٠ ، حيث كنت أستاذا زائرا ، ولا أتذكر مع الأسف الشديد متى ولا أين نشر المقال .

كان مما قلت أن العقل أداة لم يخلقها الله عز وجل عبثا وإنما لتوظيفها فـــى مجمل حياة الإنسان ، ولا أريد أن أطيل فى بيان قيمة العقل وإعمالـــه ، فهـــذا الكلام فيه كثير ومبسوط فى مئات الكتب والبحوث ، لكن الأمر فى كل أداة أن لها مجالا إذا استخدمت فيه تصبح فعالة ناجحة ، فإذا خرجت عنـــه لـــم تنفـــع وربما أضرت ، فهذه النظارة التى ألبسها على سبيل المثال وظيفتها أن تعيننى على القراءة ، لكننى لو توهمت إمكان أن أرى بها الميكروبات ، فإذا لم أرهـــا ظننت أن ما أفحصه سليم ، فإن هذا يكون وهما منى لأن لرؤية الميكروبـــات أداة أخرى ، وهكذا الشأن بالنسبة لأى أداة من الأدوات .

كذلك الشأن فى العقل ، هو أداة كشف ومعرفة وبيان وتفكير فى " الشئون الدنيوية " ، أو قل ، فى عالم "الشهود" ... هذا مجاله ، لكن عالم " الغيب " له وسيلته المناسبة له ألا وهى " الوحى " ، ومن ثم فإعمال العقل فى المسائل التى تدخل فى عالم الغيب عبث لا طائل منه ، إلا إذا كان هذا الإعمال على ســـبيل طلب الفهم ، والاستنباط مما يخبر عنه الوحى ، وكيفية إنزالـــه علـــى عـــالم التطبيق ، والنظر فى المستجدات وما يلائمها من الأحكام ، فهو إذن ليس له أن يكون " حكما " فى مسائل عالم الغيب ، لكنه بالضرورة حَكَم ضرورى فى كل ما يتصل بحياتنا الدنيا ...بما لا يتعارض مع الشرع ، فى كافـــة المجـــالات العلمية مما يندرج تحت العلوم الطبيعية والكيميائيـــة والرياضـــية والإنـــسانية والاجتماعية ، فى عالم التجارة والصناعة والزراعة ..وهكذا .

وبالتالى فقد كان علىّ أن ألح على الطلاب بأن يُعملوا عقولهم دائما فى كل ما يعرض لهم من غير ما نقل إلينا عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا مهم للغاية ، لأن هناك من أنصار التوجه الدينى من استغلوا الفهـــم الخاطئ للعقلانية لدى بعض المتدينين فرموا التفكير الدينى بأنه معاد للعقـــل ، وبالتالى فهو ضد التقدم ، وهو ضد الديموقراطية ، بل ولقد استغل نفـــر مـــن الحكام هذا فحاربوا النزعة النقدية فى التفكير لأن الناس لو تعودوا علـــى هـــذا

فسوف يكتشفون ما يقع عليهم من ظلم ، وسوف يعون أن من يحكمونهم إنما هم مستغلون جلادون يستحقون المقاومة والمعارضة .

إن جزءا كبيرا من أسباب تخلفنا هو أن العقل مغيب بكل الأسف وبكل الأسى ، ولا سبيل إلى نفض غبار التخلف إلا إذا كانت هناك يقظة عقلية ، ومن العبث أن يوضع العقل فى مقابل الشرع ، فإذا بنا نعود لمناقشتها ، فإعمال العقل ، إذا صدقت النية وصفا القلب لابد أن يؤدى بالإنسان إلى الإيمان ، ورحم الله ذلك البدوى الذى اعتمد على الفطرة الخالصة فقال مستخدما القياس العقلى دون معرفة ودراسة له " البعرة تدل على البعير ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير " ؟

تصحيح الذاكرة أم تزويرها ؟

أثار مؤتمر رُتب لعقده فى بيروت فى الفترة من أواخر مارس إلى أوائل أبريل من هذا العام ٢٠٠١ نقاشا حادا بين عدد من الكتاب والمثقفين ، والمؤتمر كان بعنوان " التعديلية والصهيونية " أو " مراجعة التاريخ والصهيونية " ، كان الهدف منه هو التشكيك فى المحرقة النازية لليهود " الهولوكوست " ، وهى القضية نفسها التى دار حولها كتاب روجيه جارودى الشهير (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) والتى تمت بسببه محاكمته ، بينما سعد الكثيرون فى العالمين العربى والإسلامى بهذا الكتاب وروجوه فى مختلف دول المنطقة بعد ترجمته .

لكن المثير للدهشة حقا هو هذا الاستنكار الذى أبداه البعض من فكرة مثل هذا المؤتمر ، وفكرة كتاب جارودى ، فأصحاب هذا الاستنكار ينظرون إلى هذا الجهد النافى أو المقلل من الهولوكوست باعتباره يصب فى مصلحة النزعة النازية العنصرية وتبرئتها من جرائمها ، ودمغت الجهات الدافعة لعقده بأنها "تحريفية " وأنها " قريبة من النازية الجديدة " ، وأن المفروض ألا يدفعنا الظلم الذى لاقيناه ، وما زلنا نلاقيه من الصهيونية أن نبرئ من ظلموا اليهود وأقاموا لهم المذابح ، وأن هذا الذى تدعو له مثل هذه التنظيمات ، وفكرة هذا المؤتمر يتناقضان تناقضا جوهريا مع مجموعة من القيم الحيوية التى ينبغى أن يتسلح بها العرب فى معركتهم ضد الصهيونية ، وأن هذا التضامن الذى أخذ شكلا هستيريا (هكذا) مع كتاب جارودى إنما يعبر عن هشاشة فى الوعى العربى لأنها تجرنا إلى مدرسة " قتلة الذاكرة " – هكذا – ، فضلا على الجهل المطبق (!) ، وهذا ما عكسه بيان وقعه ١٤ شخصا من المثقفين العرب ، نذكر منهم على سبيل المثال : محمود درويش وإدوارد سعيد وأدونيس ومحمد برادة وفاروق ميردم بيك وجمال الدين بن شيخ وإلياس صنبر وآخرون .

ومما يذكر أن هناك من أكد على أن إيران هى التى وقفت وراء عقد هذا المؤتمر وذلك بتمويله ، مستخدمة فى ذلك غطاء يتمثل فى حـزب الله بلبنـان ومستندة فى هذا إلى بعض الاتصالات لدى جهات لبنانية وسورية لتسهيل عقد المؤتمر ، وهذا فى حد ذاته دفع البعض إلى التشكيك فى المؤتمر متسائلين : إذا كانت إيران تهتم بهذه القضية إلى هذا الحد ، فلم لم تعقده بداخلها ؟

بل لقد نقلت بعض التقارير الصحفية أن رئيس الوزراء اللبنانى نفسه طرح مثل هذا التساؤل .

ودفع هذا جهات أوربية وأمريكية إلى القيام بجهود متعددة فى محاولة لمنع عقد هذا المؤتمر ، حتى ولو كان هذا عن طريق التهديد بأن العلاقات الأمريكية اللبنانية يمكن أن يصيبها الضرر فى حال عقد المؤتمر ، وأن هنـاك جهـات عربية – أيضا بنصيحة أوربية وأمريكية – حذرت من أن المؤتمر يمكـن أن يشكل فرصة لجهات يهودية بأن تشن هجوما مضادا على الساحة الدولية ضـد لبنان واتهامه بأنه يشجع شخصيات وهيئات ونزعات نازية عنـصرية . بـل واتصلت جهات أمريكية بمسئولين سوريين على الطريق نفسه ، ومع الأسـف الشديد فقد نجحت هذه الجهود ، ولم يعقد المؤتمر .

ومما يذكر أن " دينامو " المؤتمر ، والمحرك الأساسى لعقده ، كان شخصا يدعى " يورجان جراف " المسؤول عن جمعية اسمها " الحق والعدالة " ، والتى أقيمت أصلا فى سويسرا ، لكن هذا الرجل هرب من سويسرا إلى إيران التـى أقام فيها ، بعدما حكم عليه بالسجن خمسة عشر شهرا ، بتهمة إنكار المحرقـة اليهودية ، والترويج لأفكار نازية ، ومحاولة تبرئة النـازيين زمـن الحـرب العالمية الثانية من تهمة التنكيل والاضطهاد والقتل لآلاف اليهود .وفضلا على ذلك فقد تعاونت منظمة أمريكية كذلك على عقد المؤتمر .

إن المؤسف حقا هو تصوير هذه المحاولات المبذولة لوضع المحرقة النازية لليهود فى حجمها الطبيعى الذى يقل عما يشيع كثيرا للغاية بأنها محاولات لقتل

الذاكرة وتزويرها ، وأن أصحابها " تحريفيون " ٠٠إلى آخر هذه الاتهامات " الكبيرة " والتى تعودنا عليها مع الأسف الشديد لدى تعامل الكتاب العرب بعضهم مع بعض عند تعارض الاتجاهات وتباين الأفكار دون محاولة الوقوف بالمسألة عند حدودها الطبيعية ألا وهى أنها زوايا رؤية واجتهادات مختلفة ، ذلك أن من ينكرون الصورة المبالغ فيها للمحرقة لا يحشرون أنفسهم فى قضية أوربية بحتة ، فمثل هذه المحرقة هى التى يضغط بها الصهاينة على الضمير الأوربى ويقومون بأوسع وأقذر عملية ابتزاز شهدها التاريخ ، حتى أصبحت سلاحا يشهر فى وجه كل غربى تسول له نفسه ألا ينصاع إلى التوجهات الصهيونية أو يظهر ميلا إلى العرب !

ومن حسن الحظ حقا ، أنه على الرغم من فشل عقد المؤتمر لم يعدم أن يكون هناك نفر من أصحاب الوعى العربى الصحيح أدركوا ما حمله هذا الفشل من كشف لحقيقة الأمر ، فأدانوا إفشاله ، ففيما نشرت صحيفة الدستور الأردنية ، أصدرت رابطة الكتاب الأردنيين بيانا أدانت فيه إلغاء المؤتمر ، وجاء فى البيان أن الرابطة تدين الابتزاز السياسى والأخلاقى والثقافى الذى تلجأ إليه الصهيونية العالمية لتبرير إنشاء الدولة الصهيونية فى فلسطين كتعويض عن العذابات التى تعرضوا لها فى الحرب العالمية الثانية بحقه كما يجرى على أرض فلسطين ٠

ومما لفت البيان النظر إليه أن هناك ما قد يصل إلى خمس وأربعين مليونا من البشر قتلوا من جراء هذه الحرب من أجناس متعددة وديانات مختلفة ، ومن بينهم بطبيعة الحال اليهود ، وهو مما يتنافى مع صدور قوانين تحرم المراجعة لنتائج تلك الحرب وما تحملته البشرية من عذاب ومعاناة ٠

وقد اضطر المؤرخون المراجعون الذين أرادوا غطاء عربيا لمؤتمرهم أن يصدروا بيانا يردون فيه على ما ذهب إليه بيان ال ١٤ مثقفا عربيا ينفون عن أنفسهم تهمة النازية ، وقد نوه بيان الرابطة الأردنية ببيان هذا النفر من

المؤرخين المراجعين ، وأكدوا أن ما ورد فيه يستحق التقدير والنظر بعين الاعتبار .

وأكد البيان الأردنى أن الصهيونية مساوية للنازية فى جرائمها فى فلسطين وفى العالم أجمع ، ووجود الكيان الصهيونى جريمة ضد الإنسانية وضد الحق وضد الأمة العربية ، وأن هذا الذى نراه كل يوم من صور بشعة لقمع الشعب الفلسطينى فى فئاته المنتفضة يؤكد هذا ، ومن ثم فإن تحرير العالم من الصهيونية إنما هو فى الحقيقة تحرير له من نازية جديدة حقيقية ، نازية تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية بدءا من الرصاصة التى يقتلون بها الفلسطينيين ، إلى الطائرات والصواريخ ، إلى الإعلام ، إلى المال ، وكل ما يمكن تصوره من صور الدعم .

ومن الجدير بالذكر هنا أن السفير الإسرائيلى فى باريس قد كتب شاكرا هؤلاء المثقفين العرب الذين وقفوا فى وجه عقد المؤتمر ، وفى ذلك علامة واضحة أن عقده كان يصب فى المصلحة العربية ، ويضر بالتوجهات الصهيونية .

إن كثيرين يشاركوننا فى أن ما يوصف بحقائق التاريخ ، أحيانا ما تكشف وقائع جديدة عن خطأ تعميمات بنيت عليها ، مما يؤكد أن البحث المستمر ، والمراجعة الدائمة ، أمران لا محيص عنهما وفقا لما تؤكد النزعة العلمية نفسها ، ولابد أن يثير النهى عن مراجعة هذه المسألة بصفة خاصة (الهولوكست) الريبة فى النفس ، لأن المراجعة المستمرة علامة هامة من علامات المنهج العلمى الذى تفخر به الثقافة الغربية عنوانا لها ، إلا إذا كان الصهاينة يخشون من هذه المراجعة التى ربما تكشف عن غلو مبالغة فيها ، فيسقط الابتزاز المستمر للجيوب والخزائن الغربية ، والتزييف الحادث للذاكرة العالمية ؟!

نحن بين الماضوية والمستقبلية*

فى المحاضرة المتميزة التى ألقاها د٠أحمد زويل يوم الإثنين ١٦ فبراير ٢٠٠٤ وأذاعتها قناة دريم الثانية ، كان من بين ما قاله نقد لما لاحظه من كثرة الحديث عن الماضى ، وندرة الحديث عن المستقبل ، وهو يرى أننا لن نتقدم إلا إذا عكسنا الطريق بحيث يكون كلامنا عن الماضى قليلا ، وكثيرا عن المستقبل ٠

هذه المقولة التى أشار إليها زويل وجيهة من ناحية المبدأ ، لكن من الصعب أن تشكل قاعدة تصدق فى كل زمان ومكان ، فالتعميمات الإنسانية لها سياقاتها الزمنية والمجتمعية التى قد تجعلها صادقة بدرجة عالية فى فترة من الزمن ، بينما لا تكون كذلك فى زمن آخر ، كما أن هناك سياقا ثقافيا يمكن أن تحصل فيه على هذه النسبة العالية من الصدق ، وسياق آخر تقل فيه عن ذلك ٠

فعالمنا العظيم يعيش فى المجتمع الأمريكى ، ودولته (الولايات المتحدة) لم تتجاوز من العمر أكثر من مائتى عام إلا قليلا ، ومن هنا كان طبيعيا ألا يكون من بين مفردات الثقافة الأمريكية وعناصرها " ماض " يمكن التحدث عنه ، والافتخار به ٠ وفضلا عن ذلك فهى (لظروف متعددة يصعب الإشارة إليها هنا ، وهى مبسوطة بوضوح فى كتاب محمد حسنين هيكل عن الإمبراطورية الأمريكية المجمع لمقالاته المطولة فى وجلة وجهات نظر) استطاعت بالفعل أن تتربع على عرش العالم كله وكأنها قد أصبحت هى الحاكمة على الجميع ، وبحكم هذا الموقع ، وذاك الدور كان لها أن تتحسب أكثر من غيرها لاحتمالات المستقبل ٠

لكن السياق المجتمعى والثقافى لأمتنا يختلف إلى حد كبير ٠٠٠

---

* جريدة آفاق عربية فى ٤ ، ٢٠٠٤/٣/١١

فنحن جزء من أمة تعيش اعتداء عليها مستمرا منذ أكثر من قرنين من الزمان ، وزادت وتيرة هذا الاعتداء فى الفترة الحالية بدرجة لم تحدث أبدا لأمة منذ فجر التاريخ ، وأمة هذا شأنها يكون من بين وسائل استدعاء عوامل القوة والمقاومة أن تستعيد موروثها الحضارى ، حيث أن من شأن هذا أن يحفزها على ألا ترضى بما آلت إليه أمورها الآن ٠

ومن ناحية أخرى فنحن جزء من أمة تشرزمت وأصبحت فسيفساء أممية ، واستطاعت قوى الهيمنة والاستغلال أن تعمق من هذا التشرزم وترسخه بحيث وصل إلى درجة الغفلة عن أن الجميع يركبون قاربا واحدا إذا غرق فسوف يغرق كل من فيه وإذا نجا فسوف ينجو كل من فيه ، وتحولوا إلى العكس من ذلك يتربص بعضهم بعضا ويرتضى بعضهم التحالف مع العدو ويصادقه ويفتح أراضيه كى يقفز منها العدو إلى ليدمر ويقتل إخوانا له فى العقيدة وفى الثقافة وفى المصلحة ٠ وأمة هذا شأنها تجد نفسها بحاجة إلى استقراء تاريخها وقت أن كانت ذات بأس شديد ، حيث ترى أن هذا البأس ما كان إلا عندما كانت وحدة وكلا متكاملا ، وأن الانحدار بدأ متمثلا فى حكم الطوائف فى الأندلس والاستعانة بالأجنبى وتجييش العملاء ٠

ونحن أمة ذات عقيدة إسلامية ، وهذه العقيدة قد أصبحت موضع اتهامات مزيفة خطيرة ، ووصل التزييف إلى درجة أن لم تعد مثل هذه الاتهامات قاصرة على قوى القهر والاستغلال وحدها بل أصبح عدد من الحكام فى دولنا الإسلامية يردد مثله بصياغات مختلفة ، بل ويعمل عن طريق ما يملك من سلطة على تحجيم نشاط علمائها ودعاتها ٠ وأمة هذا شأنها تجد نفسها بحاجة أكثر من أى وقت مضى ، إلى أن تعكف على هذه العقيدة ، تعض عليها بالنواجز ، وتجعلها همها المستمر ، ومركز تفكيرها ومدار حياتها ، وهذا بدوره يرتفق مع الاهتمام بالموروث الثقافى الدينى ٠٠٠وهكذا

وهناك أيضا عوامل سياسية ونفسية لا يمكن إغفالها ٠٠٠

فالكثرة الغالبة من المسلمين مغيبون عن صنع القرار ، وصناعة القـرار عملية بطبيعتها تتعلق بالمستقبل ، فلو شئنا على سبيل المثال أن نفكر فيما يجب أن نفعله فى هذا التراجع المفزع للغتنا العربية ، لغة القرآن ، فى التعليم القـائم فى الوطن العربى ، لما يشكله هذا من خطر من حيث الانقطاع بين الأجيـال الجديدة والموروث الثقافى الدينى والفكرى للأمة ، و تصدع ركن أساسى مـن أركان الذاتية الحضارية ، فهذا يحتاج إلـى قـوانين وقـرارات وميزانيـات وسياسات ، وأهل السلطة بعيدون عن ذلك إلى حد كبير ، لأن أغلبهم لم يجيئوا إلى سدة الحكم باختيار الناس وإراداتهم ، وإنما جاءوا بطرق أخـرى متعـددة ليس منها أبدا الاختيار الطوعى الحر من قبل جماهير الناس ، وأمر مثل يجعل تفكير المفكرين والعلماء فى المستقبل مجرد سبحات خيال ، وأحـلام يقظـة ، فيفقد القارئون لها والمستمعون ثقتهم فى جدواها .

وينصرف هذا أيضا إلى حاضر الأمة ، فهو بعيـد عـن يـدها وعقلهـا ومحصور فى يد هذه الأقليات التى تحكم ، تسيره فى الطريق الـذى تريـد ، والويل كل الويل لمن تحدثه نفسه عن طريق آخر ، وما يمكن أن يحـدث لـه معروف للكافة ، والتفكير فى الحاضر ، ودراسة الواقع وتحليله ونقده من شأنه أن يدفع بطبيعته إلى التفكير فى المستقبل ، فلا يكون أمام كثيرين إلا الهـروب إلى الماضى ، ووفقا للمقولة المعروفة بأن الناس على دين ملوكهم ، فإن هـذا النهج تنتقل عدواه إلى كل ذى سلطة ، على كافة المستويات :

أذكر وأنا أفكر أوائل الستينيات فى موضوع رسالتى للدكتوراه أن اقترحت دراسة حركة الفكر التربوى فى مصر القائمة ، فإذا بالمشرف يقترح بأن أرجع إلى الوراء قليلا (فترة الاحتلال البريطانى مثلا) ، لأن دراستى للفترة القائمة فى أوائل الستينيات سيجرنى إلى نقد أساتذتى والعديد من السياسات القائمـة ، وهذا أمر غيرمقبول ، فكان ما كان بالفعل !

ليست هذه دعوة للهروب إلى الماضى ، وإنما هى محاولة تفسير لما لاحظه زويل • وفضلا عن ذلك فإن ما قلناه لا ينبغى أن يجعلنا نغفل عن ممارسات لنا خاطئة ونحن نتعامل مع الماضى ، لا مجال للإفاضة فيها ، ولنا دراسة مفصلة فى ذلك نشرت من قبل فى مجلة المسلم المعاصر ، وغاية ما نستطيع الإشارة إليه أننا نخطئ عندما نتصور أن استقراء الماضى هو تغافل للحاضر وانصراف عن المستقبل ، وإنما يجب أن يكون سعيا لفهم الحاضر ، تمهيدا لرسم مستقبل ، ومن هنا فلا يكون الاستقراء لكل ما هب ودب فى ما مضى ، وإنما لما يمكن أن يكون له دور واضح فى تفسير الحاضر تفسيرا علميا والتحسب للمستقبل • وما لايقل عن ذلك أهمية ، ممارسة استقراء التاريخ بعيون نقدية من الدرجة الأولى •

السيناريو المظلوم* !

تشاء الصدفة وحدها أن أقرأ للصحفى النابه محمد عبد القـدوس تحقيقـا صحفيا ممتازا مع الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله عن مشروع منتدى العالم الثالث (مصر ٢٠٢٠) فى نفس اليوم الذى تسلمت فيـه نـسخة مـن أحـد إصدارات المنتدى فى المشروع ذاته للزميل الفاضل الدكتور فايز مـراد مينـا أستاذ المناهج البارز بتربية عين شمس ، عن التعليم العالى فى مـصر ، فلمـا شرعت فى قراءته ، هالتنى الصورة التى وجدتها خاصة بأحـد سـيناريوهات المستقبل فى مصر ، والسيناريو هو أحد الأساليب المستخدمة فـى الدراسـات المستقبلية ، حيث تتصور عدة احتمالات لما سوف يكون عليه المستقبل ، وكل منها يسمونه " سيناريو " •

والسيناريوهات المحتملة هنا هـى : المرجعـى ، الدولـة الإسـلامية ، الرأسمالية الجديدة ، الاشتراكية الجديدة ، الشعبى •

ولست فى مقام يتيح لى فرصة مناقشة الأسس التى تبنى عليها مثل هـذه السيناريوهات ، فهذا حديث طويل ، لكن ما لفت نظرى هو تلك الصورة التـى يغلب عليها السواد بالنسبة للسيناريو الخاص بالدولة الإسلامية مما يتعـارض كثيرا مع الدراية المحدودة لمثلى بأساسيات العقيدة الإسلامية كما تتبـدى فـى القرآن الكريم والسنة النبوية والتى من المفروض أن تحكم العمل فى الدولة التى تسمى " إسلامية " ، فضلا على مخزون لا بأس به من الثقافة التاريخية توافرت لنا من خلال التخصص مما يتصل بتطور مؤسسات التعلـيم فـى الحـضارة الإسلامية فى مختلف مراحلها •

إننى أحمل الكثير من التقدير والاحترام لأخى العزيز د• فايز ، بغير ما

---

* جريدة آفاق عربية فى ٢٠٠١/٣/٢٩

مجاملة ، فهو من طراز نادر من الباحثين المتميزين الـذين يتـسمون بالدقـة والعمق والجدية ، لكنى أطمع فى أن يتسع صـدره لكلمـاتى الحاليـة ، إذ لا أستطيع أن أخفى دهشتى من هذه الصورة القاتمة للدولة الإسـلامية ، وعلـى سبيل المثال ، فمن حيث الجزئية الخاصة ب" استقلالية وتمويل التعليم العالى " ، يذهب السيناريو إلى أن هذه الدولة تتسم ب : "مركزية شديدة ودعم وسيطرة على المجالس المركزية وتمويل حكومى لمؤسسات التعليم العالى الرسمية مـع إمكان الإنفاق من أموال الزكاة وبعض التبرعات على مشروعات معينـة فـى مجالات معينة " .

أنا لا أدرى حقيقة ، على أى أساس تم وضع هذا التـصور ؟ لـن أحـتكم للنصوص القرآنية والنبوية ، ولكنى أحتكم إلـى الخبـرة التاريخيـة للدولـة الإسلامية ، فالمساجد الكبرى التى مثلت ما يشبه مؤسسات التعليم العالى ، مثل الأزهر ، والقيروان ، والزيتونة ، والمستنصرية ، إذا كانت قد أنشئت من قبل من كانوا فى السلطة ، لكنها من حيث والإدارة والتعليم كانت أمرا خاصا بمـن تولوا مسئوليتها يحددونه ويضعون له القواعد والتنظيمات ، ويرسمون منـاهج التعليم وأساليبه وطرقه وكتبه ، ولم نر خروجا على هذا النهج إلا فى بعـض الفترات التى اعتبرت بصفة عامة " نتوءات " تاريخية ، شذت عن المسار العام لحركة تطور التعليم .

والأكثر من ذلك ، فقد عرفت مؤسسات التعليم العالى ما هو معروف بنظام الوقف ، حيث كان بعض الميسورين من التجار أو علماء الدين أو الحكـام أو كبار رجال الدولة " يوقفون " جزءا من ثروتهم للإنفاق منها على هذه المؤسسة أو تلك ، مما وفر لها " استقلالية " كبيرة ، ومن أوضح الأمثلة علـى ذلـك ، الأزهر ، حتى فى أحلك سنوات تاريخ مصر ، كان الحكام يخـشون علمـاءه ويرهبونهم ، ويلجأ إليهم عامة الناس إذا أحاط بهم مكروه وضاقت بهم السبل ، نظرا لما كان يتمتع به الأزهر من التمويل الذاتى ، وبالتالى الاستقلالية ، والتى

فقدها فى عصور تالية عندما ضمت أوقافه إلى خزانة الدولة ، فأصبح مؤسسة من مؤسساتها يسير وفقا لنهجها ويتوجه وفقا لما تريد •

ولابد أن يكون واضحا منذ البداية أن من المستحيل أن نصادر حق أحد فى اختيار التصور المستقبلى الذى يريد ، وبالتالى فإن مناقشتنا لما جاء فى كتيب الزميل الدكتور فايز مراد عن سيناريوهات المستقبل فى التعليم العالى فى مصر إنما تنطلق من وجهة نظرنا التى تذهب إلى أن التصور المبنى على احتمال قيام الدولة الإسلامية إنما هو تصور لا يتفق مع مقومات مثل هذه الدولة •

فمن ضمن العناصر التى يعرضها زميلنا الكريم ، ذلك العنصر الخاص بالحرية الأكاديمية ، إذ ذكر فيه : " تكون الحرية الأكاديمية فى أسوأ أحوالها بالنظر إلى كثرة المحرمات والسيطرة على الإدارات ومنع قيام تنظيمات مستقلة أعضاء هيئة التدريس " ، وهو تصور مفزع حقا لا أجد من بين يدى من معطيات النصوص القرآنية والنبوية ما يؤيده ، أما بالنسبة لمعطيات التاريخ الحضارى ، فلا أستطيع أن أقول أنها كانت (دائما) فى صف الحرية الأكاديمية ، ذلك أن التاريخ أشبه " بزكيبة " ضخمة تستطيع أن تجد فيها الجواهر الثمينة ، كما تستطيع أن تجد فيها الحجارة ، وهذا ما يتيح للباحث أن " ينتقى " الأمثلة التى تؤيد الوجهة التى يريدها ، وقل من الباحثين من يعرض للأمثلة المؤيدة بجانب الأمثلة النافية ،

من أجل هذا فإننا نجد أبا جعفر المنصور عندما وجد أن موطأ الإمام مالك قد بلغ درجة عالية من الدقة والإحاطة دعاه إلى مقابلته عندما وصل المدينة المنورة أثناء قيامه بتأدية فريضة الحج فى إحدى السنوات ، وقال الخليفة لمالك : إنى قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها فننسخ منها نسخا ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها لا يتعدوها إلى غيرها ، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث ، فإنى رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم ،

ماذا كان رد مالك ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، لا تفعل ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم ، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه وما اختار كل بلد لأنفسهم !!

وهناك عشرات الأمثلة التى تتجه الاتجاه نفسه ، لكننا لا ننكر أن هناك أمثلة أخرى سارت فى اتجاه معاكس ، فما العمل ؟

هنا لابد من الاحتكام إلى " الدستور " الأساسى ، تماما كما يحدث فى أمور حياتنا المختلفة عندما نختلف فى الحكم على الوقائع ، بل والقوانين ، فلا يكون هناك حل إلا بالاحتكام إلى الدستور ، وهو بالنسبة إلى الدولة الإسلامية القرآن الكريم والسنة النبوية ، فإذا ما حاولنا استقراءهما بحثا عن موقفهما من الحرية الأكاديمية ، أو بمعنى أصح عن مضمونها ومقوماتها ومؤشراتها فسوف نحتاج إلى كتاب مستقل ، ويكفى أن أحيل زميلنا العزيز إلى كتاب لنا صدر عام ١٩٨٢ بعنوان " ديموقراطية التربية الإسلامية " ، ففيه بعض التفاصيل الخاصة بمثل هذه الحرية أو ما يقابلها ، ونحن بهذا المنطق إنما نتسق مع القاعدة التى تقول : لا يقاس الحق بالرجال وإنما يقاس الرجال بالحق ، وبالتالى فلا يؤخذ تصرف هذا أو ذاك للحكم على " التوجه " ، وإنما يمكن لنا أن نخطئ هذا أو ذاك إن كان ما يفعلونه لا يتفق مع المصدر الأساسى .

لكننا من ناحية أخرى سوف يقابلنا هنا اختلاف الفهم والتفسير ، وفى رأينا أن هذا نفسه هو دليل حيوية التوجه وقابليته لأن يراه هذا بمنظور ويراه ذاك بمنظور آخر ، ومن ثم فإن قيام " مجمع " كبير للعلماء المتخصصين يجعلنا أقرب ما يمكن إلى الحق ، ما دام الرأى ليس فرديا .

الحق الغائب* !

الحق أقول أنه قلما أنظر فى صفحة الحوادث التى تمتلئ بهـا الـصحف والمجلات ، لكن لفت نظرى عنوان حادث كان منشورا فى صحيفة الأهرام منذ أيام فأخذت أقرأه ، وخلاصته أن نزاعا قام بين أب يبلغ مـن العمـر خمـسا وسبعين عاما وأولاده الثلاثة يتصل برغبتهم فى أخذ مبلغ من المال يستعين به أحدهم فى الحصول على شقة ، ثم إذا بالنزاع ينتهى بأن يقوم الثلاثة مرة واحدة بضرب الأب ضربا مبرحا ، استخدمت فيه عصا وحذاء ، حتى لقـد أحـدث الضرب آثارا مؤسفة جسدية ، فضلا على المعنوية ، مما استدعى نقلـه إلـى المستشفى ، ولما رأت الأم التى تبلغ من العمر خمسا وستين عاما مـا يحـدث لأبيهم اندفعت تحميه منهم ، فإذا بها تنال بعضا مما نال من الضرب المبرح !

كان من الضرورى أن ينتقل الأمر إلى النيابة التى باشـرت التحقيـق ، ووضح أن الأبناء سيحولون إلى المحاكمة وسينالهم عقاب جسيم ، ثم إذا بالأب والأم يفزعان أن ينال الأبناء هذا العقاب الجسيم ، ويطلبان التنازل عن بلاغهما رأفة بأبناء لم يرأفوا بهم ، ويتجلى هنا معنى المثل الشعبى القائل : " أدعى على ابنى وأكره اللى يقول آمين " ! وتضطر النيابة إلى إخلاء سبيلهم وحفظ القضية لأن القانون القائم يرى أن صاحب الحق إذا تنازل عن دعواه تسقط القـضية ، فيما فهمنا من معطيات الموضوع ، وإن كنا لا نفهم فى القانون .

لقد أفزعنى الأمر حقا ، وبانت لى سوأة القانون الوضعى التى تظهر فـى بعض المواقف ، وإذا بى أصرخ فى داخلى : وأيـن حـق الله ؟ وأيـن حـق المجتمع ؟ إن هؤلاء الأبناء الجحودين لم يعتدوا على الأب والأم فقط ، وإنمـا اعتدوا على ركن أساسى من أركان البنية المجتمعية .. الأسرة ، التى يمثلها

---

* جريدة الحقيقة ، فى ٢٠٠١/٤/٧

هنا الوالدان ، تلك الأسرة التى نصفها بأنها الخلية الأولى للمجتمع ، واعتديا على جزء هام من بنية القيم التى هى " الأسمنت " الذى يربط بين أفراد الجماعة والأمة ، فإذا تنازل الوالدان عن حقهما إلا أن المجتمع لا يتنازل عن مثل هذه القضايا ، والبنية القيمية والأخلاقية كذلك تظل معلقة حكمها بالانحراف الأخلاقى الجسيم الذى يستوجب العقاب كأشد ما يكون !

وقبل هذا وذاك ، فأين حق الله عز وجل ؟! إنه القائل فى سورة الإسراء من كتابه العزيز : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)) . النص واضح وصريح ، لا أظن أن هناك مسلما لم يسمع أو يقرأ هاتين الآيتين بصفة خاصة ، والأمر الإلهى مباشر أيضا وواضح وصريح ، وهو يقرن الإحسان إلى الوالدين بعبادته عز وجل ، وكل ما أمر به فى الآيتين قام هؤلاء الأبناء بعكسه تماما ، وإذا كان ربنا عز وجل قد نهانا عن مجرد الضجر منهما ، فما بالنا من يضرب بالعصا وبالحذاء ؟

إنه القانون الذى وضعناه نحن نقلا عن دول أخرى ، ولو كان القانون الإلهى هو الحاكم لاختلفت النهاية بطبيعة الحال !

لقد ذكرنى هذا حقا بالقضية الخاصة بمنطق الأغلبية فى الديموقراطية الغربية ، فحتى لو لم تكن أغلبية مزيفة كما نرى فى المجالس النيابية فى بلداننا العربية ، فماذا لو اتجهت هذه الأغلبية إلى تقرير أمر يناقض ما قضى به الله عز وجل ، كما رأينا منذ فترة فى البرلمان الإنجليزى عندما وافقت الأغلبية على إباحة الشذوذ الجنسى ؟ حق الفرد إذن أم حق الله وحق الأمة ؟ تلك هى القضية !

اللهم احمنى من أصدقائى*

ليس جديدا أن أقول أن الإسلام والمسلمين مستهدفون من قوى البغى العالمية الكبرى ، لا عقب انهيار الاتحاد السوفيتى ومنظومة الدول الاشتراكية فقط وإنما منذ أن بدأت الحروب الصليبية وحتى هذه اللحظة التى نكتب فيها ، واقرءوا ما كتبه شكيب أرسلان فى كتاب (حاضر العالم الإسلامى) منذ عشرات السنين عن قائمة طويلة من مشروعات استعمارية لتخريب وإفساد ما كان قائما من وحدة سياسية للمسلمين قبل أتاتورك .

وليس جديدا أن يعاملنا الغرب بصفة خاصة بمعايير مزدوجة وفقا لقاعدة :

عين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدى المساوئا ...

فيسكتون عن هدم المئات من البشر المسلمين ويفزعون من هدم مسلمين لحجر !

وليس جديدا القول بحاجة الأمة الإسلامية إلى النهوض الحضارى والأخذ بأسباب الاستقواء ...

لكن الجديد الذى يمكن أن نشير إليه هنا هو أننا أيضا سبب من أسباب ما يقع على المسلمين من اضطهاد ، وسبب من أسباب ما يوجه إليهم من اتهامات .. كيف ؟

فنحن لا نحسن حتى الآن التعامل مع سلم الأولويات فإذا بنفر منا يقدمون الجزئيات على الكليات ..

أقول هذا وقد نفذت طالبان مع الأسف الشديد ما سبق أن أعلنته وأصمت أذنيها عما لا حصر له من المناشدات والمطالبات ، لا من قوى العالم كله ولكن حتى من كوكبة من علماء المسلمين ، يكفى أن نشير إلى أن الدكتور يوسف

---

* جريدة الحقيقة ، فى ٢٠٠١/٣/١٧

القرضاوى كان على رأسهم ، فضلا عن مفتى مصر ، والكاتب الكبير فهمى هويدى وغيرهم •

اعتبروا التماثيل مظهرا من مظاهر الشرك ، ولأن المولى عز وجل قال عن الشرك أنه ظلم عظيم ، وأنه يمكن أن يغفر أى ذنب يرتكبه الإنسان إلا أن يشرك بالله ، فكان لابد من تحطيم تماثيل بوذا القائمة هناك !

والسؤال هو : هل هناك فى أفغانستان بوذيون يمكن أن يمارسوا عبادة التماثيل ؟ كلا ••

فهى إذن مجرد أثر تاريخى مضى عليه ما يقرب من ألف وسبعمائة عام ، وليس من حق أحد أن يلغى جزءا من تراث الإنسانية ، وإلا فما الموقف من كافة التماثيل الفرعونية فى مصر ، هل نهدمها خوفا من مظنة الشرك ؟ أى سذاجة هذه ؟ إنها قائمة منذ آلاف السنين ، وما قرأنا ولا سمعنا ، منذ أن عرفت مصر الديانة المسيحية ، ثم الإسلام ، بمن عبد التماثيل الفرعونية ، بل نحن حريصون عليها ونباهى بها الأمم ، ونعكف ويعكف عليها العالم معنا ، باحثين دارسين قيمتها الفنية ودلالاتها التاريخية ، مبهورين بعظمة الصنع الحضارى لإنسان هو نفسه آية من آيات عظمة الله ، ونستقبل ألاف الزوار من أنحاء العالم ليشاهدوها ، ومعظم هؤلاء الزوار من غير المسلمين ، بل إن منهم ملحدون ، فهل سمع أحد أو قرأ عمن توجه منهم إلى الآثار الفرعونية بالتعبد ؟ لقد نضجت البشرية ولم يعد هناك من يظن بها ألوهية•

هل فرغت أفغانستان من محاربة الجهل بين مواطنيها ؟

هل استزرعت أراضيها ؟ هل قطعت دابر تجارة المخدرات ؟

هل وهل وهل ••• عشرات القضايا الجوهرية التى تتصل مباشرة بالنهوض الحضارى ، وعبادة الله بتعمير الأرض وإقامة العدل ، وتنوير العقول واستقامة الأخلاق ، وإذا بها تشغل العالم بما يسئ إلى المسلمين وتشغلنا نحن بالدفاع ، ولسان حال كل منا : " هوه احنا ناقصين " !

لقد انتهزها كثيرون فرصة ليقولوا : أرأيتم ؟ هذا هو نموذج الدولة الإسلامية !!

وعلى الرغم من أن كل الدول الإسلامية ، والجمهرة الكبرى من علماء المسلمين استنكرت هذا الذى حدث ، لكن المتربصين لن يسمعوا وسوف يستمرون فى أقاويلهم ، ما دامت طالبان مصرة على أن تقدم لهم فرصة على طبق من الذهب ، بحيث يصدق قول القائل بالفعل : اللهم احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم !

تجارة وثقافة بينية* ..

المتفحص للكثرة الغالبة من البيانات الخاصة بالتجارة بين الدول العربية يستطيع أن يلاحظ بكل سهولة ويسر أن التبادل التجارى ضعيف إلى حد كبير ، فكل دولة – غالبا – تبحث عن شراء احتياجاتها وبيع منتجاتها من وإلى خارج العالم العربى . بطبيعة الحال فإن منطقها فى هذا أن الدول الأخرى دول متقدمة ، وبالتالى فإن ما تنتجه يكون عالى المستوى ، فضلا على أنها غالبا ما تنتج كل شئ . وإذا كان لهذا المنطق معقوليته إلى حد كبير إلا أن الأمر لا يخلو من وجود بعض المنتجات التى يمكن أن تجدها بالفعل فى هذه الدولة أو تلك من الدول العربية ، ولكن المثل الشهير العامى الذى نقول فيه سخرية من البعض :" زى القرع ، دايما يمد لبره " !!

إن هذا فى حد ذاته يقدم لنا صورة أخرى من صور الضعف فى الجسم العربى ، باعتبارها نتيجة وسبب فى وقت واحد . والحق الذى لا يمكن إنكاره هو أن الكثيرين فى هذا الشأن مغلوبون على أمرهم فى معظم الأحوال ، ذلك أن المؤسسات الاقتصادية العالمية لها سطوتها فى عالم السياسة وتستطيع أن تضغط وتحرك من هى على صلة بهم من أصحاب القرار فى الدول الغربية ، فيقوم هؤلاء أنفسهم باللازم ، كما أن لهم علاقاتهم الوثيقة بأجنحة مختلفة من قوى الضغط واتخاذ القرار فى الداخل فتقوم هى أيضا باللازم المطلوب منها فى هذا الشأن .

وإذا كان هذا يمكن أن يجعلنا أمام حالة عجز لا قبل لهم بالتغلب عليها ، على الأقل فى الوقت الراهن ، وعلى المدى القريب ، لكن ماذا نقول فيما يمكن تسميته أيضا بالثقافة البينية على المستوى الإعلامى ؟ ذلك أن من الحق أن

---

* جريدة آفاق عربية فى ٢٠٠١/٦/٧

نقول أن الكتب العربية يتم تداولها وتوزيعها ، وكذلك يتم تبادل الكثير من الأفكار والاتجاهات من خلال مؤتمرات وندوات أكثر من أن تعد أو تحصى .

فى كثير من الدول العربية التى قدر لى أن أقيم فيها بضعة أشهر أستاذا زائرا ، كثيرا ما أفتش فى نشرات أخبارها عن أخبار مصر فلا أجد إلا النادر وخاصة عندما يكون الأمر متعلقا بحدث يجمع بين مصر وهذا البلد أو ذاك . والغريب حقا أنى كثيرا ما كنت أجد أخبارا عدة تتصل ببلدان لا أهمية لها فى الحياة العربية ، فهذا خبر عن بيرو ، أو جواتيمالا ، أو سيريلانكا .. وهكذا ، لكن ، لا شئ عن مصر .

بل إن الأمر لا يتعلق بمصر وحدها حتى نقول أن الأمر مقصود ، وإنما لا أخبار ، مثلا ، فى سوريا عن الأردن ، أو السعودية أو ليبيا أو الجزائر ..، والأمر نفسه فى كل دولة عربية ، ولا نستثنى بلدنا مصر نفسها ، فهى تمارس هذا الإهمال المؤسف لمعظم ما يتصل بالعالم العربى ، باستثناء الانتفاضة بطبيعة الحال ، مع أن مسئوليتها هنا أشد ، خاصة ونحن نكرر دائما مقولة أننا زعماء المنطقة ، أو الدولة المركزية فى النظام العربى ، أو الشقيقة الكبرى ، كما يطلق عليها الإخوة فى الدول العربية الأخرى .

ونستطيع أن نشهد أيضا بما لا يصب فى مصلحة مصر إذا قررنا أن أجهزة الإعلام العربية ، ونقصد التلفزيون بصفة خاصة ، تذيع المسلسلات والأفلام والأغانى المصرية ، لكن العكس لا يحدث ، فلا يذيع تلفزيوننا ما تنتجه الدول العربية ، مهما ترامى إلى أسماعنا من سيق من آيات تقدير للعمل الفنى !!

قد يكون هناك مبرر أن مصر هى التى تنتج أفلاما سينمائية ، ولكن سوريا بصفة خاصة معروفة بإنتاجها الغزير فى الدراما التلفزيونية ، لا ترى مكانا لها على شاشات تلفزيوننا ، وكذلك هناك بالتأكيد مطربون عرب من كل

البلدان ، نادرا ما يذاع لهم شئ ، إلا عدد لا يزيد علـــى أصـــابع اليـــد مـــن المشهورين مثل فيروز ووديع الصافى وأصالة وماجدة الرومى وكاظم الساهر ، وبطبيعة الحال من يقيم فى مصر من المطربين العرب ..

هل هى نزعة تعال لا ترى أن للآخرين شيئا يستحق المشاهدة والـسماع ؟ كيف يتفق هذا مع ما تحمله مصر من مسئولية ثقافيـــة وسياســـية إزاء العـــالم العربى ؟ حقيقة لا أعرف الإجابة ، ولو حاولت " التخمين " ، فمن الممكـــن أن يجئ تخمينى ظالما .

مواجهة مع عقيدة
أم حرب ضد الإرهاب* ؟

هى مؤسسة علمية تعليمية خاصة ، جامعة ، وفقا لنظام التعليم المفتوح أنشئت فى الولايات المتحدة عن طريق مجموعة من علماء المسلمين من بلدان مختلفة ، لتعد معلمين للغة العربية للمدارس الإسلامية والعربية التى كانت قد انتشرت فى أرجاء هذا البلد المترامى الأطراف ، فضلا عن دعاة يسدون أيضا حاجة مئات من المساجد التى انتشرت هناك ، ولأنها لا تعتمد على التمويل الحكومى ، كان من الضرورى الاعتماد على التبرعات ، سواء كانت من هيئات خيرية أو أفراد ، ومع ذلك فقد تزاحمت أمامها العقبات والمشكلات فى الفترة الأخيرة ، لأن معظم مصادرها التمويلية من هذا الباب قد أغلقت على وجه التقريب ، مثلها فى ذلك مثل مئات الأنشطة التعليمية والدعوية والخيرية بصفة عامة التى كانت تعين ملايين المسلمين خارج أقطار العالم الإسلامى ٠٠٠وكل هذا بدعوى " تجفيف منابع الإرهاب " ٠

وأنت بهذا ترى عجبا حقا ! فعديد من الأنشطة بعيد بعدا تاما عن " السياسة " أصلا ، والإرهاب كما هو معروف سعى إلى فرض إرادة لتحقيق غاية سياسية بوسائل تقوم على العنف بطرق غير مشروعة ٠

كذلك فإن الذى أمسك يده عن التبرع والتمويل هم مسلمون ، وليسوا أمريكان ، ولكنها صورة من صور الخنوع والمذلة التى أصبحنا عليها فيمتثل الخيرون ، بناء على أوامر رسمية عربية وإسلامية !

لقد كنا فى بداية الأمر نتعجب : ما لهذه الهيئات التى تعمل فى مجال الفكر والتعليم ومال الإرهاب حتى يضيقوا عليها ويحاربوها ؟

---

* جريدة آفاق عربية ، في ٢٠٠٤/٨/١٢

لكن ها هو " ديفيد بروكس " يكتب فى " انترناشونال هيرالد تربيون " يكشف الغطاء ...يؤكد أن الأمريكان أصبحوا فى مواجهة " فكرية " ، أو قل فى مواجهة " عقدية " مع المسلمين ، وهو يعتمد فى مقاله على ما جاء فى تقرير لجنة التحقيق فى هجمات ١١ سبتمبر ، حيث يشير أعضاء اللجنة إلى أننا " نحن الأمريكيين لسنا فى صميم حرب على الإرهاب ، ولسنا فى مواجهة محور الشر ، بدلا من ذلك نحن فى غمرة مشكلة إيديولوجية " . كما يشير التقرير إلى " أننا نواجه اتحادا كونفدراليا غير مترابط من الأشخاص الذين يؤمنون بتيار إسلامى يمتد من ابن تيمية إلى سيد قطب وهم يستخدمون " الإرهاب " كوسيلة لكسب مؤيدين جدد لقضيتهم التى يناضلون من أجلها" .

ثم ها هو التقرير يصرح بما يفسر هذا الذى احتار فى تفسيره كثيرون من قبل ، حيث يشير إلى أن أصحاب التيار المشار إليه عن طريق التعليم المكثف لأسس العقيدة فى المدارس الدينية والمساجد ما زالوا يبنون قوتهم واضعين الأساس لعقود من النضال Kويمكن أن يكون الأفق الزمنى لديهم مختلف تماما " عما لدينا " .

وإذا كان التقرير يفترض أنه يتعين على الأمريكان أن يخوضوا الحرب على جبهتين : استخدام قدراتهم الاستخبارية والعسكرية والمالية والبدلوماسية لمحاربة تنظيم القاعدة ، وهذا الجانب هو الذى تركز عليه معظم وسائل الإعلام اهتمامها ، " لكن المعركة الكبرى هى مع نظام عقيدة معاد ليس بالإمكان الدخول فى جدال منطقى معه ، لكن يمكن فقط (تدميره أو عزله تماما) !!

هذه هى حقيقة المواجهة التى تقوم بها الولايات المتحدة بكل صراحة ووضوح، إلا بالنسبة لمن كان بقلبه مرض ...

ولأن هذا " العدو " الذى تصوروه ، واسع الانتشار ، يتلبس أشكالا وصورا لا حصر لها ، كانت المواجهة كذلك واسعة الانتشار ، تتخذ مختلف الأشكال والأساليب ، حتى فى أبسط اشكالها ، كأن يحظر على مذيعات التليفزيون

التحجب ، ويمنع صاحب لحية من تلبية دعوة إلى زفاف فى إحدى قاعات القوات المسلحة !

وتمتد هذه الحرب من مثل هذه الأشكال البسيطة ، إلى منع التنظيمات ذات التوجه الإسلامى من حرية الحركة ، وكذلك الصحف التى تعبر عن أفكارها أو تضييق الخناق عليها ، ووضع العراقيل والصعاب ، ومطاردة المعلمين المتدينين ، وإغلاق المساجد فى الفترة بين الصلوات الخمس ، فضلا عن الاعتقالات والمحاكمات وتلفيق التهم المختلقة ، إلى غير هذا وذاك من وسائل وصور وأشكال .

فكأن الحرب العلنية المسلحة ، أصبحت أمريكا تقوم بها ، مع معاونات من قوى محلية ، أما هذه الحرب " الفكرية " ، أو قل بصريح العبارة " الدينية " ، فلا تقوم بها مباشرة ، وإنما عن طريق " وكالات " محلية فى عديد من البلدان العربية والإسلامية .

ويشير التقرير إلى ضرورة أن تقوم أمريكا بانتقاد أشد لأنظمة الحكم الاستبدادية فى العالم العربى والإسلامى ، حتى ولو كانت صديقة ، لكن ما لم يقله ، أنهم بمثل هذا الانتقاد لا يهدفون حقيقة أن يحصل العرب والمسلمون على حكومات ديموقراطية ، ذلك أن هذا لو حدث فسوف تكون أمريكا أول الضحايا ، لأن الحكومات الديموقراطية ، لن ترضى بمثل هذا التسيد وتلك الهيمنة على مقدرات شعوبها ، ويصبح الهدف من شدة الانتقاد واستمراره هو " ترويع " الحكام ، وجعلهم يعيشون خوفا مستمرا ومن ثم يمتثلون لما يؤمرون به ، بل ويتحمسون أكثر من المحرضين أنفسهم !!

ثم يذهب التقرير إلى اقتراح إنشاء صندوق لبناء مدارس ثانوية فى الدول الإسلامية ، والسماح بدخول أعداد أكبر من الطلاب إلى " مدارسنا " . كذلك " نحن بحاجة إلى إقامة نوع من التعبئة الفكرية على غرار ما فعلناه خلال الحرب الباردة بمرادفات عصرية لمؤتمر الحرية الثقافية ، من أجل توفير منبر دولى

للمسلمين المتعدلين وتقديمهم إلى المثقفين الغربيين " ، ولعل هذا ما يفسر للقارئ لماذا يحدث احتفاء ملحوظ وواسع النطاق بهؤلاء المثقفين الذين يوجهون انتقادات مستمرة للتوجه الإسلامى ، ويتوجه لهم الدعوات إلى مختلف الجامعات والمنتديات فى الدول الغربية ؟!

وينبه التقرير إلى أن أمريكا فى الماضى كانت تقاتل حركات إيديولوجية تسيطر على دول (مثل الماركسية) ، بينما تم توجيه أدوات سياستهم الخارجية باتجاه العلاقات مع دول أخرى " الآن نحن نواجه نظام عقيدة معاد لنظام الدولة ، ويهدف إلى إقامة حكم دينى وإعادة زمن الخليفة ! سوف نحتاج إلى مجموعة جديدة من المؤسسات للدخول فى صراع مع هذه الحقيقة ، وإلى أسلوب تدريب جديد لفهم الناس الذين لا يبدون اهتماما بالمصلحة الشخصية الوطنية " .

إن الحقيقة التى غابت عن هؤلاء هى هذا التغافل عن الفروق الواسعة والحادة بين عقيدة قال بها واحد من البشر " ماركس " ، وبين عقيدة إلهية جاءت من لدن الخالق سبحانه وتعالى ...بين عقيدة فرضت على الناس حكما قام على القهر والسجن والاعتقال والسلاح ، وبين عقيدة يختارها الإنسان عن طواعية واقتناع ، ولا يعتد بها إذا جاءت عن غير هذا .

فى الحالة الأولى ، يمكن لمن يعيشون تحت ظل هذه العقيدة أن يسقطوا بسهولة بوسائل الإغراء ، مهما تسلحت دولهم بأعتى وسائل الحرب والقتال ، وهو الأمر الذى رأيناه فى سقوط الاتحاد السوفيتى ، ومن داروا فى فلكه ، أما فى الحالة الثانية ، فمهما كانت بدائية الأسلحة بأيديهم ، فهم يقاومون ويصبح الاستشهاد فى سبيل الله أعز أمانيهم...

إنها خبرة التاريخ نقدمها لهؤلاء الذين لا تاريخ لهم ...يمكن أن تسقط عشرات الإيديولوجيات ، وأعتى الإمبراطوريات الحامية لها ، لكن العقيدة الإلهية لا تسقط أبدا " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " ، وعد إلهى ، فهل يفهمون؟

يريدون أن يُحولوا
"نعمة" الحجاب إلى "نقمة"*!

كان المذيع اللبنانى فى إحدى القنوات الفضائية اللبنانية ، وهو يقدم برنامجه الحوارى يضرب المثل لمذيعى قنواتنا المصرية فى كيفية محاورة الضيوف ، رغم صغر سنه٠٠كانت ضيفته هى الفنانة المعتزلة سهير البابلى ٠فالمشاهد يشعر بأن المذيع قضى أياما وليالى يستقصى الكثير من المعلومات حياة الفنانة الماضية ، بكثير من تفاصيلها ، حتى أنها كانت أحيانا تعبر عن دهشتها متسائلة كيف تسنى له أن يعرف هذا وذاك معه أنها هى نفسها قد نسيته ؟

فإذا ما طرح عليها السؤال ، جاء فى جملة أو جملتين قصيرتين ، وتشعر أن السؤال يعبرُ عن وعى وفهم وعمق وذكاء ، وليس من قبيل تلك الأسئلة الغبية الساذجة التى يطرحها مذيعونا ، وكأنها من قبيل : ما رأيك فى السياسة الفنية الرشيدة التى يتبعها الوزير الفنان العظيم فاروق حسنى ؟ !

وتنطلق هى فى الإجابة دون أن يقاطعها المذيع متوهما أنه يستعرض عضلاته بينما هو يعبر عن جهل مخجل كما يحدث عندنا !

كانت الفنانة تشرح مراحل نفسية مرت بها قبل أن ترتدى الحجاب وتعتزل ، وكيف وقعت فى صراع عنيف بين الاعتزال وبين حياة الفن حيث كانت ملء السمع والبصر ، تكسب عشرات الألوف من الجنيهات ، وتتكالب عليها أجهزة الإعلام بجميع أنواعها ، وأينما سارت تطلعت إليها عيون الناس ، مما هو مغر أشد ما يكون الإغراء ، جاذب أشد ما تكون وسائل الجذب والإغراء ٠٠

حتى إذا استطاعت الفنانة أن تنتصر فى هذا الصراع الذى عانت منه طويلا وهرعت إلى طريق الله ، مضحية بما يصعب حصره من المنافع الدنيوية ،

---

* جريدة آفاق عربية فى ٢٠٠٥/٢/١٠

وعارفة أنها لابد أن تتعرض لإشاعات كاذبة بتلقيها أموالا نظير اعتزالها ، فتشعر بصدق الإيمان وعظمته وما يفعله فى النفوس والقلوب والعقول ، فتهتز كمشاهد ، وربما تسيل قطرة دمع فى لحظة مقترنة بترديد ما يؤكد عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، وإعجاب بهذا الدين الذى يتلقى أعتى ما تلقت دعوة من ضربات ، وتلصق به أفحش التهم والافتراءات ، ومع ذلك فلا يتراجع ويقل أنصاره ، وإنما يزداد قوة وسطوعا ، ويكتسب مزيدا من الذيوع والانتشار (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)!!

ويتصادف فى الليلة نفسها أن أسمع عن سعى خبيث لمحاربة هذا التوجه الدينى الأخلاقى الجميل ، من حيث الحشمة وحجب جسد المرأة إيمانا بقيمته واحتراما لها وإجلالا وليس كما يروج البعض من أن ذلك تعبير عن قهر ورغبة فى الامتلاك والاحتكار .

فلشقيقى الدكتور محمد إسماعيل على الكاتب المعروف بالأهرام ابنة استطاعت أن تستجيب إلى نداءات العصر العلمية والتكنولوجية كأفضل ما تكون الاستجابة ، فتخصصت فى دراستها الجامعية فى علوم الحاسب الآلى وأتقنت اللغة الإنجليزية وبتفوق ، وتصورنا جميعا أن أبواب العمل بالضرورة سوف تتفتح لها على مصراعيها ، ولم لا ؟ ألسنا نردد أطراف النهار والليل أن التعليم لابد أن يتسق وحركة التقدم العلمى والتكنولوجى ؟ ألسنا نردد آناء الليل وأطراف النهار أن " احتياجات العمل المتقدم " لابد أن يكون لها الاعتبار الأول فى اختيار برامج التعليم وإعداد الخريجين ؟

وبالفعل ، ما أن تتوجه إلى هذه الجهة أو تلك ، حتى يبدون استعدادهم السريع لقبولها ، ثم يطلبونها للمقابلة ، فإذا بهم بعد المقابلة إما أن يعتذروا عن عدم قبولها أو يصمتوا تماما فلا يردون ، ولم يشفع لها مكانة الوالد كأستاذ جامعى فى القانون الدولى وكاتب معروف !

أتدرى أيها القرئ الكريم السبب فى ذلك ؟ أنها محجبة ! أنها تستجيب لدعوة

ربها وتوجيه رسوله صلى الله عليه وسلم ٠٠أنها تحترم نفسها فلا تكشف عن جسدها لينهشه هذا وذاك بنظراته وتطلعاته ٠٠٠أنها تستر رأسها وشعرها ، فلا تتركهما نهبا لكل من هب ودب!

كنا نتصور أن جهاز الإعلام عندما غير الموقر هو وحده الذى يحرم على أى مذيعة أن تحجب شعرها وألا تظهر إلا وجهها وكفيها حتى يوزع المتعة الحرام بين مشاهديه ، ويسعد أزواج وآباء هؤلاء المذيعات بأن أجساد زوجاتهم وبناتهم معروضة للفرجة على الملايين ، بحيث لا يحتكرها الزوج وحده والأبناء! لكن ها هى " السياسة " غير المحترمة تنتقل إلى جهات عمل متعددة لتضرب المثل للناس ، فى كيفية إدارة الظهر لدعوة الله ، والامتثال لهذا وذاك من أصحاب الأعمال الذين يستهدفون أرباحا من نقود وزبائن ، دون أن يدروا أنهم إذ يكسبون مثل هذه الأموال ، يخسرون الكثير مما كان يجب أن يتطلعوا إليه لدن الخالق العليم!

لست فقيها فى الدين ، حتى أسوق الأدلة والبراهين على اعتبار الحجاب ضرورة دينية ، ولكنى أستند إلى اعتبارات أخرى ، لا عن عدم إيمان بهذه الضرورة الدينية ، وإنما لأزيد عليها اعتبارات أخرى تتصل بقيمة المرأة واحترامها وأخلاقية التعامل معها ٠

ومن هنا أتساءل ، كما تساءلت من قبل أكثر من مرة : من الذى يهين المرأة؟

إنهم هؤلاء الذين يتعاملون مع جسدها باعتباره " سلعة " تجارية تعرض على الزبائن ، فإما أن يتجهوا إلى صاحبته نفسها بغية شراء وقت للتمتع الحرام به ، وإما أن يتجهوا إلى السلعة التى ترتبط بصاحبة هذا الجسد ٠

إن آلاف العاملات اللائى يكن فى صدارة هذا العمل أو ذاك ويشترط فيهن " المظهر الحسن " ، والذى تدنى فى الحكم عليه كثيرون بحيث يصبح معيار الحسن أن تكشف العاملة عن صدرها وذراعيها وساقيها ، فضلا عن شعرها ،

وضيق الملابس المجسدة لجغرافية الجسد ، هن فى الحقيقة أدوات لجذب الزبائن ٠٠ ٠يقدمن لهم نظرات وابتسامات وكلمات جاذبة ، حتى يستجبوا ويدفعوا ، ومن ثم فهم ليسوا بائعات لعمل بعينه فقط وإنما بائعات لأنفسهن بصورة من الصور ، فهل هذا تعبير عن حقوق حصلت عليها المرأة وتقدير حملته واحترام كسبته ، أم هو العكس من ذلك تماما ؟

لماذا هذه المشاهد المتكررة على شاشات التلفاز من بائعات أجسادهن ، بحجة أنهن يغنين ، من حيث التمايل بخلاعة واضحة وإصدار إيماءات صوتية وجسدية موحية جنسيا ، حتى ينتبه المشاهد إلى فتنة جسدهن وإمكاناته المعروضة للبيع على الملايين ، بعيدا عن تخلف أمثالنا ممن يكتفون باحتكار رجل واحد واحد لجسد امرأته وفقا لسنة الله ورسوله ؟!

ومع ذلك فأكاد أقول لهؤلاء : موتوا بغيظكم ٠٠ فعلى الرغم من كل هذا الذى يكشف عن توجه الدولة ومن يرتبطون به ، فالإقبال مستمر ، والأعداد فى تزايد على طريق الله٠٠

أما أنت يا ابنة أخى ، وكل من نهجن هذا النهج ، فإننا نرسل إليهن التحية والدعاء بأن يثبت الله قلوبكن على الطريق ٠ نعلم أن ضيقا فى العيش ربما يحاصركن ، وأن نقصا من كسب المال سيصيبكن ، لكننا نتذكر دائما وعد الله لنا جميعا بأوفى الجزاء لمن يكسب استجابة المولى عز وجل لدعائهم اليومى ، العديد من المرات أثناء قراءة فاتحة القرآن الكريم (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)٠

منطق مصادرة الفكر*

أرجو ألا أكون صادما لبعض قراء آفاق عربية ، ولكن " الحق " أبغى ، وعلى الله قصد السبيل ...

روى الشيخ العظيم الراحل خالد محمد خالد ضمن ما روى عن حياته فى كتاب ضخم ، أنه فى عام ١٩٤٩- على وجه التقريب - كان قد كتب كتابه الشهير " من هنا نبدأ " ، وكان الرجل فى مرحلة الطفرة الشبابية ، أودعه عددا من الأفكار والآراء التى تعكس حماس الشباب الذى قد يدفعهم إلى تجاوز عدد من الحدود والأصول ، وفوجئ بأن أحدا لا يقبل على شراء الكتاب ، ولم تسحب منه إلا أعداد قليلة جدا تكاد ألا تذكر ، وآلمه هذا كثيرا ، فإذا به يفكر فى وسيلة عجيبة حاول بها الترويج للكتاب ...

كتب بنفسه خطابا ، باسم مستعار ، وجهه إلى جريدة أخبار اليوم ، وكانت من أقوى الصحف فى ذلك الوقت ، ذكر فيه أنه وقع فى يده كتاب لمؤلف مجهول اسمه " خالد محمد خالد " بعنوان (من هنا نبدأ) وأن هذا الكتاب يحتوى على الكثير من الأفكار المخالفة للدين ، مما لا ينبغى السكوت عليه ، ويهيب بالأزهر وبكل غيور على الدين ألا يسكت عن هذا العمل الآثم ، ويتساءل بكل حماس : أين حماة الدين ؟ أين النخوة الإسلامية ؟ أين ، وأين ...إلخ

لم تمر أيام معدودة إلا وقد راج الكتاب رواجا مذهلا حتى نفذت نسخه ، وإذا بالأزهر يمتشق الحسام ويبادر بطلب مصادرة الكتاب وتوجيه عبارات وتهم شديدة إلى شيخنا خالد ...وإذا بالرجل يصبح ملء السمع والبصر لا فى مصر وحدها ، بل وخارج مصر ...

وفى أحد معارض الكتاب الدولى فى مصر ، فى سنة سابقة ، حيث تمت فيه

---

* جريدة آفاق عربية فى ٢٠٠٤/٦/٢٤

مصادرة بعض كتب أحد الكتاب المعروفين بآرائهم المنحرفة عن الدين ، فإذا بأحد أصدقائه يتصل به مهنئا لأن ألوفا مؤلفة من الجنيهات سوف تتدفق إلى جيبه خلال أيام ، ذلك أن الخبر عندما أذيع سارعت سلطات الدولة إلى إعادة الكتب للعرض والبيع ، فإذا بها تختفى من كثرة الإقبال على شرائها !

وفى عام ١٩٦٥ عندما قبض على سيد قطب ، كنت معيدا بكلية التربية بجامعة عين شمس ، فرأيت أستاذى وكيل الكلية د٠أبو الفتوح رضوان يستدعى أمين المكتبة ، ويأمره بجمع كتب سيد قطب من المكتبة وإعدامها فورا وأن يأتيه بأسماء الذين كانوا قد طلبوا من المكتبة اقتناءها ، فإذا بالرجل يرد بأن الذى طلبها هو " الأستاذ سعيد ٠٠ "، ونظر د٠ أبو الفتوح نظرة غضب لى ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة سارعت بالقول " : أنا طلبتها وسيادتك أشرت بالموافقة " ، فأسقط فى يده ٠٠٠وسكت عن التفكير فى سبيل التبليغ عنى ومعاقبتى!!

وكان من ضمن ما أذيع عن أفكار قطب " المخربة - " كما زعموا - كتابه (معالم فى الطريق) ٠ ٠وكنت قد سمعت بالكتاب ورأيته مع الباعة ، وللأسف لم أسع لقراءته ، أو حتى اقتنائه ، فلما راحت الصحف تكتب عن هذا الذى زعموه عن سيد قطب ، شعرت برغبة جامحة فى قراءة الكتاب ، وأسررت بهذه الرغبة إلى أحد طلاب الدراسات العليا - هو الآن أستاذ تربية كبير - بهذه الرغبة ، فإذا به يعد بأن يأتينى بنسخة لقراءتها سرا على أن أعيدها خلال يومين ، وكان مثل هذا التصرف فى ذلك الوقت مخيفا حيث كانت القبضة الأمنية شديدة الوطأة ٠

أمثلة كثيرة يمكن أن أستطرد فى ذكرها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن المصادرة للفكر يستحيل أن تمنعه من الوصول إلى الناس ، بل العكس هو الصحيح ٠٠٠تروج له وتذيعه وتنشره على أوسع مجال٠

لقد أعدم سيد قطب وصودرت كتبه فى مصر ، فهل حيل بينه وبين ملايين القراء ، منذ أن أعدم حتى الآن ، وإلى ما شاء الله ، بحيث أصبحت كتبه أكثر الكتب مبيعا كل عام ؟

من هنا فقد شعرت باستياء شديد عندما صودرت رواية لكاتبة معروفة بمواقفها العدائية للفكر الإسلامى ، وتوقعت ما حدث بعد المصادرة ٠٠٠فالكثرة الغالبة المسيطرة على الصحف والمجلات هم من غير المتعاطفين مع التوجه الإسلامى ، ولا أريد أن أكرمهم فأصفهم بأنهم من العلمانيين أو اليساريين - سابقا - أو التنويريين- ! - ، فهم أبعد ما يمكن عن كل هذه الصفات التى أحترم فكرها حتى مع مخالفتى لبعض مقولاته، ومن ثم فقد انتهزوا الفرصة كالعادة للصياح والعويل والصراخ تباكيا على الحرية ، التى يعجزون حتى عن الشعور بانتهاكها عندما يعتقل عشرات من خيار الناس بلا ذنب حقيقى ارتكبوه إلا اعتناق فكر مخالف للدولة ، وعندما يجمد حزب بالكامل منذ أربع سنوات حتى الآن ، وعندما توقف جريدته أقوى الأصوات المعارضة ، بعد أن " سيست " معظم الصحف الحزبية المعارضة الأخرى ، ولم يصدر صوت احتجاجا على موت أحد المعتقلين من جراء التعذيب أو الإهمال أو هما معا ، فهم يمارسون نفس ما يعلنون تخوفهم من حدوثه إذا ساد الاتجاه الإسلامى دولة ما : الحرية لنا ، والموت للآخرين !

وتنتقل القضية إلى خارج مصر ، فتنشر عنها وكالات الأنباء العالمية ٠٠وتنتهز بعض القنوات الفضائية الفرصة لتقيم حوارات مع الكاتبة ، وحوارات أخرى مع نقاد من هنا وهناك ، فإذا باسمها يتردد كل يوم عدة مرات ، وتبدو " الست " وكأنها ضحية فكر ٠٠٠وشهيدة رأى ، فيسعى كثيرون إلى البحث عن الرواية ، وفتتسع دائرة انتشارها ، رغم أنف المصادرة ، فالتصوير اليوم بديل مهم !

ليكن بالرواية ما يكون من أفكار يمكن وصفها بأنها استهزاء بثوابت دينية ، لكن مواجهتها بالمصادرة منطق ضعف فكرى٠٠٠

عندما كتب لويس عوض ما كتب من افتراءات عن جمال الدين الأفغانى ، إذا بنا نرى الدكتور محمد عمارة يصدر كتابا يبرهن فيه على تهافت منطق لويس

عوض ...

وكذلك فعل محمد عمارة بالنسبة للأفكار التى كان قد أطلقها الدكتور نصر أبو زيد..

هذا هو منطق التفكير المستنير الحقيقى ، وهذا هو منطق العلماء الواثقين بفكرهم ...مقارعة الحجة بالحجة ، وهذا هو منطق القرآن الكريم نفسه ، لو تدبرناه لوجدناه يعرض لآراء وأفكار كثير من الأفراد والجماعات والأمم التى كانت تتسم بالفجاجة والانحراف ، ويرد عليها بعد تحليل وبسط للحجج والأدلة والبراهين الداحضة ..

وبالأمس البعيد ، صودرت كتب ابن رشد ، فماذا كانت النتيجة ؟ هل حيل بين أفكاره وبين من يريد الاطلاع عليها ؟ على العكس ، أصبح الآن يُعامل باعتباره رائد الفكر المستنير!

ومن قبله قبض على ابن حنبل لمخالفته الخليفة المأمون فى قضية خلق القرآن ، وعذب عذابا شديدا ، ومضى الخلفاء إلى غير رجعة ، أما فكر ابن حنبل ، فعشرات الملايين من المسلمين ، على طول التاريخ يؤمنون به ويهتدون بفكره ...

الطريق الصحيح ، أن يقوم بعض المتخصصين الجامعيين من ذوى الاجتهاد فى النقد الأدبى ، والحس الأخلاقى ، والوعى الدينى بمناقشة الرواية وتقييمها ، أما المصادرة فهى وسيلة عجز فكرى وليست أداة حماية فعالة للفكر الدينى السليم .

اليمين الحلال
واليمين الحرام*!

واليمين المقصود هنا هو ذلك المتداول فى عالم السياسة ، تعبيرا عن التيار الذى يميل إلى المحافظة والتمسك بالتقاليد والموروث الثقافى ، والوقوف فى صف أصحاب الثروة ، وهو يقال فى مقابل " اليسار " الذى يطلق على قوى التغيير والتجديد ومرونة الفكر ، والوقوف مع المستضعفين فى الأرض من الشرائح الاجتماعية المطحونة . وفى زمن وجود الدول " الاشتراكية " ، كانت قوى اليمين توصف بالرجعية ، أما قوى اليسار فتوصف بأنها " تقدمية " .

وكان استخدام مصطلح اليمين واليسار مظهرا من مظاهر " الاستتباع " التى جعلت كثيرا من المثقفين يرددون هذه المصطلحات ، دون وعى بأن المصطلح يمكن أن يختلف معناه بين اللغات ، ذلك لأن المصطلح اللغوى هو نبت سياق ثقافى بعينه ، بما يتضمنه السياق من كل ما هو نتاج حركة التفاعل بين أفراد الجماعة البشرية فى مكان ما .

نقول هذا لأننا لو استقرأنا بعضا من آيات القرآن الكريم ، فسوف نجد معنى مختلفا ، فأصحاب اليمين ، هم الملتزمون بالطريق إلى الله ، بكل ما يتطلبه هذا من التزام بقيم الحق والخير والعدل والتقوى ، وكل ما هو فى صالح الأمة ، ولذلك فهم موعودون بالجنة ، مثالنا فى ذلك ما جاء فى سورة الواقعة (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) ...) ، ويقول سبحانه وتعالى أيضا فى سورة الانشقاق (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)) .

---

* جريدة آفاق عربية ، فى ٢٠٠٤/٦/١٠

وكان مصطلح " اليمين " يطلق فى مقابل " الشمال " ، يدل على ذلك قوله تعالى (وَتُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨)) سورة الكهف ، وفى سورة سبأ (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)) ، وهم منظور إليهم فى القرآن على العكس من أصحاب اليمين : إنهم ملعونون ، منحرفون ، ينالون غضب الله فى الدنيا والآخرة (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) ، سورة الواقعة.

لكن من الممكن أن نجد " اليسار " فى اللغة العربية يجئ فى مقابل " اليمين "، من الناحية المكانية ، كأن تقول جلست على " يساره " أو " يمينه " ، أو جلست جهة اليسار " .

أما من حيث المضمون الاجتماعى فمضمون اليسار فى اللغة العربية يختلف تماما عما يستخدم فى المجال السياسى بالمعنى الغربى ، فهى فى لغتنا يعنى الغنى والثروة والسعة والرخاء ، ومن ثم فمن شأن الذين يتمتعون بذلك أن يكونوا هم أهل المحافظة وبقاء الحال على ما هو عليه ، ولا يتعاطفون - إلا من رحم ربى - مع المستضعفين فى الأرض.

ومن المعروف أن كافة التقارير والتحليلات تجمع على أن القوى الحاكمة الآن للولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك لدولة العدو الصهيونى ، تنتمى إلى اليمين ، بالمعنى السائد فى الأدبيات السياسية والاجتماعية المعاصرة ، بل وتوصف هذه القوى بأنها ليست مجرد " يمين " ، وإنما " يمين متطرف " ، يفتقد المرونة واتساع الصدر والانفتاح الفكرى ويتسم بالتعصب والميل إلى العنف ، واحتقار الآخر . بل لا يقف الأمر عند هذا الحد بل ويسعى إلى الهيمنة والتسلط على الآخرين .

ومشهور أن جورج بوش الإبن ، الرئيس الأمريكى الحالى - إن وهما وادعاء أو حقيقة - ينطلق من منطلقات دينية ، ومعروف كذلك أن حكومة الكيان الصهيونى تعتمد بصفة أساسية على الأحزاب الدينية المتطرفة حيث يعترف بها وتعامل باعتبارها لاعبا أساسيا على المسرح السياسى •

ولأن الولايات المتحدة هى التى تتربع ، بغير منازع ، على عرش القوة فى العالم ، وبما أن دولة العدو الصهيونى صورة مصغرة منها ، أو هى " وكيلها " فى منطقة الشرق الأوسط ، وإن كان هناك تبادل فى الأدوار ، بحيث يمكن للولايات المتحدة أن تقوم هى الأخرى بدور الوكيل للكيان الصهيونى ، أصبح التوجه المحرك للسياسة المتحكمة فى دول منطقتنا هو اليمين المسيحى الصهيونى •

وعندما عرض " شارون " خطته للانسحاب من غزة ، وقام باستفتاء أعضاء حزبه ، اليمينى ، " الليكود " لم يصوتوا لصالحه ، على الرغم من أن شارون معروف بأنه زعيم يمينى أصيل ، بل ومتطرف ، ووحشى ، فكأن مجتمعه الحزبى ، يريد يمينية أكثر منه ، ويريدون تطرفا أبعد مما يتجه • والرجل ، مهما قلنا عنه ، قد احترم رأى حزبه ، ونكرر مرة أخرى : الأكثر يمينية وتطرفا منه ، ولم نجد شجبا واستنكارا من أحد لهذا ، ولا ارتفعت أصوات لتنبه إلى أن التداخل بين السياسى والدينى خطر على المجتمع الوطنى وعلى المجتمع العالمى ، بل ترتفع أصوات - عندنا - ب "الواقعية " و " التسامح " لتؤكد أن هذا شأن الإسرائيليين ولهم الحق فى اختيار ما يريدون !

فماذا ينتظر منا لمواجهة هؤلاء ؟ القاعدة المشهورة تقول بأنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، ومع ذلك فسياسة دولنا تنهج نهجا عكسيا تماما:

هل تذكر ما الذى حدث عندما اختار الشعب الجزائرى حزبا إسلاميا ؟ انتشر الفزع خارج الجزائر ، فى الدوائر الغربية ، وهذا مفهوم ، لكن الغريب ، أن الفزع كان أشد فى الكثرة الغالبة من البلدان العربية ، وما زلت متذكرا مناقشة

دارت مع رئيس الدولة حول هذه القضية فى معرض الكتاب الذى انعقد عقب ظهور النتائج الأولية ، وعبرت عن ضيق كان واضحا لما حدث من اختيار للشعب الجزائرى !

وهل تذكر ماذا حدث لحزب الرفاه فى تركيا عندما أوصلته أصوات الناخبين إلى سدة الحكم ، من تضييق ومحاصرة ، ثم إقصاء ، وما تبعه من محاكمات ؟

وكثرة نظمنا تحرم قيام أحزاب ذات توجه إسلامى ، بل وتحارب أحيانا بشكل مستتر ، وأحيانا بشكل علنى ، الكثير مما يعبر عن التوجه الإسلامى .

هذا فضلا عن التشويه المتعمد فى بلداننا للقوى الإسلامية من حيث النظر إليها على أنها ممثلة " اليمين " فى المنطقة ، ونظرا لأنها - كما يزعمون - منغلقة ومتعصبة وتؤمن بالعنف ..إلى غير هذا وذاك من مرذول الصفات التى يخلعونها عليها ، فلابد من محاربتها ومطاردتها فى كل مكان وفى كل مجال !

لا ننكر بطبيعة الحال أن هناك قوى دينية متطرفة تستخدم العنف ، وهو أمر لابد بالفعل أن نحاصره ونقاومه ، لكن لابد أيضا أن " نعدل " فى المعاملة ، بحيث ينطبق هذا أيضا على قوى اليمين المواجهة لنا فى الطرف الآخر ، فى الولايات المتحدة والكيان الصهيونى ، أما أن نبارك اليمين الذى يحاربنا ويدمر بلداننا ويقتل شعوبنا ونتعامل معه بالحب والسلام واتساع الصدر وافتراض حسن النية ، ونحترم أفراده عند لبس " الطاقية " ، ونفزع عندما تلبس نساءنا الحجاب ، وتنظم وزارات تربية مسابقة عن السلام ، المقصود به سلام مع " الآخر " ، بينما لا تتشده مع " فئات "ضخمة بالداخل ، ونستسلم لمطالب اليمين الخارجى ، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر ، فهذا والله موقف أمسك عن توصيفه الحقيقى لأننا لو سايرنا التحليل لوصلنا إلى نتيجة مذهلة ، لكنها مؤلمة ، غاية ما يكون الألم .

التاريخ وتزييف الوعى*

لفت نظرى فيما يكتب من تعليقات لبعض النقاد على ما يعرض على شاشات التلفزيون من مسلسلات ، قول البعض أن المسلسل الخاص بالملك فاروق ، قد كشف زيف بعض ما كان يُرَوّج ضده طوال عهد ثورة يوليو ، حيث أن الرجل لم يكن بمثل ما شاع عنه من سوء وفسق وفساد ، بل إننا لو قارناه بما نشاهده فى عصرنا الحالى يكاد فاروق أن يكون " ملاكا " !!

ولم يسعدنى الحظ لمتابعة هذا المسلسل ، ولا أى مسلسل آخر ، فمنذ عامين وأنا منصرف عن المسلسلات التلفزيونية عموما وفى رمضان خصوصا لأسباب لا محل لبيانها فى مقالنا الحالى ، ومن ثم يجئ حديثى الحالى لا تعليقا على مجريات أحداث مسلسل الملك فاروق ، وإنما على هامش القضية التى أثيرت وهى الخاصة بما يحدث لبعض الفترات التاريخية من تشويه وتزييف .

فماذا نريد أن نقول بهذا الصدد ؟

كلنا نعلم أن الطاقة الذرية لها وجهها المدمر المتمثل فى القنابل الذرية ، كما أن لها جانبها الآخر الذى يقتحم مجاهل وآفاق ينهمر من خلالها خير عميم على الإنسان ...

وهكذا الأمر فى جوانب كثيرة ، أقدمها : النار ، التى يمكن أن تنير وتضئ ، كما يمكن أن تحرق وتُخرّب ...وهكذا .

شئ مثل هذا بالنسبة للوعى التاريخى ، فشخصية كل إنسان إنما هى مجموعة من الوقائع والأحداث المتفاعلة والتى تستقر فى الشعور واللاشعور بحيث تُكسب كل منها سمات بعينها تميزه عن غيره ، فإذا ما فقد أحد " ذاكرته " فكأنه فقد شخصيته .

---

* جريدة الوفد فى ٢٠/١٠/٢٠٠٧

وهكذا بالنسبة للأمم والشعوب ، فجُماع ما تمر به الأمة من أحداث ، وحصيلة ما يجتمع لأفرادها من معارف ومعلومات وقيم ومهارات واتجاهات ، يُكوّن شخصية هذا المجتمع ، ويحدد هوية هذا البلد أو ذاك

من أجل هذا كان الاهتمام الشديد منذ آلاف السنين بالتاريخ الخاص بكل أمة وضرورة تعليمه لأجيالها الجديدة حتى تستكمل مقومات المواطنة بالنسبة لديهم • ولعلنا نحن المصريين بصفة خاصة أبرز شعوب الأرض للدلالة على ذلك ، من حيث الأسبقية فى " التأريخ " لبلادنا ، كما تخبرنا بذلك الآثار الفرعونية ، وما كان يكتب على كثير منها من أسماء ووقائع وآراء ومواقف وأفكار ، وحرص الملوك على ذلك •

لكن هذا الدور الخطير الذى يلعبه الوعى التاريخى فى تشكيل الشخصية القومية ، والشخصية الفردية ، كانت له تداعياته السيئة فى بعض الأحيان ، حيث حرص ملوك وحكام على المبالغة والتفخيم والتزويق والتجميل لما فعلوه وإخفاء سيئ الأفعال مما جنته أيديهم • وفى الوقت نفسه ، تشويه سير من قبلهم ، إذا كانوا معادين لهم •

ولأن بعض الفراعنة اشتهر بهذا بصفة خاصة ، شاع بين الناس التمثيل بما فعلوه ، عندما يأتى رئيس لعمل أو زعيم لبلد ، فيمحو كل أثر طيب لسابقه ، فنقول أنها عادة فرعونية موروثة ، وكأنها سمة اختص به المصريون وحدهم ، مع أنها حدثت فى بلدان أخرى كثيرة •

ولعل التاريخ الإسلامى ، من أوضح المجالات التى تكشف عن هذه الحقيقة المؤسفة ، فكم من مؤرخين ارتبطوا بحكام بعينهم ، فحرصوا على أن يظهروهم فى أحسن صورة ، ويسودوا صفحات مخالفيهم فى الرأى والمذهب ، ومن أكثر الأمثلة التى يمكن أن تساق على هذا الطريق ، بعض الكتابات التى دونت فى عصر الأمويين ، مما يتصل بشيعة على بن أبى طالب ، ثم يذوق الأمويون من الكأس نفسه عندما تقوم على أنقاضهم الدولة العباسية • •وهكذا •

وقد فرض هذا على القارئ فى كتب التاريخ الإسلامى ، فى أصولها ، فلا يسلم بسرعة بصدق ما يقرأ ، بل عليه أن يدقق النظر فى اتجاه المؤرخ ، وما كان له من علاقات بمن يحكمون ، وما يعتنقه من مذهب .

وكانت سبل التسجيل والتدوين لما يحدث من وقائع تخضع لنفس المنطق ، مما يُصَعّب مسألة التدقيق والفحص ، حيث تقل فرص الموضوعية فيما يدون من وثائق رسمية .

ولعل من أبرز الأمثلة الخاصة بالوعى التاريخى لدينا ، أننى نفسى ، مثل آلاف ، وقعت ضحية ما شاع من كتابات تؤرخ للدولة العثمانية بأنها كانت دولة احتلال أجنبى ، مع أنها كانت حلقة من حلقات التاريخ الإسلامى ، مثلها فى ذلك مثل دولة المماليك ، ودولة الفاطميين ، والأيوبيين ، ولم نقل عن واحدة منها أنها دولة احتلال ، حيث أن حكامها جميعا كانوا غير مصريين .

لكن متغيرات أخرى هنا تتصل بعلاقة الدولة العثمانية بأوربا حيث كانت هذه الدولة هى التى اخترقت مساحات شاسعة من أوربا مُدخلة إياها تحت مظلة الإسلام ، ثم تطلع أوربا عندما حملت راية الحضارة الحديثة وبدأت تصول وتجول فى أنحاء العالم بحثا عن بلدان تستعمرها ، فكانت الدولة العثمانية ، التى كان الوهن قد بدأ يدب فى أوصالها ، هى اللقمة السائغة الجاهزة ، مما شجع على الترويج لأفكار تؤكد استبدادها وظلمها ، وأنها دولة احتلال ، حتى تكون الشعوب العربية عونا للغزاة الجدد الأوربيين فى القضاء على الدولة العثمانية ، والترحيب بدول الاحتلال الأوربى .

وعندما جثم الاحتلال البريطانى على أرض مصر ، بدأت كتب التاريخ تكتب عن ثورة عرابى باعتبارها " هوجة عرابى " ، ويُصور الرجل باعتباره " عاصيا " للخليفة العثمانى ، وأن الجيش البريطانى جاء لينقذ مصر من هذه " العُصبة " العاصية ويمد بيننا وبين مصادر التحضر الغربى الجسور وسبل التعاون والتمدن !

وللأسف الشديد ، فقد وقعت ثورة يوليو فى هذا الخطأ ، حيث كان هناك حرص على تصوير الفترة السابقة بأنها كانت ظلاما دامسا ، فجاءت الثورة لتشيع النور . وإذا كان من المقبول إلى حد ما أن ينطلق مطرب مثل محمد قنديل فى أغنيته " عا الدوار " قائلا : " كنا فى نار وبقينا فى جنة " ، فلم يكن هذا جائزا أبدا بالنسبة للكتابة العلمية عن تاريخ مصر ، ويكفى أن ما تم ضخه من مقالات وقصص وأحاديث عن " الأسلحة الفاسدة " وأن الملك فاروق كان السبب الرئيسى وراءها حتى وقر فى أذهاننا أنه تاجر فى حياة جنودنا ليكسب ويثرى ، مع أنه لم يكن بحاجة إلى ثراء وغنى ....هذه الأسلحة ، انتهى الأمر بها ، من خلال التحقيق وحكم المحكمة ، أنها لم تكن حقيقية !!

وإذا كان منطق الصراع بين جناحى السلطة فى أوائل الثورة ، محمد نجيب وجمال عبد الناصر ربما يبرر اختفاء اسم المهزوم فى أجهزة الإعلام التى كانت قائمة أثناء الثورة ، وهو نجيب ، لكن ، عندما نأتى إلى كتب تاريخ علمى يُدرس لأبنائنا ، كان من الضرورى ألا يُزَيَف التاريخ ، فلا يذكر أن أول رئيس لجمهورية مصر ، بعد إسقاط الملكية هو محمد نجيب !!

وكلما عُرض فيلم (غرام وانتقام) ليوسف وهبى وأسمهان ، أشعر بحسرة شديدة لأن " أوبريتا " عظيما كتبه بيرم التونسى وغنته أسمهان ، استعرض فيه تاريخ أسرة محمد على قد حذف من الفيلم !

وما زلت أذكر تلك الحلقات الطويلة التى كان مصطفى أمين ينشرها على صفحات (الأخبار) وأخرجها بعد ذلك فى كتاب من جزئين ، بعنوان (ليالى فاروق) ، والتى يشعر القارئ لها " اليوم " بأن كثيرا منها كأنه " مفبرك " ، لكن المناخ العام وقت النشر كان يوحى وكأنها صادقة ، بينما كانت تنشر بدافع منافقة ضباط الثورة ، فضلا عن الرغبة فى زيادة التوزيع !!

ومنذ أن انحرفت مصر بعقدها اتفاقية كامب ديفيد ، ثم بعد أن اشتدت حرب الولايات المتحدة ضد ما تسميه بالإرهاب ، حيث انتهزتها فرصة لتضييق

الخناق على الاتجاهات الدينية الإسلامية بدأنا نجد تقليلا في المساحات المخصصة للتاريخ الإسلامي المقررة على طلاب المدارس بحيث تتخرج الأجيال الجديدة فاقدة الوعي بتاريخها العربي الإسلامي .

والأدهى من ذلك وأمر ، ذلك السعي الدءوب في إخفاء أي مظاهر للصراع بين العرب والصهيونية في كتب التاريخ ، بل وصل الأمر إلى نصوص القرآن الكريم نفسها ، لا بالتغيير والتزييف ، فهذا ما لا يستطيعونه وإن كانوا يتمنوه ، ولكن بحذف أي آيات تشير إلى غدر اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم ونقضهم العهود ، والتأكيد على أن ما جاء بالقرآن عن اليهود إنما يخص يهود العهد النبوي ، وبالتالي لا ينبغي أن ينسحب على يهود اليوم ، مع أن الدولة الصهيونية نفسها قامت على أساس أن الأرض الفلسطينية هي أرض يهود الأمس !!

وفي الدول المتقدمة ، هناك وسائل متعددة لضبط الصدق التاريخي ، لعل أبرزها أنه ما من مباحثات ومواقف يحضرها رئيس الدولة ومسئولوها الكبار إلا ولابد أن تسجل محاضر لها ، وتحفظ للأجيال التالية ، ثم يكشف النقاب عنها بعد أجل معين ، بينما نرى إهمالا مزريا لهذا الأمر الهام في معظم دولنا العربية ، ومن ثم يكون من الصعب على من يريد أن يعرف ما حدث أن يجد من الوثائق الرسمية ما يعينه على ذلك ، ومن هنا فبالنسبة لتاريخ ثورة يوليو ، لا نجد وثائقها مع الأسف الشديد إلا النزر اليسير ، وبالتالي ، الاعتماد على المذكرات الشخصية ، والتي نلمس تباينا شديدا في وجهات النظر بها ، وحرص كل كاتب على أن يظهر نفسه باعتباره بطلا تاريخيا ، فضلا عن كتابات كتبها من يمكن أن نسميهم بجرحى الثورة ، وفقا لتسمية إحسان عبد القدوس ، مثل أعضاء الأحزاب القديمة ، والإخوان المسلمين ، فبعض كتاباتهم عن الثورة لا نرى من خلالها الثورة إلا حقبة سوداء ، وفترة دمار لمصر !!

من أجل هذا يجد كثير من الباحثين أن الطريق العلمى الموضوعى لتتبع أحداث التاريخ المصرى الحديث والمعاصر إنما يتاح عندما يفرج عن وثائق الهيئات الرسمية الأجنبية بعد الفترة الزمنية المحددة ، فمتى يستفيق مسئولونا وتأخذهم الغيرة الوطنية ، فيسعوا إلى التمثل بمثل هذا التقليد الغربى العلمى بتوفير محاضر تسجل فيها كل المقابلات والمحادثات والاجتماعات التى يعقدها المسئولون ، أم أن فيها ما يُخشى الكشف عنه ، وما يُخجل ، وهو الاحتمال الأصح ، فيما يبدو ؟!

صراع مصالح أم
صراع حضارات* ؟!

هل الصراع حتمى ؟

" الصراع " و" التنافس "، سنتان من سنن الله فى خلقه من العسير على أحد أن ينكرها وهو يرصد مسيرة الأمم فى مختلف البقاع ، وعبر العصور ، وهل يمكن لأحد أن ينسى ما رواه الله عز وجل فى كتابه الكريم مصورا أول صورة من صور الصراع والتنافس شهدها الإنسان انتهت بعملية عنف أدت إلى القتل ، بين ابنى آدم :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)) سورة المائدة ٠

فى الصراع يسعى كل طرف إلى أن يهزم مقابله ، بل ويزيله من الوجود ، وفى أحسن الأحوال ، يخضعه لمشيئته ويسيره فى طريق مصالحه هو ٠

لكن ، فى التنافس ، يسعى كل طرف إلى أن يقدم أحسن ما عنده ، مستهدفا التفوق على منافسه ، دون أن يسعى إلى إلغائه ومحوه ٠٠

وقد عرفت الحضارة الغربية فى العصر الحديث ثلاث ثورات فكرية كبرى ، بينها قاسم مشترك هو التأكيد على فلسفة الصراع ، وإن اختلفت أطرافه وتوجهاته :

---

* مجلة المنار الجديد ، القاهرة ، أكتوبر ٢٠٠٨

فالفيلسوف الالمانى " هيجل " (١٧٧٠-١٨٣١) صور هـذا الـصراع تاريخيا ، لكنه فى نطاق أفكار ، فالفكرة " أ " تناقض الفكرة " ب " ، وينشأ من الصراع بينهما اختفاؤهما معا لتنشأ فكرة جديدة أخرى هى مركب بين السابقتين فى شكل وتكوين جديد .

فلما جاء " ماركس " (١٨١٧-١٨٨٣) ، تبنى المنطق نفسه ، لكنه نقله إلى التكوين الاجتماعى ، بحيث تحتل " الطبقة " مكان " الفكرة " ، فتتـصارع الطبقات لتنتصر الطبقة العمالية فى النهاية .

وأسس " داروين " (١٨٠٩ – ١٨٨٢) للصراع بيولوجيا بـين أنـوع الكائنات الحية ، وأطلق عليه " تنازع البقاء " حيث يكون الفوز والغلبـة لمـن يكون الأقوى !

بل ويمكن إضافة الثورة النفسية التى أحدثها " فرويد " بآرائه فيما أبـرزه من تكوينات نفسية يبرز فيها الصراع بين " الأنا " و " الهو " محوره هو الطاقة الجنسية ...

وعلى طول التاريخ يتداول الناس جميعا علـى وجـه التقريـب ، فكـرة الصراع بين " الحق " و " الباطل " ... بين " الخير " و " الشر " ..

وبين المتدينين ، أيا كانت ديانتهم ، هناك اعتقاد بوجود صراع دائم بـين الشيطان وبين داعى الالتزام بتعاليم الله سبحانه وتعالى ...

وفى الحياة ، تتعدد صور كل من " الصراع " و " التنافس " فى كل شـأن من شئونها ، فيلتبس الأمر لدى البعض بين ما يجب أن يحكمه صراع ، ومـا يجب أن يحكمه تنافس !

وتتباين مجالات الحياة فى الاستناد إلى أى المبدأين : ففى السياسة ، نجـد الغالب هو " الصراع " ، حيث يكون تصادم إرادات فى الاستئثار بمظاهر القوة بهدف محو الآخر والانفراد بالساحة والسيادة ، وما الكثرة الغالبة من الحروب إلا مظهرا لهذا المنحى ..

أما فى مجال العلم ، وفى الفكر بصفة عامة ، فهناك مبدأ التنافس هو الحاكم ، وإن كان يمكن أن يلتبس بالصراع عندما يكون المحرك " مصالح خاصة " تحاول أن تلبس قناعا علميا أو فكريا .

وفى تصورى ، فإن الحضارات مفروض ألا يكون بينها " صراع " ، فالحضارة فى الأصل يعتقد أنها تمثل مرحلة تقدم ورقى فى مختلف مناحى الحياة ، ومن ثم فلابد أن يحكمها " تنافس " لا صراع ، تنافس يدفع أصحاب كل منها أن تثبت تفوقها على الأخرى ، ولا مانع خلال هذا أن تفيد حضارة من الأخرى ، بل إن هذا يكون واجبا وضروريا .

لكن ، لأن الحضارة المتفوقة والأكثر تقدما تستند بالضرورة إلى قوة سياسية وعسكرية واقتصادية ، فإن زعماء دولها يتحركون وفق منطق الصراع ، عندما يكون هناك صراع حول مصالح ، لكنهم غالبا ما يلبسونه زيا آخر ، حيث يسعون إلى إكساب المشروعية عليه فيسمونه " صراع حضارات " ، أو صدام حضارات !

جذور تاريخية :

وقد بدأ هذا اللبس منذ فجر التاريخ ، فيما بين حضارات الشرق القديم ...

وعندما بدأ ظهور الحضارة الإسلامية كان الدافع الأساسى هو نشر الدين الجديد وما يتضمنه من نظم وتشريعات ومبادئ وعقائد وأفكار وقيم ، وتضمنه نظما وتشريعات هو الذى جعل " السيطرة السياسية " ضرورة من الضرورات ، بينما لا يكون الأمر كذلك لو اقتصر الإسلام على مجرد توجهات وأفكار وعادات وقيم ، فهذه أمور تنتشر بالتدريج وعبر عشرات السنين ، وهى تتخطى الحدود السياسية .

من هنا ترافق " الفتح العسكرى " مع انتشار الإسلام ، مع تأكيد أن هـذا الفتح لم يكن لإجبار الناس على الدخول فى الإسلام بقدر ما كان تهيئة الظروف الأساسية لإقامة مجتمع جديد ، أما بالنسبة للأفراد فمن شاء فليؤمن ومن شـاء فليكفر .

ولم يمنع هذا من أن يحدث فى مناطق كثيرة من العالم ، وخاصة جنـوب الصحراء الإفريقية ، وشرق آسيا ، أن تبنى كثيرون العقيدة الإسلامية بغير فتح عسكرى .

وعندما بدأت الجيوش الإسلامية تطرق أبواب أوربا بدأ الالتبـاس بـين الصراع والتنافس ، فأصبح الأوربيون ينظرون إلى الإسلام وإلـى المـسلمين نظرة طرف صراع لا طرف منافس ، وأشعل هذا وأكده زعماء سياسيون وقادة عسكريون ، فكان ما كان من حروب صليبية ألبست ثوب صراع دينى ، ومـا هى إلا حرب أشعلتها مصالح ومنافع ، سعت أن تكتسب الـشرعية ، فألبـست زى المسيحية ، مع أن المسيحية بطبيعتها بعيدة تماما عن منطق القوة والصراع ، وإسالة الدماء فى سبيل الغلبة والتسيد .

وقد نقل محمد كرد على فى كتابه الخطير (الإسلام والحضارة الغربية ، ج١ ، ص ٣) عن " دريول " قوله أن " الغربيين ربوا فى عاطفة أن النصرانية أرقى من الإسلام بكثير وأن رسالتها أن تهدى المسلمين إلى دين المسيح ، وهذا أمر عسير ، وكم من أناس بيننا يبسمون لما يذكر من النعيم الـذى وعـد بـه المسلمون فى الجنة ، ولما يرون من حركات العبادات الإسـلامية يبـسمون ، ونحن ندعو المسلمين بالكافرين ، ومعنى المسلمين جماعة المـؤمنين ، فلهـم الحق أن يردوا علينا هذا النعت ، وبهذا لا يرجى أن تقوم بيننا وبينهم صـلات إخاء وحب " .

وأكد " كرد " على أن أهم أسباب الجفاء بين الغربيين والـشرقيين فـى القرون الأولى للهجرة كون الإسلام جاء لهداية البشر كافة ، فأتى على الوثنية

فى البلاد التى انتشر سلطانه فيها ، ودخل فيه من الصابئة واليعاقبة والنساطرة والمجوس واليهود وغيرهم جمهور كبير ، وخافت أوربا المسيحية من تسربه إلى ربوعها ، فاتفقت كلمة الملوك ورجال الدين على حربه ، حتى وقفت دعوته عند جزيرتى الأندلس وصقلية قرنين كاملين ، يجيش فيها الغرب على الشام ومصر ، حتى كتبت الغلبة الأخيرة للإسلام فى أرض الشام .

ويرى البعض أن بداية الحملة الفكرية على الإسلام كانت إلصاق تهمة حرق مكتبة الإسكندرية القديمة إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، بينما ثبت لعلماء غربيين أنها أحرقت قبل الإسلام بقرون ، ومع ظهور الحق فى هذه المسألة ، بعد أن لاكتها الألسن كثيرا ، نرى أناسا يتخيلون أن فى ترديد هذه الأكذوبة على الخليفة الثانى حطا من قدره ، فيذكرونها عند كل موقف ، ليدلوا على جهل الخليفة ، وتصلبه فى أفكاره ، وتجافيه عن الأخذ من سلف من الأمم ، جهلا وتعصبا منه ومن قومه .

لقد أحرقت مكتبة الإسكندرية غير مرة بأمر الإمبراطورين " ثيودوسيبوس " و " يوسانتيانوس " ، وآخر حريق لها كان قبل الهجرة بمائتى سنة ، ذكر " جيبون " فى تاريخ سقوط دولة الرومان أن هذه الفرية على المسلمين لفقها أبو الفرج بن العبرى فى تاريخ مختصر الدول ، وذلك بعد الإسلام بنحو ستمائة سنة ، ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذكرها ، حتى أن " أفتيكيوس " بطريرك الإسكندرية ، مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر ، لم يذكر كلمة عن حريق عمرو بن العاص لهذه المكتبة ، وقد ذكر " إرفنج " و " كريستون " و " فلين " وغيرهم ، أن ما أشيع من مساوئ الإسلام والمسلمين بهذا الشأن لم يكن له ذكر قبل نقل كتاب مختصر الدول إلى اللاتينية ، ومن ذلك الحين ابتدأ الغربيون يبغضون المسلمين ويحتقرونهم !!

منافذ ووسائل حديثة للمواجهة :

وكل ما شهده العالم بعد ذلك من صور استعمار ، لم يكن بأى حال من الأحوال ، كما زعم قادته ، سعيا لنشر حضارة حديثة بقدر ما كان سعيا إلى التحكم والاستئثار بالثروات الخارجية ، فضلا عما أصبح موروثا من مشاعر وطاقات عدائية ضد الإسلام وضد المسلمين •

وكان من أحد الأساليب التى استند إليها الغرب فى حروبه مع بلدان الشرق ، وخاصة الإسلامى منها " الاستشراق " ، حيث كان هناك حرص على أن يستند الغزو العسكرى إلى " فهم " و " معرفة " وعلم " ، اتساقا مع طبيعة الحضارة الحديثة التى وجدت فى النظر العلمى مصباح علاء الدين الذى يقفز بالناس إلى مراقى التقدم وأعالى مراتب الازدهار •

لا نريد أن نصور الاستشراق بصورة سلبية على طول الخط ، فجهودهم التى خدموا بها الدراسات الإسلامية لا تنكر بأى حال من الأحوال ••

لكن لا ينبغى أن ينكر أحد أيضا أن عددا من هذه الجهود كان خدمة للخطوات الاستعمارية ، وبهذه المناسبة أذكر وأنا أعد لرسالتى للدكتوراه التى كانت عن الفكر التربوى فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى أن لفت نظرى بعثة بريطانية علمية لا أذكر بالضبط ، من كمبردج أم من أكسفورد ، جاءت مصر عام ١٨٨١ ، لتبحث فى صحراء مصر الشرقية عن اللهجات المحلية ، فتجمع لدى أعضاء البعثة الكثير من المعلومات لا عن اللهجات فحسب ، بل وكافة الطرق والمسالك ، وعقد علاقات صداقة وود مع مشايخ القبائل ، فضلا عن الهدايا المالية الكبيرة ، حتى إذا جاءت الجيوش البريطانية فى عام ١٨٨٢ من الشرق ، على عكس ما تصور زعماء الثورة العرابية حيث توقعوا أن تجيئهم من الغرب ، كان بين أيديهم صورة شبه كاملة عن مختلف المسالك والدروب ، بل وعلاقات حسنة مع زعماء القبائل ، فكان ذلك من أبرز الأسباب

غير المعلنة التى سهلت للجيش الغازى أن يعرف طريقه بسرعة إلى القاهرة ويطبق على مصر !

ومن المعروف أن البعثات العلمية التى اتجهت للكثير من البلدان الإفريقية والآسيوية للقيام بدراسات " أنثروبولوجية " ، مثلما أفادت العلم ؛ فقد أفادت كذلك قوى الغزو الأوروبى فى احتلالها وسيطرتها العسكرية والسياسية ، وبعض هذه البعوث كان ممولا من قوى استعمارية •

ولسنا نحن الذين ننفرد بهذا الرأى ، فإدوارد سعيد ، صاحب الدراسة الفريدة عن الاستشراق ، فضح هو أيضا الثقافة التى وظفت عن طريق الاستشراق لأغراض امبريالية تتحدث عن جلب الحضارة لشعوب بدائية أو وحشية وبربرية •

وفضلا عن هذا فبالإمكان تسجيل عدد من الملاحظات :

- يلتزم المستشرقون الكثير من الموضوعية عندما يكون حديثهم عن الديانات الوضعية ، فنجد التقريظ والمديح ، والتماس الأعذار لهم إذا ما ظهر أمر ينقص من قدرهم ، وعلى العكس من ذلك عندما يكون الحديث عن الإسلام والمسلمين ، فكأنهم بهذه الصورة يفتشون عن أى أمر يمكن أن يسىء إلى الإسلام والمسلمين ، فإذا لم يوجد ، كان التفسير المتعسف الظالم •
- وهذا ينقلنا إلى الخلط الدائم بين " الإسلام " ، و" المسلمين " ، فالانحرافات التى يرتكبها عدد من المسلمين سريعا ما تنسب إلى الإسلام نفسه ، بينما تقرر الحقيقة الاجتماعية والتاريخية أن كل مجتمع غالبا ما يضم نفرا ممن يخرجون عن حدود السوية ، ففى الغرب نفسه كثيرون يزنون ويسكرون ويقامرون ويسرقون ، لكن من غير المتصور أن يترتب على هذا اتهام المسيحية بأنها هى التى غرست فيهم ذلك ، بل يمكن القول أنهم ارتكبوا ما ارتكبوه لأنهم حادوا عن المسيحية ، ومن ثم يكون المنطق أن صور

العنف المرتكبة من جانب مسلمين ، لا ينبغى أن تتخذ شاهد اتهام للإسلام بالعنف والإرهاب .

- كذلك نلاحظ تركيزا واضحا على بعض الفرق التى عرفناها فى البلـدان الإسلامية منحرفة عن الإسلام ، مثل البهائية ، والقاديانيـة ، والبابيـة ، وغيرها .
- وهناك حرص غريب على تسمية المسلمين من قبل بعض المستشرقين " بالمحمديين " ، تماما كما نقول " الماركسيين " ، وهى تسمية تحمل تسليما ضمنيا من الكاتب بأن " محمدا " هو الذى ابتدع الإسلام ، ولم يكن وحيا من الله .
- وغريب أن نسمع ترويجا فى مجال فكر الإصلاح والتطـوير ، لفكـرة تطوير " الإسلام " وإصلاحه ، خلطـا بـين " الإسـلام " كمـا تعكسـه النصوص الثابتة فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، وبين صورة الإسلام عند هذا وذاك من المفكرين . ولا نريد أن نفتح الباب فى هـذا الحيـز المحدود لمناقشة الفكرة التى تقول أن النصوص نفسها الموسومة بالثبات تمر من خلال عقول بشر ويمكن بالتالى أن تتلون تفسيراتها بما يرى هذا وذاك ، ونكتفى بالقول بأن هناك نصوصا واضحة لا يختلف إزاء تفسيرها الفقهاء ، ومعظمها إن لم تكن كلها مما يتصل بالأصول والمبادئ الكلية ، أما الفروع والجزئيات والتفصيلات ، فمقصود أن تكون ساحة للاجتهـاد بالرأى والتطوير وفقا لمتغيرات الزمان والمكان ، دون ما مصادمة مـع المبادئ الكلية والأصول العامة .

ومنذ بداية القرن العشرين تحول اهتمام المستـشرقين عـن الدراسـات الإسلامية القديمة إلى الدراسات الإسلامية الحديثة التى تتـابع تطـور الفكـر الإسلامى والمجتمعات الإسلامية فى مختلف بلاد المسلمين ، وهـى دراسـات موجهة وهادفة ، يساير تطورها تطور السياسة الاسـتعمارية واتجاههـا إلـى

التغريب ، وذلك واضح من كلام " جب " H.A.R. Gibb الذى قدم به مجموعة البحوث التى قام بها عدد من المستشرقين تحت عنوان (إلى أين يتجه الإسلام ؟) ? Whither Islam والذى ظهر سنة ١٩٣٢ ، فهو يقرر فى هذه المقدمة أن مشكلة الإسلام – بالقياس إلى الأوربيين – ليست مشكلة (أكاديمية) فحسب ، فإن لتعاليم الدين الإسلامى من السيطرة على المسلمين فى كل تصرفاتهم ما يجعل له مكانا بارزا فى أى تخطيط لاتجاهات العالم الإسلامى ، فالإسلام ليس مجرد مجموعة من القوانين الدينية ، الواجب على أتباعه الالتزام بها ، ولكنه حضارة كاملة (محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، ص ١٠١) .

ولقد تصدرت الولايات المتحدة الدول الغربية فى اهتمامها بالإسلام بعد الحرب العالمية الثانية ، ومن أبرز مظاهر هذا الاهتمام سلسلة مؤتمرات أولها عقد فى جامعة برنستون بأمريكا فى مارس ١٩٤٧ لدراسة الشئون الثقافية والاجتماعية فى الشرق الأوسط الذى كان يسمى الشرق الأدنى ، وقد ترجمت بحوث هذا المؤتمر إلى العربية تحت رقم ١١٦ من مشروع الألف كتاب الأولى بإشراف إدارة الثقافة العامة فى وزارة المعارف (التربية) ، وكان المؤتمر الثانى هو (مؤتمر الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة) الذى عقد فى الجامعة نفسها بعد ذلك بست سنوات فى صيف عام ١٩٥٣ ، ثم كان المؤتمر الثالث هو المؤتمر الذى عقد فى لاهور بباكستان بعد ذلك بعامين ، وباء بفشل كبير حيث افتضحت الخطة التى تقوم على إشراك باحثين من المسلمين والمستشرقين فى توجيه الدراسات الإسلامية ، والاستعانة بهذا الأسلوب على تطوير الفكر الإسلامى والاقتراب من القيم الغربية ، تدعيما لما يراد إنشاؤه من صداقات تربط دول هذه المنطقة بالغرب من ناحية وتفتيت وحدتهم الحضارية من ناحية أخرى .

إرهاب غربى :

وربما يحتاج المرء إلى " كتاب " حتى يستشهد بكم كبير من الكتابات والمشروعات الغربية التى " ترهب " المسلمين وتبث سموم كراهية وحقد غربيين ، وخاصة فى عصور سابقة ، ومن هنا يمكن لنا أن نكتفى ببعض الأقوال المعاصرة التى كتبت وقيلت ، من بعد انهيار المنظومة الاشتراكية عامة والاتحاد السوفيتى خاصة :

ففى الواشنطن بوست ، نجد فى العدد الصادر فى ١٩٩٢/٣/٨ : " يبدو أن الإسلام مناسب لملء دور الشرير بعد زوال الحرب الباردة فهو ضخم ومخيف وضد الغرب ويتغذى على الفقر والسخط ، كما أنه منتشر فى بقاع عديدة من العالم ، لذلك يمكن إظهار خرائط العالم الإسلامى على شاشة التلفزيون باللون الأخضر ، كما كان العالم الشيوعى يظهر باللون الأحمر " .

وفى الفترة نفسها ، يجئ الكاتب الشهير " صموئيل هنتنجتون " بمقولته التى أصبحت على كل لسان ، والتى سعى من خلالها أن يصور ما بين الحضارتين الغربية والإسلامية من صراع يدور منذ ١٣٠٠ عام ، مؤكدا أنه " صدام حضارى " ، علما بأنه ينسب الحضارة الخاصة بهم إلى " منطقة جغرافية " ، بينما ينسب حضارتنا إلى " عقيدة دينية " ، وهو خطأ فى التصنيف واضح ، لكن ما يهمنا هو ما أثبته قائلا : " ...وقد حاولت الحضارات غير الغربية أن تكون حديثة دون أن تكون غربية ...ومن ثم يتوجب على الغرب على نحو متزايد أن يحتوى تلك الحضارات غير الغربية التى تقترب قوتها من قوة الغرب ، لكن قيمها ومصالحها تختلف إلى حد كبير عن قيم ومصالح الغرب ، وسوف يستلزم ذلك من الغرب أن يحتفظ بالقوة الاقتصادية والعسكرية اللازمة لحماية مصالحه فيما يتعلق بهذه الحضارات " .

أما الصحفى الأمريكى المعروف " فريدمان " فقد نقلت عنه صحيفة (وطنى) المصرية بتاريخ ٢٠٠١/١١/٢٥ ، ما كتبه قائلا : " إن الحرب

الحقيقية فى المنطقة الإسلامية هى فى المدارس ، ولذلك يجب أن نفرغ من حملتنا العسكرية ضد ابن لادن بسرعة ونخرج ٠٠٠وعندما نعود (من أفغانستان) يجب أن نكون مسلحين بالكتب الحديثة لا الدبابات ٠٠وفقط عندما تنمو تربة جديدة وجيل جديد ، يقبل ساستنا كما يحب شطائرنا ٠٠" ٠

ونقلت جريدة (الشرق الأوسط) بعددها الصادر فى ٢٠٠٢/٢/٢١ قول وزير العدل الأمريكى (أشكروفت) : " إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس ، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله " ٠ وفى هذا جهل واضح بالإسلام ، الذى تتردد فى كثير من آيات قرآنه الكريم مقولة " أن الله غنى عن العالمين " ، وأن الناس جميعا ، شرقيهم وغربيهم ، قديمهم وحديثهم ، لو اجتمعوا على استهلاك ما أتيح لهم ما نقص ذلك من ملك الله شيئا ، ولو سعوا إلى إضافة مثله ، ما زاد ذلك فى ملك الله شيئا ذا بال !

لكن كل هذا لا يمنعنا من الإشارة إلى آخرين ، على الرغم من قلتهم ، فإنهم قالوا كلمة إنصاف صريحة ، مثلما وجدنا لدى ولى عهد بريطانيا الأمير تشارلز الذى وقف فى مركز الدراسات الإسلامية فى جامعة أكسفورد فى أكتوبر من عام ١٩٩٣ يقول :

" لقد تشوه حكمنا على الإسلام ، لأننا حسبنا التطرف هو الأمر العادى والأساسى ٠ كثيرون من الناس هنا ينظرون إلى الشريعة الإسلامية على أنها قاسية وبربرية وغير عادلة ٠ إن صحفنا قبل الجميع تعشق الخوض فى هذه الأحقاد ، ولا تعرف أن روحانية الشريعة الإسلامية التى ينص عليها القرآن أساسها الرحمة والعدل " ٠

ونقل الدبلوماسى الألمانى السابق المعروف الذى أسلم " هوفمان " فى كتابه (الإسلام هو البديل) عن مستشرقة ألمانية " آنى مارى شميل " قولها : " إن من أكبر المصائب ، ميلنا الدائم إلى أن نساوى الإسلام اليوم بالأصولية

والإرهاب ، وهذا يعود إلى فهمنا الخاطئ للدين ، إلى جانب أن جهلنا بالإسلام يجعلنا نحكم على المظاهر التى تقدمها لنا وسائل الإعلام بشكل صور دامية تسلب منا كل قدرة على الموضوعية ، ولكن ، بالمقابل : عندما نسمع عن أعمال عنف في البلاد الأوربية ، هل نقول هذه هى المسيحية ؟ "

وإذا كان كثيرون يتصورون أن كل هذا إنما برز بعد اختفاء النظم الماركسية ، لكن الحقائق تشير إلى غير ذلك ، فالعداء كان يبث كثيراً من خلال قنوات مؤثرة ، لا على المستوى السياسى والعسكرى وإنما على مستوى تربوى اجتماعى نفسى ، حتى ما كان يوجه للأطفال ، وعلى سبيل المثال كانت الصحف الأمريكية تنشر يوميا ما يسمى بال" comic stris " ، وهى عبارة عن مجموعة من الرسومات المرفقة بتعليقات هزلية ساخرة عن مغامرات أو موضوعات مضحكة ، كذلك وجد ما يسمى بال " comic books " ، وهى كتب أو مجلات ملونة تحتوى على قصص مصورة متعاقبة ، وتتمتع كل من هذه الرسوم والكتب (أو المجلات) بشهرة واسعة بين الأمريكيين ، بل إن الكثير من الأمريكيين لا يقرأون شيئا آخر غير هذه القصص الهزلية المصورة ال (comic) ، وتؤثر هذه القصص الهزلية المصورة على المواطن الأمريكى فى تكوين صورته عن العالم الخارجى) •

وغالبا ما تظهر هذه القصص الهزلية العرب بصورة أوغاد ، جبناء ، بدو ، شهوانيين ، شيوخ قبائل متوحشين ، مساومين مكارين ، وفى معظم الأحيان تكون أنوفهم معقوفة ، ولحاهم غير مهذبة• ونموذجا لذلك نرى فى إحدى قصص المجموعة المسماة ب " Little Orphan Annie " يظهر على سبيل المثال رجل عربى ذو أنف معقوف وملامح شريرة ، اسمه Bahd- Simel (من صفة bad للإيحاء بأنه خبيث ، وسيىء الأخلاق) ويقوم هذا العربى باختطاف البطلة Annie ويعلن أنه لن يفرج عنها إلا فى مقابل فدية من المال

(الكاتب السويسرى الدكتور رتو بيت : صورة العرب فى أمريكا ، ترجمة وتعليق ثابت عيد ، نهضة مصر ، ص ١٣) .

أما مسلسل القصص الهزلية المعروف ب Barbara Cortland.s Romances ، وهى قصص كانت تنشر فى كثير من الصحف الأمريكية يوم الأحد من كل أسبوع ، فكانت تظهر فى إحدى قصصها فتاة إنجليزية شابة تذهب إلى سوريا بحرا للبحث عن ابنة عمتها المفقودة ، وفى السفينة ترى هذه الإنجليزية كيف يقوم سائس عربى بتعذيب أحد الخيول ، ثم يقوم بعد ذلك أحد شيوخ البدو العرب باختطافها ، ويحاول إجبارها على الزواج منه ، وتظهر هذه الصورة السلبية والمشوهة للعرب بصورة مستمرة فى مسلسلات القصص الهزلية .

وتشير كثير من الدراسات واستطلاعات الرأى إلى أن كثيرا من الغربيين عامة ، والأمريكيين خاصة ، ليست لديهم معرفة ولو بسيطة بأساسيات الإسلام ، وجل ما يتلقونه على هذا الطريق إنما هو من خلال وسائل الإعلام التى تحكمها أهواء السياسة ، وفى صورة قريبة من هذا ، نجد استطلاع رأى أخير بين الأمريكيين أجراه مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية " كير " الذى يديره الناشط الإسلامى المعروف نهاد عوض ، منذ فترة قصيرة ، وظهر منه أن ٢% فقط من الأمريكيين هم الذين لديهم معرفة كافية بالإسلام ، وأن ٦٧% لا يعرفون أى شيء إطلاقا عن الإسلام ، ونسبة تقترب من ال ٣٠% لديهم اقتناع بأن ممارسة العنف هى من صميم تعاليم الدين الإسلامى !!

وإزاء ما يلمسه كثيرون من المسلمين ويرونه على شاشات التلفاز وعبر موجات الأثير ، على صفحات الجرائد والمجلات ، من حيث سيلان دماء عدد غير قليل من أهل ملتهم بصفة تكاد أن تكون يومية ، يبحثون عما وراء كل هذا ، فيجدون القوة الأمريكية والنفوذ الصهيونى ، فتشتد مشاعر العداء وتتزايد يوما

بعد يوم مما يغرى بدوره قيام البعض ببعض أعمال عنف مسلح ضد من يرونه سببا أو دافعا وراء هذا ٠

ومن هنا فقد نشرت الأهرام فى ٢٠٠٦/١٢/١٦ نتائج الاستطلاع السنوى الذى تجريه مؤسسة " زغبى العربية – الأمريكية " ، المعروفة ، حيث كشف عن تدهور نظرة جمهرة غير قليلة من العرب تجاه الولايات المتحدة فى العام الحالى بسبب فشلها فى حل النزاع الفلسطينى – الإسرائيلى ،وحربها ضد العراق ٠ ٠

وأشار الاستطلاع الذى أجرى فى منتصف نوفمبر فى مصر والسعودية والأردن ولبنان والمغرب ، وهى كلها دول توصف بالاعتدال ، وصديقة للولايات المتحدة ، إلى أن الأوضاع فى الأراضى الفلسطينية والعراق أثرت بشكل كبير على ثقة العرب فى نمو الاقتصاد والاستقرار السياسى فى مناطقهم٠

وقال جيمس زغبى رئيس المؤسسة أنه إذا كانت واشنطن ترغب فى إنقاذ نفسها وتحسين وضعها والحصول على المصداقية والشرعية التى تحتاج إليهما للتوصل إلى تسوية للأزمتين فهى تحتاج إلى بذل مزيد من الجهد لكسب ثقة حلفائها بالمنطقة ٠

وقال ٨٣ % ممن شملهم الاستطلاع فى مصر و ٨٢ % فى السعودية إن صورة واشنطن وقيمها وشعبها وثقافتها قد تراجعت عام الاستطلاع ٠ وكانت أكبر الزيادات فى وجهة النظر السلبية بشأن الولايات المتحدة فى الأردن ، حيث ارتفعت معدلاتها إلى ٩٠% مقارنة ب ٦٢ % فى العام الماضى ، كما كانت وجهات النظر بشأن أفلام السينما الأمريكية والديموقراطية السلبية بعد أن كانت إيجابية فى أغلب الدول الخمس ٠ واحتل التعليم فى أمريكا فقط وجهة النظر الإيجابية ٠

جهود على طريق التحاور :

وفى التقرير الاستراتيجى العربى ٢٠٠٦ (ص ٢١) الذى يصدره مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، لخص السيد ياسين مـا سـبق أن فصله من قبل عن تمركز أوربا حول الذات الحضارية الغربية دون غيرها مما يضاف إلى ما سبق من تفسيرات ، ومن تجليات هـذه المركزيـة أن أسـماء المناطق الأساسية فى العالم صيغت تكريما للرحالة أو للساسة الأوربيين مثـل بحيرة فيكتوريا فى إفريقية ، أو تحت تأثير رؤية العالم الأوربيـة : فالـشرق الأوسط – على سبيل المثال – يصف منطقة – هى على الشرق قليلا بالنـسبة لأوربا ، كما أن الشرق أو الشرق البعيد هو فى اتجاه شـرق أوربـا كمـا أن الغرب يعنى أوربا الغربية ٠

والشئ نفسه نجده فى مجال تاريخ العلوم والذى يـدرس باعتبـاره بـدأ بالإغريق ثم انتقل إلى الرومان ، وتوقف أثناء مرحلة القرون الوسطى ، وبعد ذلك استمر نموه مع فترة النهضة والثورة الصناعية ، ونادرا مـا يـرد ذكـر الإنجازات الآسيوية أو العربية أو الفرعونية أو الإسلامية فى تاريخ العلـوم ، ولعل هذا ما دفع مؤرخ العلوم الإنجليزى الشهير " نيدهام " إلى أن يكتب كتابا شهيرا ركز فيه على الإنجازات الصينية فى العلوم والتكنولوجيا ٠ وفى نفـس السياق تستمد اكتشافات ومؤلفات مؤرخ العلم العالمى المصرى الدكتور رشدى راشد مدير الأبحاث بالمركز القومى للبحث العلمى فى فرنسا والأستاذ بجامعة طوكيو سابقا أهميتها ، فقد استطاع أن يعيد كتابة تاريخ العلم العالمى فى ضوء تحقيقه ونشره لمخطوطات عربية وإسلامية ، تثبت سبق العـرب والمـسلمين لعديد من العلماء الأوربيين من أمثال ابن الهيثم والكندى والحـسن البـصرى وغيرهم كثيرون ٠

وعلى الرغم من جهود تبذل للحوار بـين ممثلـين للحـضارة العربيـة الإسلامية وممثلين للحضارة الغربية ، دفعا لصور التباس فى المفاهيم الـسائدة

لدى الطرفين تجاه الآخر إلا أن الكثير منها يدور بين " نخب " ، ولا يمتد إلى " الشارع " ٠٠إذا صح هذا التعبير ، ومن ذلك تلك الندوة التى نظمها منذ أكثر من عام على وجه التقريب المجلس المصرى للشئون الخارجية وأدارها السفير عبد الرؤوف الريدى رئيس المجلس مع وفد " الحوار الأمريكى الأوربى العربى " فى أول لقاء للفود فى مصر وفى أى دولة عربية ٠

كانت الآراء المتبادلة بينهم وبين المجموعة التى تمثل المجلس فى هذا اللقاء تظهر تقاربا فى الرأى تجاه بعض الجوانب المغلوطة لصورة الإسلام ، وقد تفهموا خطأ المقولة الرائجة فى الغرب عن صدام بين الإسلام والغرب ، وأنه فى الحقيقة صدام للغرب مع جماعات متطرفة لها تفسيرها الذى يخصها للإسلام ، والذى جعلها فى صدام مع مجتمعاتها المسلمة ٠ وكذلك خطأ فصل الإرهاب عن تردى الأوضاع فى الشرق الأوسط بسبب الحيلولة دون حل عادل للقضية الفلسطينية ٠

ورغم محاولات الحوار ، إلا أن الرأى العام فى الدول الإسلامية يصدم من حين لآخر نتيجة حدث يفجر طاقات الغضب المكبوتة ، ولعل أشهرها ما سمى بأزمة الرسوم الدينماركية نتيجة لنشر صحيفة " جيلاندز بوستن " فى ٣٠ سبتمبر عام ٢٠٠٥ مقالا بعنوان (وجه محمد) ، مع اثنى عشر رسما مسيئا لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، وللدين الإسلامى ٠ وأثار النشر ردود فعل غاضبة من الجالية الإسلامية فى الدانمارك التى بعثت رموزها الدينية برسائل اعتراض لرئيس وزراء الدانمارك ، كما أثارت ردة فعل دبلوماسية من قبل سفراء عشر دول عربية وإسلامية فى الدانمارك هم ليبيا ، والمغرب ، ومصر ، والسعودية وتركيا ، وإيران ، وباكستان ، وإندونيسيا ، والجزائر ، والبوسنة والهرسك ، ورئيس الوفد الفلسطينى ، فقد أرسل هؤلاء مجتمعين رسالة احتجاجية مشتركة إلى رئيس وزراء الدانمارك بعد النشر بحوالى عشرة أيام فى ١٢ أكتوبر ٢٠٠٥ مطالبين بمقابلته لمناقشة ما اعتبروه حملة إعلامية

مشوهة للإسلام فى دوائر الإعلام الدانماركية من مظاهرها تعليقــات محطــة إذاعة هولجر ، والتى تم إدانتها قضائيا ، وتعليقات نائبة البرلمان والمرشــحة لمنصب عمدة كوبنهاجن " و" لويس فريفيرت " فى موقعها على الإنترنت والتى تصف فيها الإسلام بال" سرطان " ، وتصريحات وزير الثقافة " بريان ميكيلسين " حول ما أسماه بالحرب ضد المسلمين . وأخيرا دعوة صفحة الثقافة التابعــة لصحيفة " جيلاندز بوستن " لنشر رسوم كاريكاتورية تصور رسول الله صــلى الله عليه وسلم والتى انتهت بنشر الرسوم المسيئة .

وكان رد رئيس الوزراء الدانمركى أن تجاهل طلبهم لقاءه ، وأشار إلى أن المجتمع الدانماركى مؤسس على حرية التعبير باعتبارهــا الــسمة الأساســية للديموقراطية ، وأن الحكومة لا تملك سيطرة على حرية الــصحافة ، ويــسأل الفرد منا : فإذا ما انتقد عربى أو كمسلم الصهيونية ، أو اليهودية (وقلما يحدث هذا) ، هل يقولون أن هذه حرية فكر ؟ كلا ، بل تقوم الدنيا ولا تقعد اتهامــا للناقد بمعاداة السامية التى شرعت لها تشريعات ، مع أن العرب أنفــسهم مــن الساميين !

ولعل ما أجج المسألة أكثر هو أن الصحيفة الدانماركية أعادت نشر الرسوم مرة أخرى ، وتداولتها صحف أخرى وصل عددها إلى ١٤٣ صحيفة فــى ٥٦ دولة تضامنا مع الجريدة الدانماركية ، إضافة إلى عدد من مواقــع الــصحف الإلكترونية بلغ فى أوربا حوالى سبعين موقعا ، وفى الولايات المتحدة أربعــة عشر ، وفى كندا ثلاثة مواقع ، وفى استراليا موقعين ، وفى نيوزيلنــدا ثلاثــة مواقع ، وفى اليابان موقعا (التقرير الاستراتيجى ، ص ١٦٢) .

وأشار تقرير لجنة الشئون الخارجية إلى أن روس تعرض لتهديدات فى ذلك الوقت من أنه لو أعلن موقفه هذا فإنه يكون بذلك قد خــرق قــانون الأســرار الرسمية ، الأمر الذى كان يعرضه للسجن بالضرورة !

وآخر المشاهد التى حفلت بها التقارير الإخبارية عقب إعلان نتائج انتخابات الكونجرس الأمريكى ، هو هذا الذى تعلق بفوز نائب أمريكى أسود مسلم هو " كيث أليسون " عن ولاية منيسوتا " ، وهو الحادث الذى جرى لأول مرة ، علما بأن أغلبية سكان الولاية ليسوا من المسلمين ، أى أن الأمريكيين ، على المستوى الشعبى ، لم يجدوا غضاضة فى اختيار هذا النائب المسلم ، لكن قوى اليمين المحافظ كان لها موقف آخر !

فقد أعلن " اليسون " أنه سوف يؤدى اليمين فى احتفالات الكونجرس بالقسم على القرآن الكريم ، حيث أنه هو الكتاب المقدس الذى يؤمن به ، هنا قامت الدنيا ولم تقعد لدى بعض المتنفذين :

فالكاتب اليمينى " دينس براجير " يكتب مقالا يمتلئ بالثورة العارمة على النائب المسلمين ، عنونه بعنوان استهدف منه استثارة العواطف والمشاعر الوطنية الأمريكية وهو (أمريكا وليس اليسون من يحدد الكتاب الذى يقسم عليه أعضاء الكونجرس) ، مشددا على أن استخدام القرآن فى مثل هذه المناسبة هو ضد الحضارة الأمريكية وقيمها وتراثها !

وهذا المقال المتشنج ، يكذب على المواطن الأمريكى بفعل عوامل ضغينة وكراهية مريضة ، ذلك أن أروع ما فى الحضارة الأمريكية أنها أكثر من غيرها قد انفتحت على مختلف العقائد والمذاهب والأفكار والأعراق .

وفى الاتجاه نفسه نشر النائب الجمهورى " فيرجيل جودى " محذرا بأن السماح للنائب المسلم باستخدام القرآن يمكن أن يشجع على مزيد من هجرة المسلمين إلى أمريكا ، وبالتالى تكون هناك فرص أكثر لانتخاب مزيد من النواب المسلمين فى الكونجرس وهو ما يشكل خطرا على أمريكا !!

لكن الحق يقال ، فقد وقف كتاب آخرون وراء النائب المسلم ، والغريب أن بعض هؤلاء كانوا من اليهود ، حيث أعاد ذلك إلى ذاكرتهم ما كانوا يواجهونه من قبل من عقبات ضد اندماجهم فى المجتمع الأمريكى ، وبالتالى فإن نجاح

الحملة على النائب المسلم قد يمهد الطريق فيما هو مقبل من سنين لأن يبرز من يردد الدعوى نفسها مع اليهود !!

سياسات تحكمها مصالح :

ومن الملاحظ على المفهوم الأمريكى للأمن بعد ١١ سبتمبر أنــه ارتــبط بتوجيه الحرب إلى جانبين (المرجع السابق ، ص ١١٥) إنهاء حالة الطغيان على اعتبار أنها التربة المناسبة لإنبات مشاعر الحقد والعنف ، والثانية ، هــى الإرهاب ، لكن على المستوى التطبيقى يــرتبط الطغيــان بالعــالم الإســلامى والشرق الأوسط ، فمتابعة خطاب المسئولين الأمريكيين تشير إلى تركز حالــة الطغيان وارتباطها بالدول العربية والإسلامية بالأساس • ولا شك أن ما أشار إليه البعض من التمييز الأمريكى فى التعامل مع كل من الهند وباكــستان هــو جانب من هذا التحديد ، ففى الوقت الذى يتم به توقيع اتفاق للتعاون النووى مع دولة مثل الهند ، لا تسمح الولايات المتحــدة لإيــران بتخــصيب اليورانيــوم لأغراض سلمية • أكثر من ذلك ، لم تبرم الولايات المتحدة اتفاقا مماثلا مــع باكستان رغم تحالف الأخيرة مع الولايات المتحدة فى حربها ضد أفغانــستان ، إلى الدرجة التى يمكن القول معها أنه لولا ما قدمته باكــستان لأمريكــا كــان الموقف سيصبح صعبا للغاية لها •

ومن الناحية الديموقراطية ، فالمشهد الذى شــهدته أرض فلــسطين منــذ الانتخابات التشريعية وفوز حماس أبلغ من أن يحتاج منا إلــى تحلــيلات لمــا تعاقب بعد ذلك من حصار إلى درجة التجويع ، فالمــسألة لــم تكــن مجــرد ديمقراطية بقدر ما هى " نتائج " الديموقراطية ، فإن جاءت بما يتفق والمصلحة الأمريكية فهى مجازة ، وإن لم يكن فهى تصب فى خانة ما لا يجب الاعتراف به ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك ، التحالف الواضح بين الولايات المتحدة وبعض

النظم العربية التى يستحيل على أحد أن يزعم ديموقراطيتها ، لكنها تحقق لهــا العديد من المصالح ٠

فإذا أضفنا المشهد الفلسطيني مع المشهد اللبنــانى ســوف نــرى عجبــا ، فالحكومة فى كلا البلدين جاءت نتيجة انتخابات ، لكــن ، لأســباب لا داعــى لذكرها فى هذا المقام ، شهدت لبنان تحركا ضخما من قوى أساسية فاعلة تدعو إلى انتخابات جديدة ، وفى مسلسل التنازع بين معــسكر الــسلطة الفلــسطينية ومعسكر حماس، دعا محمود عباس فى فلسطين إلى انتخابات جديدة ، واختلف رد الفعل الأمريكى خاصة والغربى عامة ، فهناك كان رفض لانتخابات جديدة فى لبنان وووصفت الحكومة دائما على ألسنة الغربيين بأنها شــرعية ، بينمــا وجدنا ترحيبا فوريا بدعوة عباس إلى تغيير الحكومة المنتخبة ، والتفسير ليس عسيرا على أى مراقب !

ولنتأمل جيدا فى بعض المؤشرات التى شهدتها ، وما زالت ، المنطقة مــن أحداث منذ انهيار الاتحاد السوفيتى حتى نضع أيدينا على الإجابة الأقرب على الحقيقة عن السؤال المطروح فى العنوان :هل ما هو قائم الآن هــو صــراع حضارى أم صراع مصالح ؟

إن الولايات المتحدة عندما وضعت ثقلها وراء " مجاهدى " أفغانستان وقت الاحتلال السوفيتى ، منذ أواخر السبعينيات ، هل كانت تجهل إسلاميتهم ؟ كلا بالطبع ، لكن مصالحها اقتضت الاعتماد عليهم فى محاربة الماركسية ، نظــرا لما تعرفه من تناقض معروف بين الماركسية والإسلام ، ووصل أمر التعــاون مدى بعيدا حتى إلى درجة فتح الخزائن المالية من دول صديقة فــى المنطقــة للولايات المتحدة للمجاهدين ٠ وعندما سقط الاتحاد الــسوفيتى ، هــل تغيــر الإسلام ، فأصبح إرهابيا بعد أن كان جهاديا ؟ نعم ٠٠٠فحرب المسلمين ضــد الماركسية " جهاد " ، لكنها عندما توجه إلى النفوذ الأمريكى ، وإلى الاحــتلال الأمريكى تصبح إرهابا !

إن لدى الأمريكان من غير شك مراكز بحث ودراسات إسلامية ، وعلماء أفذاذ ، فهل لم ير كل هؤلاء أن الإسلام يحث أتباعه على مقاومة أى صورة من صور الهيمنة ، خاصة من قبل " الآخر " على بلادهم وقرارهم وعلى ثرواتهم ، ماركسيا كان أم رأسماليا ؟ شرقيا كان أم غربيا ، وأن هذا صورة من صور الجهاد " المطلوب " ؟!

وليس هذا الجهاد مطلوبا فقط فى مواجهة " الآخر " ، بل هو مطلوب كذلك حتى فى مواجهة أى صورة من صور الظلم الاجتماعى والسياسى التى تتبدى فى شكل قهر وسوء الاستغلال ، حتى لو كان مصدرها من داخل الديار المسلمة ، وعبر الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى عن ذلك فى مقولته الشهيرة التى أكد فيها عجبه من مسلم ينام وهو جوعان ، بينما جاره شبعان ، كيف لا يخرج عليه شاهرا سيفه ؟!

وهاهو المشهد العربى فى كل من العراق ولبنان ، تجد عجبا آخر : ففى العراق تجد مؤازرة أمريكية للشيعة ، بينما نجد العكس من ذلك تجاه شيعة لبنان ، حيث الهجوم عليهم والتنديد بهم ، وتحريض فئات أخرى من اللبنانيين عليهم وتخويف السنة منهم ، حتى ولو كان يمهد الأرض لفتنة لا قدر لها بين أبناء هذا البلد .

التفسير ليس عسيرا ، فشيعة العراق – فى الغالب والأعم – هم سند الاحتلال الأمريكى فى العراق ومعاونوه ، وصلاتهم بإيران ليست مجهولة ، لكن لا يندد بها ، بينما شيعة لبنان ضد المشروع الأمريكى ، وهم عدو لدود للمشروع الصهيونى ، فلو كان الصراع حضاريا ، فما الفرق بين ثقافة ومذهبية شيعة العراق وما يماثلها بالنسبة لشيعة لبنان ؟

إنها المصالح الأمريكية عندما تتلبس هذا الثوب الزائف .. الحضارى !

وهم يبشرون بأنهم يروجون للنموذج الديموقراطى بين شعوب المنطقة ، فهللوا لنتائج انتخابات مشكوك فى ديموقراطيتها فى العراق حيث جرت وهناك

عشرات الآلاف من جنود الاحتلال من دول مختلفة ، وحرب طائفية ، واختفاء لأبسط مظاهر الأمن ، وإقصاء لفرق من الناس بحجة أنهم من أركان النظام السابق ...

فإذا ما جئت إلى أرض فلسطين مرة أخرى فتجد انتخابات جرت بمراقبة العالم كله ، لم تسجل عليها شائبة ، جاءت بحماس ، فإذا بأمريكا تقيم الدنيا كلها تحريضا ضد ما حدث ، ومنذ شهور والحصار مفروض على ملايين الفلسطينيين ...فإذا كان من منجزات الحضارة الغربية : الديموقراطية التمثيلية ، فلماذا تمدح الصورة المنقوصة فى العراق ، وتحاصر الصورة النزيهة فى فلسطين وتجوع أهلها ؟

لأن فوز من فازوا فى العراق يدعم الاحتلال الأمريكى ، وفوز حماس يهدد المصالح الأمريكية عامة والإسرائيلية خاصة !

وهل كان من آيات الحضارة الغربية أن يقف وزير خارجية أقوى دول العالم في مجلس الأمن ليقول كذبا على الدنيا كلها ، من أجل تبرير غزو العراق؟ هل كان هذا صراعا حضاريا ؟

وقد نشرت الأهرام فى ٢٠٠٦/١٢/١٦ أن وثائق بريطانية جديدة كشفت النقاب عن أن حكومتى الولايات المتحدة وبريطانيا كذبتا في الادعاء بأن العراق يملك أسلحة دمار شامل لتبرير الحرب عليه وإسقاط نظام صدام حسين .

وأكدت الوثائق أن لندن وواشنطن كانتا على اتفاق فى أن تغيير النظام العراقى سيؤدى إلى الفوضى التى يراها العالم الآن بالعراق .

وجاءت هذه الوثائق ضمن تقرير صادر عن لجنة الشئون الخارجية بمجلس العموم البريطانى حول تحقيق كان قد أجراه لورد بتلر عقب بداية الحرب على العراق ، فى موقف الاستخبارات التى قيل أن لديها أدلة تبرر الحرب . وكانت لجنة بتلر قد برأت الحكومة البريطانية من تهمة المبالغة فيما وصف بالمعلومات والأدلة الاستخباراتية لتبرير الحرب على العراق .

وفقا لتقرير نشرته صحيفة " الإندبندت " فى ١٥/١٢/ ٢٠٠٦ فإن " كارن روس " كبير المفاوضين البريطانيين فى الأمم المتحدة شهد أمام اللجنـــة بـــأن الحكومة البريطانية لم تكن تعتقد بامتلاك النظام العراقى أســلحة كيميائيـــة أو بيولوجية أو مواد نووية ، وأشار إلى أن لندن لم تكن ترى أن العراق يهدد أمن بريطانيا أو الولايات المتحدة ، ولم يكن ينوى مهاجمة الدول المجاورة !

ويطول بنا المقام حقا لو استمر استقراؤنا للشواهد العملية ، فهـــى كلهـــا تؤكد بما لا يدع مجالا للشك ، أن الصراع صراع مـــصالح ولـــيس صـــراع حضارات !!

حق القـــــوة*

من يملك القوة – المادية خاصة – يملى إرادته بحيث يحصل على مـا يريد ، ويصبح هذا الذى أراد وكأنه حق له ..

انظر إلى الولايات المتحدة فى السنوات الأخيرة ، وخاصة منـذ انهيـار المنظومة الاشتراكية وانفرادها بالقوة فى العالم ، فما تفعله يبدو وكأنـه هـو " الحق " ، وما دونه هو الباطل ...

فهى تملك قدرات نووية لا تملك مثلها دولة أخرى ، ومع ذلك ، فهى تمـلأ الدنيا صراخا وصخبا وعويلا ، لماذا ؟ لأن دولة مثل إيران بدأت السير نحـو امتلاك قدرات نووية ، رغم أن الولايات المتحدة لم تُظهر هذا الانزعاج عندما أعلنت الهند أنها قد أصبحت مالكة للقنبلة النووية ، وكذلك باكستان ، لا مجرد اكتشاف أن كلا منهما فى طريقه إلى ذلك مثلما هو الأمر بالنسبة لإيران ؟

وقد تعايشت أمريكا سنوات غير قليلة مع امتلاك عدوها – الـذى كـان – الاتحاد السوفيتى ترسانة نووية ضخمة ، وكذلك الصين ، فلماذا هـذا الفـزع والانزعاج الآن ؟

المسألة ليست مجرد مغايرة ومخالفة بين سياسة الدولتين ، أمريكا وإيران ، فكما قلنا ، لقد سبق أن حدث هذا مع الاتحاد السوفيتى الذى كان يشكل تهديـدا حقيقيا لأمريكا ، بينما لا تشكل إيران تهديدا حقيقيا لها .

هنا فتش عن إسرائيل ..فإيران ، بغير ذكاء مع الأسف الشديد ، أطلقـت تصريحات شديدة العداء ، عن طريق رئيسها أحمدى نجاد ، ضد إسرائيل ، إلى درجة التهديد بمحوها من على الخريطة ، مما يوفر مبررا قويا وشرعية لفزع إسرائيل ، وأن يقوم ممثلوها من قوى الضغط فى أمريكا بدفع الحكومة

---

* نشر بجريدة المصريون الإلكترونية ، في ٢١/١١/٢٠٠٧

الأمريكية كى تسعى إلى الحيلولة بين إيران وبين القوة النووية ·

ومنذ أن تأسست إسرائيل وهناك هذا الحرص الشديد على أن تكون هى " الأقوى " دائما ، فامتلاكها للقوة يتيح لها فرصة أن تفرض إرادتها فى عالم أصبح لا يعرف قوة للحق ، وإنما يعرف حقا للقوة ، بينما لو امتلك العرب قوة أكبر ، فهذا غالبا يمكن أن يؤدى إلى عودة الأرض الفلسطينية بكامل ترابها إلى أهلها ، وتختفى الدولة العنصرية ، مع الإقرار بالتعايش بين السكان أيا كانت عقائدهم ، لكن لا على أساس عنصرى ، بل على أساس المواطنة ·

وعندما قامت دولة العدو الصهيونى باغتصاب الأرض الفلسطينية ، اعتمد العرب على تكررا تلك الاسطوانة المشروخة بأنهم أصحاب حق ، وما داموا أصحاب حق ، فلابد أن ينتبه العالم إليهم ويعاونهم ، ولم يبذلوا ما يكفى من جهد لاكتساب أسباب القوة المادية وغير المادية ·

وفى المقابل كانت دولة العدو تكتسب قوة يوما بعد يوم ، والأدهى من ذلك وأمر ، حرصها الدءوب على أن تحول بين العرب وبين امتلاك أسباب القوة ، وخاصة القدرات النووية ، وكلنا نذكر ما حدث للعلماء الألمان الذين استعانت بهم مصر فى عهد ثورة يوليو حتى أجبرها على التخلى عن البرنامج النووى ، وكلنا يتذكر ما حدث للمفاعل النووى العراقى عام ١٩٨١ ، فى عز " شهر العسل " فى العلاقات بين مصر السادات وإسرائيل تحت مظلة سلام مزعوم · وكلنا يعرف ما حدث ويحدث لكل عالم عربى يُظهر نبوغا ويصل إلى مكتشفات علمية على الطريق النووى ، وكيف يكون مصيره فقد حياته بسبب من الأسباب التى تقف عندها أساليب التحقيق عاجزة ، أو متغافلة عن الوصول إلى الفاعل الحقيقى ، مثلما حدث للدكتور المشد ، والدكتورة سميرة موسى ، وسعيد بدير وغيرهم ·

لقد ملأت أمريكا الدنيا صراخا وصخبا قبل عام ٢٠٠٣ منبهة العالم بأن عراق صدام حسين يمثل خطرا على العالم بامتلاكه أسلحة دمار شامل ، ولا

زلنا متذكرين وزير خارجيتها عندما وقف أمام منبر الأمم المتحدة وعلى مسمع ومرأى العالم كله مستعرضا بالصوت والصورة ، ما أكد أنه أدلة على امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل ، ثم ثبت كذب كل ما قيل ، لكن :

من يستطيع محاسبة أمريكا على مئات الألوف من أرواح العراقيين التـي أزهقت ؟

ومن يحاسب أمريكا على مليارات الدولارات التى ضاعت من العراق ؟

ومن يحاسب أمريكا على مئات الألوف من العراقيين المـشردين خـارج ديارهم ؟

ومن يحاسب أمريكا على ما هو مستمر يوميا من حرب أهلية ؟

لا أحد ، فأمريكا إذ تملك القوة ، فهذا يعنى أنها تملـك حـق القـوة ، وإذا بالجميع يسيرون فى ركابها يبررون ، ويساندون ، حتى بنى جلدتنا ، فى بلداننا ، أكثر مناطق العالم تأذيا من أمريكا ، أصبحوا حلفاءها ، لماذا ؟ لأننا ضعفاء وهم أقوياء !!

والدارس لكيفية نشأة الولايات المتحدة الأمريكية يمكنه أن يجـد أضـخم وأصرح نموذج لكيفية قيام القوة بإنشاء الحق وفرضه ...

فكلنا يعرف أن شعبا من الهنود الحمـر كـانوا هـم أصـحاب الأرض الحقيقيين ، وأن جحافل شتى من البلدان الأوربية خاصة ، فى الفترات الأولـى هاجرت بفعل عوامل مختلفة للأرض الجديدة ، ليس وراء أحد منهم قوة عائلـة أو دولة أو تاريخ ، فكان الاعتماد بالدرجة الأولى علـى المـسدس والبندقيـة والحيلة والدولار ، وبفعل نجاح هذه الوسائل فى التمكين للمهاجرين من بنـاء دولة ، أصبح هذا هو النهج المعتمد ، مما جعل " حق القوة " مبدءا يمكـن أن يُستهجن فى الكتب ، لكنه منهج " واقعى " يشكل علامة الحياة المعاصرة .

حتى فى حياتنا اليومية ، نرى هذه الحقيقة البشعة فى كل لحظة وفى كـل مكان ...

مشهور لدينا المثل القائل أن " كلب الأمير لما مات ، لقى ناس تعزيـه ، ولما الأمير مات ، ملقاش حد يعزيه " !! التفسير معروف ، وهو يكمن فى هذه الحقيقة المرة : امتلاك القوة ، فالأمير ، أى صاحب السلطة والجـاه والمـال صاحب قوة ، ولذلك يصبح كل ما ينتمى إليه مكرما معززا ، وصاحب حـق ، حتى ولو كان كلبا ، لكن ، عندما يموت صاحب السلطة والنفوذ نفسه ، تموت معه قوته ، فلا يوجد من يسعى إلى أن يذكره عند أهله ٠

ربما يختلف الأمر بالنسبة للمفكرين الكبار ، فطـه حـسين ، وهيكـل ، والحكيم ، ولطفى السيد ، والعقاد ، وغيرهم ، تمثلت القوة لديهم فيما امتلكـوه من فكر ومعرفة ، فلما ماتوا ، ظلت مكانتهم ، واستمر تقديرهم ، وربما يزيـد هذا وذاك مع مرور الأيام والسنين ، لكن ، كم عندنا مثل هذا وذاك ؟

أعرف واحدا ، عندما عرف أن الوظيفة الجامعية العليا التى كـان علـى رأسها سوف تنتهى ولن يمدوا له ، أصيب بأزمة قلبية ، لماذا ؟ لأنـه يـستمد قوته من المنصب ، من الموقع ، فإذا ذهب المنصب ، وراح الموقع ، راحـت قوة الرجل وأصبح لا حول له ولا قوة ، وهذا على عكس ما حدث لطه حسين عندما عزلته حكومة إسماعيل صدقى فى أول الثلاثينيات من عمادة كلية الآداب ، حيث سارت جماهير الطلاب رافعة الرجل على الأكتاف هاتفين : لا عميد إلا طه حسين ، وما دامت الحكومة قد عزلته من العمادة ، فهو قائم بعمادة أخرى ، لا يملك أحد عزله منها ، ألا وهى عمادة الأدب العرب ، فأصبح عميـدا لـه طوال الحياة ، لأنه امتلك هذه القوة التى لا تاريخ صلاحية لها ٠٠قوة المعرفة والفكر ٠

لكن ، على المستوى السياسى والاجتماعى ، تظل القوة لمن يملك أسبابها المادية وغير المادية ، وبالتالى يتحدد صاحب الحق ٠

وعلى المستوى الداخلى ، تجد النظم الحاكمة تقوم على المنطـق نفـسه ، منطق " حق القوة " ، فهى تحكم بقوة حزب ينفرد بالساحة حيث تسخر له كـل

إمكانات الدولة ،حتى يصبح من العسير التفرقة بين ما يسمى بحزب الحكومة وبين الدولة نفسها ..

وعلى العكس من ذلك ، لا مانع من وجود مجموعة من الأحزاب " الديكورية " التى لابد من محاصرتها حتى لا تنمو أو تقوى ، ومع مرور الأعوام فإن جمودها يصرف الناس عنها ويفقدهم الأمل فيها فتفقد قوة التأثير والتوجيه .

ويعزز كل نظام أركانه بمظهر قوة عجيب ، لا يتبدى هذا المظهر فى إثبات حرية إرادته على الساحة الدولية ، ولا فى خدمة الفقراء والجماهير المستضعفة ، ولكن من خلال جيش ضخم من قوى أمن متعددة متوحشة ، فلا يلتفت أحد من الناس يمينا أو يسارا ، ولا إلى أعلى أو إلى أسفل إلا ويجد أمامه قوة ضخمة تبث الرعب فى القلوب وتنذر كل من تسول لـه نفسه باحتجاج والتمرد بأن يغيب فى السجون والمعتقلات .

جماهير الشعب المقهور تتصور أنها يمكن أن تفوز بالاعتماد على أنها تملك " قوة الحق " ، لكنها لن تحصل عليه ما دام هناك نظام متوحش يملك " حق القوة " !!

كلنا نشعر منذ سنوات بالتردى المستمر لحال النظام العربى ، حتى أصبح ساحة مستباحة لكل من يملك القوة ، ما عدا أهل البلدان العربية .

وعندما يكتب مثلنا ، وغيرنا منتقدا هذا الخضوع والخنوع الذى يخيم على ساسة العرب ، يصرخون بأنه لا قِبَل لنا بمواجهة إسرائيل وأمريكا لأنهما يملكان القوة ، ونحن لا نملكها ، والسؤال هو : إذا كنا بالفعل لا نملك القوة ، فهل أيضا لا نملك أسبابها ؟

يمكن أن نحتاج إلى صفحات طويلة لو حاولنا أن نعدد مظاهر وأشكال ما يملكه العرب من أسباب قوة مادية لا حصر لها ، لكن هذه القوة المادية بحاجة

إلى " إدارة " تقوم بها قيادة وطنية حقيقية ، وإلى قوة بشرية ، وهما الأمـــران المفتقدان حقيقة وواقعا .

فإدارة العالم العربى فى أيد كلنا يعرف تماما كيف جاءت ؟ ومن يسيرها ؟ وبأى أسلوب تدير بلداننا وطاقاتنا ، ولعل هذا أحد المظاهر التى تكشف عن أن القوى المهيمنة حريصة على ألا نخطو على طريق القوة .

أما القوة البشرية ، فلا نقصد بذلك ما يقصدونه فى هذا المجال مـــن قـــوى عاملة ، وإنما نقصد شعوبا مستنيرة تملك الجرأة على أن تكون صاحبة الـــشأن فى شئون بلدانها ، قادرة على المقاومة .

ولن ينصلح حال جناحى القوة فى عالمنا العربى إلا وفقا لنظام ديمقراطى حقيقى .

لم تعد هذه حقيقة تخفى على أحد ، لكن المشكلة ، أن شياطين الإنس مـــن كوكبة القاهرين والمستبدين والمنتفعين بهم إذ يملكون السلطة والنفوذ ، يتفننون فى امتصاص المطالب الديمقراطية بـــالتحكم بـــالقوانين والدســـاتير المنظمـــة للممارسة الديمقراطية ، فإذا بالأمور تتحول إلى ما يمكن تسميته " دسترة القهر والفساد " ، بتعديلات دستورية تشرع للممارسات القهريـــة مـــن قبـــل الدولـــة ،وتجريم الجهود المعاكسة التى تسعى على التمكين للممارسة الديمقراطية .

والمشكلة الكبرى حقيقة ، هى فى أن الجماهير العربية لا تعرف أن القـــوة الحقيقية فى يدها هى ، لا فى يد النظم القهرية ،مهما تسلحت بقـــوى بطـــش ، ومهما ملأت البلاد طولا وعرضا بالسجون والمعتقلات ، ومهما فبركـــت مـــن قضايا وزرت من محاكمات !

الثورة والدولة*

أنا واحد من المناصرين لحركة حماس الفلسطينية باعتبارها حركة مقاومة ، فضلا عن استنادها إلى المرجعية الإسلامية ، خاصة عندما أستمع لبعض رموزها ، وفى مقدمتهم خالد مشعل ، وممثل الحركة فى لبنان ، حيث ألمس التعقل والمنطقية فى الحديث والاتزان .

ولقد فرحت بناء على هذا عندما أسفرت نتائج الانتخابات الفلسطينية عن فوز الحركة ، لكننى حزنت للغاية عندما قبلوا أن يتقلدوا السلطة ، وما من يوم إلا وتصدق تخوفاتي ، وألمس أن حماس بدأت تفقد بعض أوراقها .

إن من الطبيعى أن تسعى كل حركة سياسية إلى السلطة كى تنفذ ما تريد من آراء وأفكار ، وهذا نفسه هو ما يدفعنا إلى الشعور بالسخرية إزاء دعوة كثيرين ممن هم فى السلطة فى الدول العربية ممن يكيلون الاتهامات لبعض الأحزاب والقوى والحركات من حيث أنها تسعى إلى تقلد السلطة ، فهذا أمر طبيعى ، ولكن يمكن ألا يكون طبيعيا إذا كان هذا السعى إلى السلطة يتم بوسائل تقوم على العنف المادى .

لكن ، فى الوقت نفسه ، فلابد أن تكون الظروف مهيأة لممارسة حقيقية للسلطة ..

وعلى الأرض المحتلة بصفة خاصة ، فإن الظروف كلها غير مهيأة أبدا ، حتى بالنسبة لهذا الكيان المفتعل الغريب المسمى بالسلطة الفلسطينية ، والذى يحظى برضا أعداء الأمة من الصهاينة والأمريكان . ومنذ أن تم هذا الاتفاق المشئوم ، اتفاق أسلو وأنا أتساءل : كيف يمكن أن تقوم " سلطة " على أرض يمكن أن تضرب فى أى لحظة ، وممزقة إلى " كنتونات " يمكن أن تحاصر

---

* نشر بجريدة المصريون الإلكترونية ، في ٢٠٠٧/٥/٣٠

وتغلق فى أى لحظة ، ولا يملك أحد حرية الدخول والخروج إليها إلا بإذن الإسرائيليين ، ولا ولاية لهم على " الجو " ، فضلا عن الأرض ؟

وكثيرا ما كنت أشعر بقدر كبير من الأسى والسخرية ، وأنا أسمع لفظ " السيد الرئيس " ياسر عرفات ، أو محمود عباس ، وكانت سخريتى تشتد عندما كنت أرى أبا عمار يخطو بفخر وانتفاخ أوداج وهو يسير على البساط الأحمر وكأنه " رئيس " بحق وحقيق " ؟ ثم إذا به فى نهاية الأمر يجد نفسه محبوسا فى مقر إقامته ، لا يستطيع أن يغادره ، حتى مات مسموما وكأن الله ينزل به عقاب تصديقه لهؤلاء القوم وتصور أن يكون لهم عهد !

كانت حركة فتح هى حاملة شعلة الثورة الفلسطينية أكثر من غيرها منذ العام ١٩٦٥ ، لكنها تحولت إلى سلطة سياسية ، حيث لا وجود لأى مقوم من مقومات ممارسة هذه السلطة ، فلم تكسب للشعب الفلسطينى شيئا ، بل خسرت هى الكثير حيث تخلت عن الكفاح المسلح ، بينما لا تزال أرض وطنها محتلة واستنامت إلى مخدرات سلطة وهمية ، فسكروا بألقاب " السيد الرئيس " ، و " معالى الوزير " ، والمكافآت الكبيرة ، والسفريات والإقامة فى الفنادق الفخمة ومخالطة وزراء البلدان الأخرى ذات السلطة الحقيقية ، والوقوف على المنابر الدولية والإقليمية.

من هنا كانت حركة حماس تكتسب كل يوم زخما شعبيا حقيقيا ، وهى تقف بعيدا عن السلطة التى غرقت فيها فتح ، فتكاثر مؤيدوها ، وتزايد أتباعها .

لكن ذلك بدأ فى التراجع عندما وقعوا فى فخ قبول تقلد السلطة المكبلة بالعديد من القيود ...

لقد تصوروا أنهم يمكن أن يستمروا على مبادئهم ونهجهم ، وأنا أصدق أنهم حريصون على ذلك ، لكن لابد فى الوقت نفسه من قراءة معطيات الواقع ، فماذا كسبت الحركة ؟ وماذا كسب الشعب الفلسطينى نتيجة قبول حماس أن تتقلد هذه السلطة الصورية الهشة الزائفة ؟

تكاتف الظالمون من قوى الهيمنة وأتباعهم فى النظم العربية لا على محاصرة حكومة حماس ، بل على محاصرة الشعب الفلسطينى نفسه حتى يفقد تأييده لحماس ، وهو الأمر الذى حدث للبعض بالفعل ، إذ من غير المتصور أن تكون الجماهير كلها من الفدائيين المناضلين الذين يمكن أن يتحملوا تبعات النضال والكفاح المسلح ، فالكثرة الغالبة من هذه الجماهير آباء وأمهات ، لهم أبناء يريدون أن يأكلوا ويشربوا ويأمنوا فى نومهم ويتعلموا ، فكيف لهم تحمل افتقاد هذا شهورا طويلة ؟

وأى قيمة لسلطة لا يستطيع حامل لقبها أن يقوم بواجباتها ؟

كنت فى فترة من الفترات البعيدة عضو هيئة تدريس فى جامعة عربية خارج مصر ، وفى يوم جاءنى من يعرض علىّ رئاسة القسم الذى كنت عضوا فيه ، فاعتذرت عن عدم القبول ، ودهش الوسيط لذلك ، حيث أن كثيرين يتمنون هذا الموقع ، وأن عرضه علىّ يعنى ثقة أصحاب العمل فى شخصى مما لابد أن يسعدنى ، لكننى سقت له بعض الأمثلة التى أكدت له أننى لن أستطيع أن أمارس سلطاتى الرئاسية باعتبارى " متعاقدا " ، وأجنبيا (هكذا يسموننا نحن المصريين العاملين فى الدول الخليجية) ، ومن ثم فإما أن أكون رئيسا حقيقيا وإلا فلا حاجة لى بها ، لأن الأكثر مدعاة للمهانة أن تكون رئيسا دون قدرة على ممارسة صلاحيات الرئاسة ، وهو ما دعا الثقافة الشعبية أن تضفى لقبا ساخرا على من يكونون على غير وعى بهذه الحقيقية ، حيث يسمون الرئيس أو المدير فى هذه الحالة بأنه " شرابة خُرج " ، أى شكل بلا مضمون ..خيال مآتة !

ونسمع من حين لآخر بأن السلطات الصهيونية قد ألقت القبض على فلان ، الذى هو " وزير " ، وتقف حكومة حماس عاجزة تماما عن فعل أى شئ ، فأى سلطة هذه ؟

كيف يمكن لرجل نحترمه مثل إسماعيل هنية ، الملقب برئيس الوزراء ، وهو محتجز بإهانة بالغة على معبر وتصادر منه أموال كان يخبئها ليدخل بها من أجل تعويض الموظفين الفلسطينيين الذين لم يتسلموا رواتبهم عدة شهور ، ومع ذلك يصدق أنه رئيس وزراء حقيقى ؟

إن الأشرف لمثل هؤلاء المناضلين أن يعودوا إلى بنادقهم ، مستمرين فى مواقعهم باعتبارهم ثوارا ، فلا سلطة حقيقية إلا فوق أرض محررة ، برا وجوا.

بل لنا أن نُذكر بهذه الدماء الفلسطينية التى سالت لأول مرة بين رفاق فلسطينيين ، حيث لم يعد خافيا أن فتح قد تحولت إلى قوة استنفاع لا قوة كفاح ، وليس سهلا عليها وقد جربت " أبهة السلطة الزائفة " ، وما جرته عليهم من أموال طائلة ، ومن ثم فلن تطيق أن تعود إلى الشارع لتكافح ، فقد نسيت الكفاح وغرقت فى دوامة العلاقات المشبوهة ، وإلا فلماذا تحظى برضا سلطة العدو ، والهيئات الدولية والولايات المتحدة وتتدفق عليها الأموال ؟

بل إن التجربة التاريخية تشير على أمثلة لحركات كانت معروفة بالتفتح العقلى وهى خارج السلطة ، ومن ثم كان دورها فى المعارضة عظيما ، لكنها عندما تقلدت السلطة ، تحولت إلى كابوس يجثم على صدور الجماهير ...

ففى تاريخنا الإسلامى ، عرفنا جماعة المعتزلة ، أصحاب الأصول الخمسة ، رافعى شعار التعقيل وحرية الإرادة ، والانفتاح الفكرى مما أثرى ساحة الفكر الإسلامى بالعديد من الأفكار ، حتى من قبل من عارضوهم وهاجموهم ، فكيف أصبحوا عندما أصبحوا جزءا من السلطة ؟

كان ذلك فى عهد المأمون ، فى الدولة العباسية ، فإذا بهم يتحولون إلى جلادين يريدون أن يفرضوا رأيهم بقوة السلاح والسجن والتعذيب ، وقصة الإمام أحمد بن حنبل شهيرة وقت فتنة خلق القرآن ، وما كان سجن الإمام العظيم وتعذيبه إلا لأنه رفض أن يساير الحاكم وأعوانه فى رأيهم .

وفى العصر الحديث ، كان وجود الماركسيين فى صفوف المعارضة يثرى الثقافة والسياسة بالعديد من المواقف الرائعة دفاعا عن الحرية والمستضعفين ، وتمسكا بالقيم الديموقراطية ، والنضال ضد قوى الهيمنة والاستغلال العالمية ، حتى إذا وصلوا السلطة ، كان ذلك بمثابة إعلان حرب على أية قوة أخرى تغاير ما يقولون وترى غير ما يرون .

إن حماس تخدع نفسها إذا تصورت أنها من خلال السلطة سوف تخدم الشعب الفلسطينى ، فمرة أخرى ، إن السلطة لها مقومات ولها شروط ممارسة ، وفى معظمها فهى غير موجودة ، فهل يرضى الثوار أن يقال أنهم على هذه الدرجة يتطلعون إلى السلطة مهما كانت زائفة ومقيدة ؟

بل إن وجود حماس كقوة معارضة خارج السلطة يكسبها مكانة أعلى ونفوذا أشد ..

وفى تصورى أن لو أجريت انتخابات تشريعية اليوم ، فغالبا ما يتراجع عدد المؤيدين لحماس ..

وهم يعلمون جيدا أن النظم العربية نفسها التى تضطر للتعامل معها تقف سرا ضدها وتتمنى أن لو محيت من على الخريطة الفلسطينية ، لأن حماس ممثلة لمنطق لم يعد هؤلاء من الحكام العرب يؤمنون به ، بل إن استمرارها يحرجهم إلى حد كبير ، ويكشف عورتهم أمام شعوبهم ، حيث يذكرونهم دائما بمنطق المقاومة والوعى بالعداء الصهيونى الأمريكى للعرب والمسلمين ، فى الوقت الذى يضع هؤلاء الحكام كل ثقتهم لهؤلاء الأعداء .

عودوا إلى خنادقكم ، وإلى بندقيتكم ، ثوارا يجوعون ويتشردون ، ولا ينامون ، فهذه هى السلطة الشرعية الحقيقية لمن يريد أن يكون لسان حال شعب أرضه محتلة .

...فلما جاء الثالث والعشرون
من يوليو ١٩٥٢*

لا أستطيع أبدا أن أنسى الأسابيع الأولى من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وكنت قد بلغت من العمر خمس عشر عاما حيث كنت أشعر وكأننى قد غرقت بالفعل لا بمجرد التشبيه ، فى بحر من العسل ، أو كأننى قد بلغت سماء لا يُطار لها على جناح ولا يُسعى على قدم ...الأحلام الوردية ، والفرحة الغامرة ، يخيل إلىّ أننى أعيش زمنا خياليا أرى فيه كل يوم أمنية لى تخص الوطن قد تحققت.

وها نحن اليوم ، وقد مر خمس وخمسون عاما ، نجد عشرات ، بل قل مئات من الكتب والدراسات تذهب في هذه الثورة مذاهب شتى ، فمنها ما يرفع أمرها إلى أعلى عليين ، ومنها ما يخسف بها الأرض . منها ما يتعامل معها باعتبارها الزمن الجميل ، ومنها ما يتعامل معها وكأنها " كابوس " قد انزاح ، بل ويرى أن ما نعانيه اليوم هو أثر من آثارها ونتيجة من نتائجها .

وبعيدا عن التقييم الشامل الموضوعى ، حيث أن هذا شبه مستحيل بالنسبة لهذه المساحة المحدودة ، يهمنى أن أشير إلى زاوية بعينها ، لا ألتمس بها تبريرا لما حدث من مصائب وما جرى من كوارث ، وإنما هى وقفة تأمل موضوعى من إنسان لم يكن يوما من جرحى الثورة فينتهزها فرصة للانتقام ، كما لم يكن من المنتفعين بها ، إلا فيما يخص كل الناس ، أو من دراويشها فيبرئها من كل شئ .

ففى تصورى أنها بالفعل كانت مشروع نهضة وطنية ، لو تركت لمسارها الطبيعى لبلغت بمصر موقع قوة حقيقى .

ومن المتوقع أن يرد البعض على المنطق الذى أستند إليه ، بأن هذا المنطق

---

* نشر بجريدة المصريون الإلكترونية في ٢٠٠٧/٧/٢٥

يقوم على نظرية مضللة هى نظرية المؤامرة ، لكننى والحمد لله لا أجد نفسى خائفا من هذا الاتهام ، فهو متهافت إلى أدنى حدود التهافت ، حيث أتاحت لى فرصة التخصص فى الدراسات التاريخية أن أتيقن من أن مصر ، ومنذ بدايات العصر الحديث تخضع بالفعل لما يمكن تسميته بالحرص على ألا تنهض أبدا ..يمكن السماح لها بالحدود الدنيا التى لا تسمح لشعبها بأن يعيش نهضة ، وفى الوقت نفسه لا يهبط إلى ما دون خط الكفاف حتى لا يثور ويتمرد .

لا أريد أن أحكى ما كان منذ زمن مشروع النهضة فى عهد محمد على ، ولكنى أتوقف قليلا أمام بعض وقائع ما حدث فى زمن ثورة يوليو ، إذ لم تبادر الثورة بمعاداة المشروع الغربى ، بل أبدت منذ أيامها الأولى تعاونا وصداقة ، وخاصة مع الولايات المتحدة ، لكن هذه الدولة نفسها كانت تريد تسيير الأمور على أساس المصلحة الإسرائيلية أولا ، وكذلك الدوران فى الفلك الأمريكى الغربى ، وذلك بالضغط على ضرورة عقد معاهدة صلح مع إسرائيل ، والدخول فى حلف ضد الاتحاد السوفيتى .

إن البعض يأخذ على ثورة يوليو أنها وقفت موقف عداء أمام قوة لا تقهر ، هى قوة الولايات المتحدة ، وأن حُسن السياسة كان يقتضى التحالف معها ، وفى أضعف الإيمان تحاشى معاداتها ، لكن هذا البعض ينسى أن النتيجة المتوقعة من هذا هى حاصلة الآن بالفعل ، فقد تم تنفيذ ما كان يتمناه البعض ، وأخذت مصر منذ انتهاء حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى التقارب مع أمريكا ، ثم فى التصالح مع إسرائيل ، وها نحن بعد ما يقرب من ثلاثين عاما نحصد ماذا ؟

نحصد ذلا ومهانة وتبعية لم نرى لها مثيلا حتى أصبحت مصر دولة من الدرجة الثانية فى القوى الإقليمية المؤثرة ، وإلى الدرجة التى أصبحنا فيها غير قادرين لا على أن نغضب أمريكا ، بل وغير قادرين على التهاون فى تنفيذ طلب من طلباتها ، وعلى سبيل المثال ، فلا أحد منا يصدق أبدا أن أمريكا تخصم مبلغا كمائتى مليون دولار من المعونة من أجل أيمن نور أو سعد الدين

إبراهيم ، كما أعلن ، وإنما هي وسيلة مكشوفة للضغط في سبيل تنفيذ أوامر أخرى غير معلنة ، إذ لو كانوا حريصين على الديموقراطية حقا ، فلم لا يتحدثون عن عشرات بل ومئات معتقلون بغير وجه حق ، وعشرات محالون لمحاكم عسكرية بغير وجه حق ، بل وتعرض وزير عدلهم الأسبق إلى مهانة واضحة حيث حُجز داخل سيارته في الصحراء دون أن يسمح له بحضور محاكمة المحالين للقضاء العسكري بغيا وظلما وافتراء .

وكشف محمد حسنين هيكل عن وثائق تبرهن بما لا يدع مجالا للشك في أن هناك خططا أعدت لمحاصرة مصر حتى تتجه إلى الطريق المراد لها : صلح مع إسرائيل ، والدوران في الفلك الأمريكي .

كان من المستحيل على الذين قاموا بثورة رفعوا فيها شعار التحرير أن يتصالحوا مع الدولة التي زرعت قبل قيام الثورة بخمس سنوات ، مغتصبة أرض شعب عربي ، وراح ضحية الحرب معها ألوف من المصريين .

وكان من المستحيل أن تدخل مصر أحلافا ضد الاتحاد السوفيتي لأنه لم يكن يشكل خطرا علينا ، بل الذي شكل خطرا علينا هو هذا العدو الذي يقف على الباب ، إسرائيل .

من هنا فقد تم رفض مد مصر بالسلاح الذي شعر الضباط أنه ضروري لقيام دولة تستحق الاحترام والاعتبار ، حيث كان جيشها في وضع يرثى له ، لا يصلح إلا للقيام بالاستعراضات العسكرية في المناسبات السياسية ، لكنه لا يصلح أن يخوض أي حرب .

وهكذا أخذت الأحداث تتداعى بفعل ورد فعل : فما دام الغرب لا يريد لنا تسليحا ، فماذا يفعل قادة الثورة إلا أن يطرقوا كل باب ، فإذا بباب الدول الشيوعية هو الذي يفتح ؟

ثم تتمادى أمريكا في إرساء أسس العداء ، فتقود حركة سحب تمويل مشروع السد العالي الذي نُظر إليه باعتباره بالفعل بوابة كبرى للكثير من

مشروعات التنمية ، ثم إذا بالاتحاد السوفيتى يتقدم للتمويل ٠٠وهكذا يزداد الارتباط بالكتلة الاشتراكية ، ويزداد التباعد من الكتلة الغربية ، مع ما استتبع كل هذا من نتائج فكرية وثقافية ٠

لم ترد أمريكا أبدا تعاونا يحكمه العدل فى العلاقة مع مصر ، بل كانت تريد رضوخا وتبعية ، وذنب عبد الناصر أنه لم يكن ممن يقبل مثل هذا ٠٠

إننى أرجو من الحاملين على الرجل أن يرجعوا جيدا إلى السنوات الأولى ، ففيها الكثير مما يفسر ما حدث بعد ذلك ، وأن الثورة جُرت جرا إلى التباعد عن المعسكر الغربى ، والتقارب الشديد مع المعسكر الاشتراكى ٠

كانت سنوات الثورة كلها على وجه التقريب سنوات حرب غير مكشوفة تستهدف إخضاع مصر لتكون ذيلا مثل عدد آخر من الذيول العربية المعرفة ٠

ولا شك أن كثرة المشروعات والخطط المستهدفة الإيقاع بمصر كان من شأنها أن ترسخ نظرات الشك والخوف والريبة لدى قادة الثورة بحيث يُغلّبون ذلك المنطق الذى عرف بأهل الثقة وأهل الخبرة ، ذلك المنطق الذى كان له أثره الذى لا شك فيه فى وضع رجال لا يستحقون فى مواقع خطيرة ، لعل أبرزها موقع قيادة الجيش ، لا من حيث القائد العام فحسب ، بل وكل من ارتبط به على وجه التقريب ، فإذا بالدرع الأساسى المفروض الاعتماد عليه يتحول إلى درع كرتونى يخفى وراء مجموعات من مصاصى الدماء والغارقين فى اللهو والمصالح الشخصية ، فيكون ما كان فى حرب ٥٦ ، و٦٧

ومن أسف فإن هذا المنطق المزرى تم توطينه فى البلاد ، فاستمر فى الترسخ والنمو ، وأصبح هو المنطق الحاكم فى اختيار كل القيادات على مختلف المستويات ، إلا تلك المستويات البسيطة التى ما زالت تخضع لقانون معين ، مثل المؤهل والدرجة والأقدمية ، بل إننى لأذكر أن مشروعا كان قد أعد على أساس جواز أن يكون من القيادات الجامعية ضباط ، لكن المشروع لم ير النور

، وإلا لحدث ما لا تحمد عقباه للجامعات المصرية ، وإن كانت الوباء العام قــد جاءها من الشباك ، بعد أن لم يستطع أن يدخل إليها من الباب !!

وكان من آثار تزايد الضغوط الخارجية ، وتعدد مــشروعات المحاربــة وخططها أن ابتليت مصر بداء عضال آخر ، كانت له تربته المهيئة لزرعه ألا وهو القهر والاستبداد ، فبحجة سد الأبواب أمام المؤامرات الخارجية والعملاء كانت سيادة للرأى الواحد ، وكان منع للتعددية ، وكانت مصادرة لكل من رأى رأيا مخالفا ، فإذا بالأفواه تكمم ، وإذا بأقلام تقصف ، فلا يجد العقل المــصرى الفرص المهيئة له للنمو الإبداع والازدهار .

الأكثر مدعاة للسخرية حقا ، أنه فى الوقــت الــذى كانــت فيــه دواع ومبررات لدى قادة الثورة لهذا الذى جنحوا إليه من حيث الديموقراطية ، فــإن المنطق مستمر حتى الآن ، مع عدم وجود الدواعى ، فلا زال الرأى الواحد هو الحاكم ، وإذا كانت هناك صحف تكتب بالفعل ما يمكن ألا نرى مثله فى بــلاد أخرى ، فإنها حرية سبق لى وصفها من قبل بأنها " حرية نباح " ، وكأننا مجرد " كلاب " تنبح ، لا أثر لقول أحد وكان الكتاب يخطون بأقلامهم فــوق ســطح الماء .

لقد كان بعضنا يدرك أنه يقاسى كبتا فى عهد الثورة ، ولكن كان يعوضه إحساس بكرامة للوطن كانت عالية المستوى ، وبإرادة وطنية صــلبة ، فمــاذا يكون عليه الحال إذا وجدنا أنفسنا نعانى القهر الآن ، وفى الوقت نفسه نعــيش تبعية وذيلية ومذلة على المستويين الداخلى والخارجى ؟

الوزير الخائب ..

والرئيس الأخيب ؟!*

نقول خاب فلان فى مسعاه ، أى فشل فى تحقيق الغرض أو الهدف الذى كان يسعى إلى تحقيقه ، وهذا أمر وارد فى الحياة البشرية ، " فما كل ما يتمناه المرء يدركه " ، وما منا إلا وقد " خاب " فى مسعى له مرة وأكثر ..

لكننا نصف فلانا بأنه خائب عندما يغلب على تصرفاته وأفكاره ما لا يوصل إلى نتيجة منشودة ، لأن هذا إن دل على شئ فإنما يدل على " قصور " ثابت فى التفكير وفى السلوك ، حتى لقد دفع هذا إلى ظهور مثل نقول فيه " خيبة الأمل راكبة جمل " .

كما أننا نصف فلانا بأنه " خيبة " ، أى لا يحسن التصرف ، وربما تتسبب تصرفاته فى جلب المضار والمشاكل .

أما هذا الوزير الخائب المقصود في المقال ، فهو وزير خارجية مصر الميمون أحمد أبو الغيط ...

صحيح أننا درجنا منذ سنوات الثورة على أن السياسة الخارجية هى بيد رئيس الدولة ، وما وزير الخارجية إلا منفذ ، لكننا لم نعدم أن نرى وزراء خارجية تركوا بصمات واضحة ، وأبرز ما يقفز إلى أذهاننا هنا الراحل الدكتور محمود فوزى ، فعلى الرغم من وجوده مع زعيم صاحب كاريزما هائلة مثل جمال عبد الناصر ، لكن الرجل كان من الخبرة والحصافة بحث تمكن فى بعض الأحوال من أن يكون هو صاحب الرأى الراجح المعمول به .

وكان هناك أيضا عمرو موسى ، الذى وجد فى زمن نَكِد ، تراجعت فيه القامة المصرية وقصرت حتى كادت تتساوى بالأرض ، لكن الرجل كانت له

---

* نشر بجريدة المصريون الإلكترونية ، في ٢٠٠٧/٧/١٨

شخصية متميزة ومواقف إيجابية ، حتى أنه وصل إلى ما لم يصل إليه أحد من قبله عندما ظهرت أغنية تعلن الحب الشعبى له فى مقابل تسجيل الكراهية لإسرائيل ، وإن كان هذا قد أدى إلى إزاحته إلى أعلى بموقعه الحالى الذى لا يستطيع فيه أن يكون مؤثرا بحكم التزامه بجامعة كسيحة لا حول لها ولا قوة لأنها جامعة حكومات ، يغلب عليها التبعية والذيلية .

ولعل آخر مظاهر خيبة وزير خارجيتنا أنه مع وزير عربى آخر أرادا أن يتوجها إلى دولة العدو الصهيونى يعرضان عليها ما أسموه مبادرة السلام العربية !!

من نكد الدنيا على مثلى ، أنه عاش زمنا كان الإسرائيليون " يحفون " و " يلهثون " وراء أى اجتماع ، على أى مستوى ، بأحد المسئولين المصريين ، فلا يتحقق ذلك ، ويؤكد لنا الوسطاء من كل الدنيا أننا لو " رضينا " وجلسنا معهم فيمكن أن نحل الكثير من المشكلات !!

ثم كانت الطامة الصغرى عندما أُضطررنا إلى مباحثتهم فى الكيلو ١٠١ أثناء حصار الجيش الثانى عام ١٩٧٣ فى حرب أكتوبر .

أما الطامة الكبرى ، فكانت عندما ذهب السادات حتى عقر دارهم فى نوفمبر ١٩٧٨ فى زيارته المشئومة للقدس ، التى توجت باتفاقية كامب ديفيد ، وبدأ بها عصر " التقزيم " لمصر ، وإخراجها من أن تكون صاحبة دور فاعل وحاسم فى السياسة العربية ، وأن تتخلى عن دورها كدولة كبرى أساسية فى النظام العربى الإقليمى ، سعيا وراء سلام زائف موهوم ، أكسبنا أرضا وأفقدنا إرادة ...أبعد عنا جند العدو ، وأحل بدلهم آلافا من المدنيين الإسرائيليين والأمريكيين والبريطانيين وغيرهم ، يتولون أمرنا فى معظم مجالات العمل الاقتصادى والعسكرى والثقافى والتعليمى لنفكر كما يفكرون ونعمل ما يريدون ونصادق من يصادقون ، ونعادى من يعادون !

ولا نعرض هنا لما تضمنته هذه المبادرة العربية من تنازلات وصور مذلة ، ولكن يكفى مهانة وإذلالا أن يختار الزعماء العرب أن يذهبوا هم إلى دولة العدو يستجدوها أن تحادثهم فى هذه المبادرة ، مع أنهم أعلنوا المرة تلو المرة أنهم يوافقون عليها .

ولم يقف الأمر عند حد الاستجداء ومد الأيدى ، ولكنها امتدت إلى تلقى صفعة موجعة ، عندما رفضت إسرائيل أن تستقبل الوزير الهمام مع زميله الأردنى ، فعاد أدراجه يجر وراءه أذيال الخيبة !

وأبرز مظاهر الخيبة لدى الوزير الهمام عندما يُسأل عن إيران ، فتحار : هل تقرأ تصريحات وزير خارجية مصر أم إسرائيل ؟ فإيران ، التى لم تصل بعد إلى إنتاج قنبلة نووية تشكل تهديدا نوويا للبلدان العربية ، لكن إسرائيل بقنابلها التى تتجاوز المائتين لا تشكل مثل هذا الخطر والتهديد ، وهذا نفسه الذى تقوله إسرائيل وأمريكا ، فمن يتكلم باسم من حقا ؟

وآخر " خيابات " هذا الوزير الهمام ما صرح به ل(أهرام ١١ يوليو الماضى) " إن من ينفى أن ما حدث في غزة هو انقلاب عسكرى فهو بالتأكيد لا يرى " . وقال " إننا نؤيد الشرعية الفلسطينية الممثلة في رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس الذى تبنى مسارا تؤيده مصر ..." !

ولا ندرى حقا ، من الذى لا يرى ؟! لقد صدق من قالوا : إذا لم تستح فقل ما شئت أو فافعل ما شئت !

لم ير وزيرنا الهمام كيف أتى الشعب الفلسطيني بحكومة حماس ، فهل عندما يسعى ممثلو الشعب الفلسطينى إلى التمكين لأنفسهم من سلطة حقيقية بدلا مما كان من سلطة شكلية يعد انقلابا ؟

ليت وزيرنا الهمام قرأ مقال فهمى هويدى الذى لم ينشر منذ أسبوعين فى الأهرام لأنه يحمل حقائق مذهلة ومخجلة فى الآن نفسه عن حقيقة الأمر فى أحداث غزة وما يرتبط بها ، لكننا قرأناه والحمد لله فى المصرى اليوم ، وهو

يذكر بالدليل اليقيني ما كان يتم تحضير للقضاء بكل خسة على حكومة حماس قبل هذا الانقلاب المزعوم ، فما كان منها إلا أن سارعت بمثل هذه الضربة الاستباقية ، والذى يحدد المواقف جيدا هو هذا السيل من المعونات والمساعدات التى بدأت تتدفق على ما يسمى " بالسلطة " ، والحصار المستمر على الشعب الفلسطينى ..

هذا هو ما نراه يا أبا الغيط ، فهل لا ترى أنت ؟ ماذا يعنى أن تساعد أمريكا طرفا وتحاصر طرفا ؟ أنت نفسك تذهب إلى أمريكا تعبيرا عن فزع حكومتك من تجميد جزء من المساعدة الأمريكية لمصر " مجرد قرصة ودن " صغيرة حتى تسمع " كل " الكلام !

فأمريكا لا تعطى معونة لوجه الله كما هو معروف وإنما لتحقق أهدافها هى ومصالحها هى ، ولا نلومها فى ذلك ، فهذا حقها ، وعندما تقتطع فلابد أن سادة النظام فى مصر" مقصرين شوية " فى خدمة الأغراض الأمريكية !

نقولها بأعلى صوت : إننا نسمع ونرى جيدا ، لكن أنتم لا تسمعون ولا ترون ، أو بمعنى أصح ، ترون و تسمعون ، لكنكم تتغافلون (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)) سورة الحج .

ونردد قول المولى عز وجل أيضا (.. لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)) سورة الأعراف ، آية ١٧٩

أما الرئيس الأخيب فهو صاحب اسم على غير مسمى ، لأنه كما يقول حقا إبراهيم عيسى ، لا يعدو أن يكون رئيس بلدية رام الله ، ويظن نفسه " رئيسا " بحق وحقيق ! أبو مازن ...

فيكفى أن يكون هو الأداة الرئيسية التى مكنت من حدوث مصيبة اتفاق أسلو المشئوم ...

ويكفى أنه جاء وهو يعلم علم اليقين أن رئيسه الحقيقى السابق المناضل أبو عمار مات مسموما حتى يجئ هو ، لأن السابق لم يعد لديه ما يعطيه للإسرائيليين ، بعد أن تيقن من أن المستحيل المتوهم هو أن تعطى إسرائيل ، إنهم يأتون بمثل هذا الرئيس الشكلى (عباس) لكى يأخذوا ، وفقا للقاعدة المعروفة التى تؤكد أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، والخير المقصود فى سياقنا هو القدرة على الفعل والإملاء والفرض ، فما دامت دولة العدو هى الأقوى ، وما دامت اليد الفلسطينية التى يمثلها هذا النفر العميل هى السفلى فلابد أن يكون موقفها هو الاستجداء والشحاذة .

إن من قوانين الصراع التى تتبدى عبر قرون عديدة هى أنك تأخذ بقدر ما تملك من قوة ، وتتنازل بقدر ما يكون لديك من ضعف ، ومن هنا كان من الضرورى أن تكون هناك مقاومة مستمرة ، بجانب المساعى السلمية ، أما هؤلاء الذين يدعون بأننا لم نعد نملك شيئا ، فلابد من الرضا بما يعطيه الإسرائيليون لنا ، فهؤلاء يتعامون عن سنن الصراع عبر العصور ، فالمهزوم دائما يتنازل وتُملى عليه الشروط ، وحالة الضعف التى يشيرون إليها ليست أبدية وإنما هم من يتولون الحكم الذين فرطوا فيما نملك من أوراق فى سبيل المحافظة على موقعهم فى الحكم ، وما لم تستمر المقاومة فسوف يستمر الضعف ويستمر التراجع .

من هنا فإن قرار رئيس بلدية رام الله محمود عباس باعتبار حملة سلاح المقاومة " مليشيات " يجب أن تترك سلاحها هو إعلان لا بالخيانة وإنما بما هو أكثر مما يصعب على قلمى كتابته وأتركه للقارئ يستنتجه ! إنه يفضح جهارا نهارا ، لماذا أتوا به فى هذا المقعد !

وفى الوقت الذى يستجدى فيه رئيس البلدية – أقصد عباس – أن يجتمع مع الإسرائيليين ويتفاوض معهم ، ولا أدرى على ماذا ؟ يمتشق حسامه ويحاول أن يظهر بمظهر الرئيس الحقيقى صاحب السلطة القوية ، ليقول : لا حوار مع

حماس ٠٠٠"مقدرش على الحمار اتشطر على البردعة" ، مع الاعتذار لحماس ، لكن هكذا مجرى الحديث للأسف استدعى هذا !

ويأبى هذا " الرئيس " المزعوم إلا أن يتوج سلوكه الشائن وتصريحاته الخائبة فيكرر فى أكثر من مناسبة طلبه بأن تجئ قوات دولية إلى غزة ؟ !!

قوات دولية هى عند عباس أرحم من حماس ، لأن الدوليين سوف يغرقونه بالملايين ، والسفر المستمر عبر دول العالم (على إيه يا حسرة ؟) والبساط الأحمر الذى يوحى له بأنه " رئيس " بجد ، أما حماس ، فلا تجلب إلا الحصار والتجويع ، ولا زالت تحمل البندقية التى تغرق دماء الأصدقاء الأعزاء أبناء العم ٠٠٠الإسرائيليين !!

هكذا تحول الموقف ، من حمل سلاح المقاومة ضد الاحتلال ، إلى طلب تسريح المقاومة ، واستدعاء قوات احتلال جديدة دولية !

حقيقة لقد كنت مهذبا أن وصفت هذا العباس بالرئيس الأخيب ، إذ هو ما أستحى من كتابته ، لكنه يعرف مكانه جيدا فى مزبلة التاريخ !

" أليس منكم رجل رشيد "* ؟

فى الوقت الذى انكشف فيه الغطاء عن حكومة المحافظين فى الولايات المتحدة لينكشف للعالم أجمع كيف أن هذه الحكومة قد عظّمت من العوامل الباعثة على العنف والإرهاب فى العالم ، وكيف أن غرور القوة قد أصبح يتحكم فى خطواتها بحيث صارت تتصرف كوحش كاسر بلا عقل ، وفى الوقت الذى تبين لنا بمزيد من الأدلة والشواهد كيف أن هذه الحكومة تتصرف وكأن " تماهيا " قد حدث بين مصالحها ومصالح الدولة الصهيونية النازية ، إذا بنا نرى النظم العربية تتكاتف معا في محاولة لإنقاذ النظام الأمريكى من الوحل الذى غاص فيه وجر معه العالم على هذا الطريق ، وما مؤتمر شرم الشيخ إلا محاولة على هذا الطريق !

وحتى يكون لكلامنا مصداقية لدى الحزب الأمريكى فى المنطقة العربية ، نسوق لهم ما ورد فى مصادر غربية عامة وأمريكية خاصة ، وإن كان يكفى ما حدث فى الكونجرس من سعى حثيث لتقييد تصرفات بوش تجاه العراق وضرورة الانسحاب من هناك ، والتأكيد على أنها حرب فاشلة وأن كذبا تم لتبرير الغزو حيث ثبت أن كل الذرائع التى سيقت كانت أكاذيب متعمدة .

ففى حديث مع الأهرام فى ١٨ أبريل الماضى أكد " مايكل دوكاكيس " الذى يعمل أستاذا للعلوم السياسية فى جامعة " نورث أيسترن " الأمريكية (وكان مرشح الحزب الديموقراطى فى انتخابات الرئاسة عام ١٩٨٨) أن السبيل الوحيد لتجنب إراقة الدماء وتدهور الأمور إلى الأسوأ فى العراق مع انسحاب القوات الأمريكية هو إشراك دول المنطقة بنشاط وعمق ، وهو أمر يتطور مع

* نشر بجريدة المصريون الإلكترونية ، في ٢٠٠٧/٥/١٦

الوقت ولا بديل له إلا استمرار الحرب الأهلية الدائرة الآن ٠ وقال أن الطريقة التى ستحاول بها أمريكا أو المجتمع الدولى تحقيق الاستقرار فى العراق هـى مشاركة الدول المجاورة وخاصة الدول العربية وإيران وتركيا بشكل ما ٠

واعتبر أستاذ العلوم السياسية الأمريكى ، وليس كاتب هذه السطور ، أن غزو العراق كان خطأ فظيعا وكارثة منذ البداية دفعت إلى نشوب حرب أهلية وحرب دينية ٠ وأضاف أنه لا يعتقد أن الطريقة الوحيدة لجعل الأمور تستقر فى العراق هى بإعادة فرض ديكتاتور آخر ، كذلك فإن استقرار أمريكا هناك لا يفى بالغرض ٠

وفيما يتعلق بمستقبل الحرب على الإرهاب أكد دوكاكيس أن هذه الحرب لم يكن لها علاقة بغزو العراق ، وأنه مهما كان الظن حول صدام حسين ونزوعه الديكتاتورى فمن المؤكد أنه ليس له علاقة بهجمات سبتمبر ٠

ويجئ صوت آخر من فرنسا ، هو صوت فرنسوا بايرو الذى كان مرشح يمين الوسط فى انتخابات الرئاسة الفرنسية حيث أكد أن الولايات المتحدة الأمريكية هى السبب فى كل ما يحدث فى الشرق الأوسط من حالة عدم استقرار ، وحروب تطيح بالمنطقة ، ومأساة بعض الشعوب ، وبصفة خاصة ما يحدث فى العراق (أهرام ٢١/٤) ٠

وعلى الرغم من التورط التاريخى لأمريكا فى العراق ، لكن الهوس الأمريكى فى مواسم التمهيد للانتخابات ، من حيث السعى لكسب الأصوات اليهودية ما زال يكرر الأخطاء ، حيث تتعالى أصوات بعداء مجنون لإيران ، وعلى سبيل المثال ، فقد استعان جون ماكين ، أحد المرشحين الجمهوريين لخوض انتخابات الرئاسة الأمريكية بأغنية أمريكية تقول " اقصفوا إيران " ، وذلك ردا على سؤال حول الوقت الذى تعتزم فيه واشنطن توجيه رسالة بالطائرة إلى الإيرانيين ، وأخذ ماكين يغنى " اقصفوا إيران " ، وأكد بنبرة جادة

عقب انتهائه من الغناء أن إيران عازمة على تدمير إسرائيل ، وهذا وحده فقط يحملنا على الشعور بالقلق !

نفس الكلام الذى كان يقال عن العراق !!

المطلوب ألا تبقى قوة فى الشرق الأوسط يمكن أن تتفوق على القوة الصهيونية ..حتى يستمر الخنوع ، وحتى يتواصل الانهزام النفسى والتاريخى لدى العرب والمسلمين !!

ومع ذلك ، فكل الأنباء تتحدث عن " تمسح " أمريكى فى مؤتمر شرم الشيخ بإيران فى محاولة لأن تتحدث الآنسة كوندى مع وزير الخارجية الإيرانى ، وكأن الأمر يجىء طبيعيا وبالصدفة ، فى صورة من صور المكابرة تذكرنا بالمثل الشهير " حسنة وأنا سيدك " !!

وفى واقعة تناقلتها وكالات الأنباء ينكشف سوء خلق واحد من أبرز المخططين للمأساة العراقية ، ألا وهو " بول وولفويتز " الذى كان نائبا لوزير الدفاع الأمريكى السابق " رامسفيلد " والذى كان أحد العقول المهمة فى التخطيط والتحريض على الغزو القذر ، فقد اتسع نطاق الفضيحة التى تورط فيها وهو رئيس البنك الدولى بترقية صديقته السابقة ومنحها علاوة مالية سخية تتعارض مع لوائح البنك ، وسارع جورج بوش ووزير الخزانة فى إدارته بالدفاع عن وولفويتز الذى ازداد موقفه صعوبة لمطالبته بالاستقالة ، فى حين أعلن مجلس إدارة البنك الدولى أن يتجه إلى اتخاذ قرار نهائى بهذا الشأن .

وعلى الرغم مما نقوله فى هذا الشأن من تعرية لسوء خلق أحد مخططى غزو العراق ، إلا أن الإنسان لابد له أن يشعر بالتقدير لهؤلاء الناس ، وليسأل كل منا نفسه : ألا توجد مثل هذه الحالة بالمئات فى كل البلدان العربية ، ولا أحد يمكن له أن يعلن ذلك ؟

وكخطوة أخرى فى الفضائح المتوالية للبيت الأبيض الأمريكى كشفت صحيفتا " نيويورك تايمز " الأمريكية ، و " الاندبندنت " البريطانية النقاب عن

فصل جديد يكشف عفن الإدارة الأمريكية التى أسلم لها النظام العربى زمامه لتقوده معه إلى الهاوية ، والفضيحة تسمى " إى ميل جيت " على غرار فضيحة " ووترجيت " الشهيرة ، فقد كشف تقرير عن جماعة " مواطنون من أجل المسئولية والقواعد الأخلاقية " إحدى منظمات المجتمع المدنى اليسارية المعنية بالدفاع عن الحقوق المدنية عن الحقوق المدنية ومقرها واشنطن بإتلاف خمسة ملايين رسالة بريد إلكترونى فقدها البيت الأبيض فى الفترة من ٢٠٠٣ و ٢٠٠٥

تلك قطرات من بحر واسع ، حيث تؤكد كل المؤشرات على أن أمريكا تعيش وحلا فى العراق ، ولو كان الأمر يقتصر على أضرار وقعت بأمريكا لهان الأمر ، بل لأسعدنا لا من باب التشفى اللاإنسانى وإنما كرد فعل نفسى تجاه صور جهد لاغتيال شعب وتخريب دولة من دول العالمين العربى والإسلامى ، لكن المصيبة الكبرى أننا نحن العرب والمسلمين الذين ندفع الثمن الأكبر ، فهذا البلد هو الوحيد من بين بلدان العلم العربى الذى يزخر بالطاقات الثلاث : البترول ، والماء (بما يرتبط بها من أراض زراعية شاسعة) والإنسان ، فما من بلد عربى إلا وتجد فيه واحدة أو اثنتين من هذه الطاقات ، دون الأخرى ، إلا العراق .

لا نريد أن نعود إلى الوراء لنشير إلى تورط بلدان عربية تآمرت على العراق ، وسهلت وشاركت فى الغزو الأمريكى ، ولكن نشير اليوم إلى أن أمريكا هرعت إلى الدول المتحالفة معها والتى تسميها " المعتدلة " لتساعدها على الخروج من الوحل العراقى .

إنه لا بأس بطبيعة الحال فى السعى إلى محاولة حل المشكلة العراقية ، لكن هناك فرق كبير بين أن يتمحور الجهد كله حول إنقاذ الشعب العراق وبين أن يتمحور حول إنقاذ أمريكا من هذا المستنقع .

إن أبرز ما أدى إليه هذا التماهى مع زعيمة القهر والهيمنة ومولدة الإرهاب ..الولايات المتحدة ، أن صارت الأمور بحيث تتماهى المصلحة العربية مع المصلحة الصهيونية والأمريكية ، ومن ثم ينتهى الأمر بنا إلى أن نكون أعداء أنفسنا !

فبعد قرون طويلة ، كنا نعرف ونألف التباين الشيعى والسنى ، يبرز هذا التباين اليوم بإلحاح وتأجيجه ، حى ينشغل بعضنا بمحاربة الآخر ونغفل عن العدو الحقيقى الذى نتضاد معه ونتناقض ، ففى الوقت الذى ارتفعت فيه وتيرة الحديث عن " نزاع سنى شيعى مختلق " بدأت تخفت نغمة الصراع العربى الإسرائيلى وتتعالى أصوات التصالح والتقارب والتطبيع ، وعفا الله عما سلف وضرورة أن ترفرف أعلام السلام ، وتهرع الدول العربية لاهثة وراء دولة الكيان الصهيونية متوسلة لها أن تقبل مبادرة السلام العربية وهى تتأبى وتتمنع حيث تطلب ثمنا باهظا !

وفى الوقت الذى تصرخ فيه وقائع التاريخ القريب منذ الأربعينيات بأن الصهيونية نهبت وطنا عربيا بالكامل فيه ، الذى يضم ثالث المساجد المقدسة فى الإسلام ، موضع الإسراء ...الأقصى ، وقتلت من كل الدول العربية المجاورة عشرات الألوف ، وأهدرت مليارات الدولارات من ثرواتها القومية ..يخفت الصوت الكاشف عن خطرها على المنطقة !!

وفى الوقت الذى أكدت فيه كافة التقارير منذ سنوات على امتلاك دولة الكيان الصهيونى عشرات القنابل الذرية ، ولا يتحدث أحد من الزعماء العرب عن ذلك علنا ، وغاية ما يصل إليه من شجاعة أن يقول بخلو المنطقة من أسلحة الدمار الشامل ، تتعالى الأصوات بخطورة أن تمتلك إيران مثل هذه القنبلة !

من لنا برجل رشيد يكشف عن حقيقة اللعبة التى تهدد أمتنا ، حاضرا وممستقبلا؟

الرجل الذي فقد ظله* !

أما الرجل فهو الدكتور أحمد فتحى سرور رئيس مجلس الشعب للعام السابع عشر ..!

وأما العبارة نفسها التى يحملها رأس المقال فهى للراحل المبدع " فتحى غانم " فى روايته الرائعة والتى حولت إلى فيلم سينمائى يحمل الاسم نفسه فلهما الاعتذار واجب .

جاء سرور وزيرا للتعليم ، أى للتربية والتعليم والتعليم العالى معا عام ١٩٨٦ ، وكان ساعتها نائبا لرئيس جامعة القاهرة ، وكان توزره – كالعادة – بفضل صداقة مع الراحل د. عاطف صدقى ، حتى لقد سميت وزارته بنادى باريس ، حيث كان معظم أعضائها من زملائه عندما كانوا يدرسون أو يعملون فى باريس ، إلى الدرجة التى دفعت الراحل أحمد بهاء الدين إلى أن يقول أن الأمر وصل بعاطف صدقى ، إلى حد احتمال أن يعين وزيرا من بين من حظوا بلعب الطاولة معه على مقهى بباريس !!

لقد أتاحت لى الظروف القرب الشديد من الدكتور سرور عندما كان وزيرا للتعليم ، فرأيت منه ولديه الكثير مما يستحق الحمد والتقدير حقا ، على الرغم مما اتسمت به بعض سياساته التعليمية من كارثية ، وأشهرها تلك " الخطيئة " الكبرى الخاصة بإنقاص سنوات التعليم الابتدائى عاما ، مما كان سببا فى مزيد من التدهور ، وخلق ما اشتهر " بالدفعة المزدوجة " والتى كان أبرز نتائجها فقدان التعليم لكثير من مقوماته الأساسية .

---

* نشر بجريدة الوفد ، ثم حجبت الجريدة مقالا آخر لى تلا ذلك عن فترة توزر سرور للتعليم ، ثم أعدت نشر الأول في المصريون الإلكترونية في ٢٠٠٧/٢/٢٨ ، ثم في الدستور .

لكن الرجل ، كان يتسم " بالشجاعة " التى افتقدناها لدى من ولى بعده ، فقد كنت حاد النقد لسياسات سرور طوال النصف الثانى من الثمانينيات حيث لم يكن هناك بعد حظرعلى كتاباتى ، ذلك الحظر القائم منذ سنوات فى عديد من الصحف والمجلات ، وكان هو يصف مقالاتى التى لم يمر أسبوع واحد دون ظهور واحدة منها عبر سنوات ، بأنها " قنابل " و " متفجرات " .

تمثلت شجاعته فعلا فى أنه لم يغضب منى ، بل لقد كان غالب الاتصال – ليلا – عقب ظهور بعض المقالات مناقشا ومدافعا ، وكانت المكالمات تنتهى بأن يظل كل منا على موقفه .

ولم يحاول الرجل فى أى مرة أن يصيبنى بضرر بأى صورة من الصور ، بل العكس كان هو الصحيح ، كان يكيل المديح لى فى كثير من المواقف ، بل ووصل الأمر به إلى أن يرجو أن أطلب منه أى خدمة ، عندما لم يرنى مستغلا للموقف بكسب مزايا أيا كان نوعها مثلما فعل ويفعل كثيرون ، وأكثر من هذا طلب أن أكون مستشارا له ، فكنت دائما أعتذر عن عدم قبول أى كسب أو موقع ، ويبدو أن هذا جعله أكثر احتراما لى وتقديرا ، مما انعكس على معاملاته معى ، فكان نعم الرجل حقا !

اضطررت أن أقول ذلك لأن ما حدث ممن جاء بعده عكس ذلك تماما ، مما لا مجال حتى للإشارة إليه فقد أصبح فى مزبلة التاريخ .

وعندما ولى سرور رئاسة مجلس الشعب ، كنت من السعداء المستبشرين به خيرا حقا ، لكن توقعاتى فيما أكدت الأيام – ولا تزال – كانت غير صحيحة!

كان أبرز ما جعل توقعاتى تخيب أننى نسيت تلك المقولة الشهيرة التى عبر عنها القول الشائع (لا يستقيم الظل والعود أعوج) !

فسرور ليس " نظاما " قائما بذاته مستقلا يملك حرية الإرادة ، وإنما هو " ترس " فى آلة خربت وتقادم العهد بها حتى أصبحت من مخلفات التاريخ ...هو

فرع فى شجرة ...شجرة ينخر فيها السوس ..طال بها الزمن ، حتى تجاوزت عمرها الافتراضى ، وكان من المفترض أن تسقط ، لكن جيوشا جرارة من الأمن المركزى تحيط بها ممسكة إياها لتظل واقفة فيخيل إلينا أنها ممتدة الجذور ثابتة الأركان ، بينما هى مما يصح عليه قول المولى عز وجل " أعجاز نخل خاوية " ! أو قل هو – أى النظام القائم – مما يصح عليه القول أيضا : " إيش تعمل الماشطة فى الوش العكر " ؟

كان المؤلم حقا – على الأقل بالنسبة لى – أننى أحمل تقديرا غريبا واحتراما أكثر غرابة للكبار ممن تخصصوا فى دراسة القانون ، لميراث طويل مختزن فى الذاكرة ، لمجموعة ضخمة من زعماء مصر وأفذاذ رجالها ، جلهم من دارسى القانون ، مثل مصطفى كامل ، وسعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، وفؤاد سراج الدين ، د. هيكل ، ولطفى السيد ، وأحمد ماهر ، والنقراشى ، وعلى ماهر ، والسنهورى ، وغيرهم كثيرون .

وقر فى ذهنى أن أن استقلال مصر ، ونهوضها ، وممارستها لدورها التاريخى ، ليس قضية فلسفية ، ولا هى مجرد قضية سياسية ، وإنما هى قضية " حق وطن " فى الحياة بعزة وكرامة وسؤدد ، وقضية حق مواطن فى أن يحيا رافع الرأس ، نير العقل ، مرهف الحس ، خشن اليد من كثرة العمل ، مرهوب الجانب ، وأنها بهذا الاعتبار بحاجة إلى مثل هذه العينة من الرجال الذين يعرفون القانون ، والذى هو فى الأساس لتنظيم الحصول على الحقوق ، وأداء الواجبات .

وإذا كنت قد نسيت هذه القاعدة التى أشرت إليها من أن الظل لا يستقيم والعود أعوج ، فقد نسيت معها أيضا أنه ليس بالدراسة وحدها يكون الإنسان متسقا معها فى الفعل والسلوك ، ففى ثقافتنا العربية مع الأسف الشديد تلك الهوة العميقة بين ما نقول وننادى به ، وبين ما نفعل ، على الرغم من قوله سبحانه وتعالى (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) !

كذلك نسيت أن " ذهب المعز " عندما يلمع لمعانا شديدا يمكن أن يحول بين النظر وبين أداء دوره فى البصر فيتحول إلى بصيرة ، ولا يرى بالتالى أمامه إلا هذا الذى يغرى ويسيل اللعاب ...

وأنا ، كما أنت ، لم نجرب أن نكون رؤساء مجلس شعب ، حيث الأضواء الباهرة والمراكز العالية ، إلى الدرجة التى تجعلك تلى رئيس الدولة ، وترى أجهزة الإعلام جميعها مفتوحة الأبواب لك ، بالمساحة التى تريد ، فى الوقت الذى تريد ، بالكيفية التى ترغب . وهناك من يقربون منك من الأهل والأبناء والأقارب والأصدقاء ، يعيشون فى خيراتك الممتدة ، لا يكاد يدرك نهايتها البصر ، سواء ماليا أو عقاريا ، أو فى المناصب والمواقع ، كلها لا تتركك تلهث سعيا وراءها ، بل تأتيك مستسلمة قائلة " شبيك لبيك عبدك بين إيديك " !

أنا أعرف جيدا أن هذا ليس من مقتضيات الوظيفة ، لأن المسئولية العامة على قدر هذا المستوى تصبح عبئا ثقيلا ، لكن ذلك فى البلدان " المحترمة " ، والاحترام هنا لا يكون منحة من أحد ، وإنما كل عناصر النظام ، عندما تحترم نفسها ، وتتعامل مع أفراد الناس على أنهم هم الأصل ، وأن الذى يتبوأ موقعا عاليا هو فى الأصل " خادم " للناس !

لكن فى البلدان المقهورة مثل مصر ، الشعب هو الخادم للسلطان وحواشى السلطان ...يتحول الوطن إلى " عزبة " تجوبها خيول وذئاب وضباع وثعالب وثعابين ، ومن كل لون وشكل مما يسعى على الأرض ممن لا يصح أن يوصفوا بالآدميين ، نقول ذلك لا افتراء ، وإنما مصداقا لقوله تعالى عن صنف من الناس (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)) ، سورة الأعراف .

فهذا الصنف هم من البشر حقا ، يملكون أجهزة حس محترمة ، لكنهم لا يوظفونها فيما خلقت له ، ألا وهو " الوعى " و " الحكمة " !

وهكذا ، فى كل عام تشريعى ، أرى حارس الحقوق يبتسم أمـــام مواقـــف تنتهك فيها الحقوق ، لا حقوق فرد فى قضية شخصية أمام محكمـــة ، ولكـــن حقوق شعب بالكامل ، فى مسيرته فى الحياة ، وفى رجأ من أرجائها ؟

وهكذا ، فى كل دور تشريعى ، نجد رجل القانون الكبير يرضى لنفسه أن يرأس مجلسا به أعضاء دخلوا تزويرا وغشا ..

ويرعى إجراءات غريبة لا تخفى على أحد فى العصف بنواب غـــضب عليهم النظام فأراد أن يعصف بهم ، إما بالفـــصل أو بإلقـــائهم فـــى غيابـــات السجون!

وتصله عشرات الأحكام ببطلان انتخابات ، فيحكم هذا المبدأ الغريب الذى يعصف بأحكام القضاء ليظل العضو غير المستحق جالسا على كرسيه ، يشارك فى التشريع لشعب مصر ، بينما صاحب الحق خارج المجلس ، فهل هذا ممـــا يوجب الاحترام والتقدير حقا فى ميزان القانون وفى ميزان التـــاريخ ، وفـــى ميزان الإنسانية ؟!

لا أستطيع بطبيعة الحال فى مثل هذا المقال أن أستقرئ ستة عشر عاما لـــم تخل دورة فى عام أبدا مما يثير الغثيان ...

نسى أستاذ القانون الكبير أنه يعمل (عند) الشعب المصرى ، وله ، وأخـــذ يتصرف طوال الوقت على أنه يعمل عند رئـــيس الدولـــة وحاشـــيته ، فـــاهتم بإرضاء هؤلاء ..

نسى أستاذ القانون الكبير ، أن التاريخ لا يحتفظ بكل ما تكتبـــه الـــصحف والمجلات ، مما هو غش وخداع وتزييف ، ولا بكل ما تذيعه الإذاعـــات ، ولا بكل ما تبثه قنوات التلفاز ، ففى الدول المقهورة ، يرمى بالكم الأكبر من كـــل هذا فى مزبلته الشهيرة ، وربما يسعى سعيا إلـــى مـــا يقولـــه عمـــوم النـــاس

وبسطاؤهم ، فى أى صورة من صور التعبير : أغنية ، قصة ، وثيقة لم تتداول ، مقالات ، تقارير ، إلى غير هذا وذاك مما لن يرحم أستاذ القانون الكبير من مواجهته به يوم يقوم الناس جميعا لرب العالمين ...

انظر إلى موقع ماء ..إذا تُرك أياما وأسابيع وشهورا لا يتحرك ولا يأتيه جديد .. إلى ماذا يصير ؟ إلى ماء آسن ، يتغير طعمه ولونه ورائحته ، ويفقد وظيفته فى أن يكون نافعا لخلق الله من الأحياء ، فما بالك بمن يمر به ست عشر عاما فى موقعه ، ويقبل عليه العام السابع عشر وضميره يرضى بذلك، بل ويرحب ويمارس ابتسامته المعهودة ؟

رحمك الله أيها الأديب الراحل عندما قدمت لنا هذا الوصف الرائع ، وإن كان محزنا : الرجل الذى فقد ظله !

الرجل الذى فقد ظله ..

مرة أخرى* !

أعرف أنه من غير المستحب أن يستخدم الكاتب العنوان نفسه الذى استخدمه ، للفكرة نفسها منذ شهور قليلة قد تصل إلى أصابع اليد الواحدة ، لكن الحقيقة أننى لم أستطع التخلص من سحر هذا العنوان شديد الدلالة الذى اختاره الراحل فتحى غانم لإحدى أبدع رواياته.

وفضلا عن ذلك ، فما دام " الموضوع " مستمرا ، وما دامت القضية مثلها مثل كرة الثلج ، تتضخم بتدحرجها يوما بعد يوم ، فلابد أن يستمر الحديث عنها ، خاصة إذا كان بطلها الأساسى شخصا بحجم الدكتور أحمد فتحى سرور الذى يقف على رأس مجلس له سلطة التشريع والتوجيه والمراقبة والمحاسبة .

وما دام الدكتور سرور قد أصيب بالفيروس نفسه الذى اشتهر به النظام القائم فى مصر ، ألا وهو " الإدمان " ...إدمان السلطة ، حتى تحولت إلى مرض مزمن ، فلابد أن يستمر الحديث حوله وعنه ، فهو لم يشبع من السلطة منذ أن توزر للتعليم عام ١٩٨٦ ، وأصبح رئيسا لمجلس الشعب منذ عام ١٩٩١ ، وهى فترة لم يشهد مثل طولها مجلس نيابى فى تاريخ مصر كلها ، منذ عرفنا أول مجلس نيابى عام ١٨٦٦ فى عهد الخديوى إسماعيل ، وهو شئ لا يبعث أبدا على الفخر !

إن الديمومة التى تبعث على الفخر حقا هى أن يظل الأستاذ ذا عطاء علمى إلى ما شاء الله ، والدكتور سرور هجر موقعه العلمى فى الجامعة ، ولا بأس فى ذلك ، فكم من أستاذ تقلد موقعا آخر من خلاله يفيد مما اكتسبه من مكانته العلمية ، لكن هذا مفروض أن يكون إلى حين ، وإلا أصبح الباب

---

* نشر بجريدة المصريون في ٢٠٠٧/٦/٦

مفتوحا " للصدأ " كى يعرف طريقه إلى صاحب الموقع ، حيث أن الحياة الجامعية بطبيعتها تبقى على الاتصال بمصادر المعرفة المختلفة ، وتدفع على الإنتاج المعرفى المستمر ، أما مواقع السلطة ، وخاصة فى البلدان المتخلفة ، فهى تغرق صاحبها فى الكثير مما يبعده عن القراءة وتجديد العقل والتفكير ٠

الديمومة الممدوحة هى أن يظل الفنان على عطائه الفنى ٠٠٠والأديب ٠٠٠والصانع ، وهكذا ، أما أن يظل هذا وذاك متربعا على عرش السلطة ، فذلك مرض ما فيه شك ، حيث يدخل فى باب الاحتكار ٠ وأبشع من هذا ما يصاحب استمرار صاحب السلطة طويلا فى موقعه من تشكيله " تربة " تنبت فيها نباتات أخرى مما عرف بمراكز النفوذ والمصلحة والقوة ٠

صحيح أننا نألف ، أيضا فى الدول المتخلفة ، أن نرى أحيانا قصة تصدر باسم صاحب سلطة ، أو دراسة ، أو كتابا ، لكن الناس عادة تتساءل بينها وبين نفسها : متى وكيف تأتى لهذا المسئول أن يفعل هذا وهو غارق طوال يومه فى المقابلات والاجتماعات والسفريات والتليفونات والزيارات والمهام ، مما يصعب حصره ؟!!

ولأن شعبنا خبير فى التعبير عن عدم رضاه بالنكتة ، فقد نقل لنا أحد الأصدقاء أن جماعة وطنية مخلصة لمصر تبحث عن كراسى حكم " تيفال " ، حتى لا " يلصق " بها الذى يجلس عليها !

واستمرار صاحب سلطة متربعا على كرسيه فترة طويلة فى النظم المتخلفة ، ليس مؤشر جودة ، بل هو مؤشر رضى يحظى به ، وإقرار بأنه يعزف اللحن نفسه ، والذى يقوم على احتكار السلطة وقمع الآخرين ، وحبذا لو كان ذلك عن طريق " تفصيل " قوانين تقنن للظلم والقهر وتحمى الفساد وتقصى الشرفاء والمخلصين وتفتح أبواب السجون والمعتقلات لهم ٠

لقد قال أحد الجلوس يوما مكررا تلك العبارة الشهيرة التى يوصف بها من يسمون " بترزية القوانين " ، فإذا بضيف محاضر يقول ، لا ، لم نعد أمام "

ترزية " ، لأن " التفصيل " الذى يقوم به " الترزى ، عمل ينتج شـيئا معقـولا على أية حال ، وإنما أصبحنا نعيش زمنا وجدنا أنفسنا فيه أمام نوعيـة ممـن يشبهون " الصرماتية " ، أى الذين يتعاملون مع الأحذية القديمة المستهلكة لكى يهيئوها لاستمرار الاستعمال •

لا نقول ذلك على أساس أن صاحبنا يفعل هذا ، لكننا نقوله على اعتبـار أنه يرى ويشاهد ويقر بعض ما يحدث على هذا الطريق ، وتصل به الجرأة أن يصرح لمجدى مهنا فى إحدى حلقات برنامجه على قناة دريم (فى الممنـوع) أنه راضى الضمير ، حتى أننى اضطررت إلى غلق التلفزيون من هول العبارة ، فقد يفعل إنسان خطأ جسيما وخطيئة شنيعة ، لكننا نقول بيننا وبين أنفـسنا : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ، فإذا ما سعى من يكـشف ويبـين بعـض الخطايا وبعض المهازل ، ثم يصر المشارك والمؤازر والمبـارك علـى أنـه مرتاح الضمير ، فتلك والله هى الكارثة بعينها •

إننا لا نستطيع أبدا أن ننسى تدفق الأحداث والوقائع التى أحاطت بالدكتور أيمن نور ••لم أكن من المعجبين به كثيرا ، لكننى كنت أقدر شجاعته وحيويته ، لكن الرجل بدا فى لحظة أنه أصبح " صاروخا " فى سماء السياسة المصرية حالكة السواد ، وكان لابد من خنقه ، حيث من غير المستحب أن يكـون فـى مصر ناشطون كبار فى السياسة إلا من يقومون بدور " العرائس " فى مـسرح العرائس ، والأسباب المبررة للقضاء على من يحاول أن يكون زعيما سياسيا ، يمكن " صناعتها " ، فإذا بالبيروقراطية المصرية الشهيرة تختفى ، وتحل محلها إجراءات لا تحفل بأيام عطلة ، ولا بساعات ليل متأخرة ، ولا بإجراءات لابـد منها •••المهم أن يسقط الرجل ، حتى يكون الطريق سهلا لباقى العمليات التى تدفع به إلى السجن متهما بأبشع التهم ، ويختلط الحق بالباطل والباطل بالحق •

صحيح أننى لا أزعم معرفة الدخائل ولا أستطيع عن أشـق عـن قلـب الدكتور سرور ، ولكننا لسنا على مثل هذه الدرجة من الغباء التى يتـصورونا

بها ، فكيف يمكن أن يكون ضمير الدكتور سرور وعقله وقلبه راضيا عما تم ، من أجل أن يستمر على مقعده أكثر من هذه الفترة التى قضاها ، وهو لابد يعلم علم اليقين أنه في يوم من الأيام سوف يلقى – مثل أى إنسان – ربه ليسأله عما فعل ، ولن يستطيع أحد منا أن يقول بغير الحق ، فربنا عز وجل يؤكد علينا (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) سورة الانفطار .

وللدكتور سرور من حقه بطبيعة الحال – على سبيل المثال – ألا يعجبه الإخوان المسلمون ، وأن يرى غير ما يرون ، لكن كيف يرضى ضميره ويقنع عقله ويستقر فؤاده على ما يحدث مع من اختارهم الناس من هؤلاء ، فتزور نتائجهم ، ويحل محلهم من لا يستحقون ؟

إذا كنا نعادى – فرضا – الإخوان لأنهم سيئون ، فهل ما يتم من تزوير لإقصائهم وإحلال من لا يستحق محلهم ، على غير رغبة الناس ، لا يجعلنا نبرهن بذلك على أننا لا نقل عنهم سوءا ؟ نقول أنهم سوف يكونون إعصارا يعصف بالديموقراطية ، فهل ما يتم معهم وضدهم هو من الأساليب الديموقراطية ؟ منذ متى يمكن لأحد أن يزعم أن بالإمكان أن ينبت الشوك عنبا؟ وسائل البطش والقهر لا تنتج إلا شخصيات مقهورة ، ولا تزرع إلا قيم ظلم واستبداد ، فهل عقل الدكتور سرور مقتنع بالفعل بأن يقف على رأس موقع يتم باسمه مثل هذا وذاك ؟

ما زلت محتفظا بعدد (الدستور) الصادر فى الثلاثين من مايو الماضى وفيه تذكير بالوقائع التى جرت مذهلة فى السرعة ، ويوم عطلة كالعادة ، حتى ترفع الحصانة عن طلعت السادات (مثال آخر) ، وترتسم علامات استفهام : هل حقيقة أن السبب يكمن وراء رأيه الذى أبداه فى قناة أوربت فى الثانى من أكتوبر ٢٠٠٦ ، أم أن المسألة تتعلق بآراء أخرى أبداها الرجل تتعلق

بشخصيات " كبيرة " – موقعا – أشار إليها بإصبع اتهام بأهوال فى نهب الوطن؟

وفى الفترة الأخيرة يحدث ما يحدث من إهدار لكرامة أعضاء في مجلس الشعب ، فلا يهتز ضمير أستاذ القانون ، لأن هؤلاء النواب من " ولاد الجارية " ..من الإخوان المسلمين !

وهكذا ، إذا وجدنا هناك – صدفة – نائب ممن لا يصفقون ويوافقون ويغمضون أعينهم عن الانحرافات ، وكان ذا عقل حر التفكير ، وقلب جسور ، وضمير يقظ ، ثم وقع ولو في هفوة غاية فى البساطة ، نجده يقع بسرعة تحت المقصلة ليتم ذبحه ، وتضخيم الخطأ سهل ، وتطويل قائمة الاتهام أمر يسير .

وأرجو ألا يبرز اتهام فورى بأن كاتب هذه السطور من الإخوان ، فما زلت أذكر أول لقاء لنا في رابطة التربية الحديثة أوائل عام ١٩٨٧ ، حيث صرح الدكتور سرور بصوت عال أمام بعض الحضور أن البعض ممن حوله قد همس إليه بأن سعيد إسماعيل " شيوعى " ، وكان الدليل الوحيد هو أننى كنت أكتب في جريدة الأهالى

وعلى العكس مما يحدث للأعضاء المعارضين ، فكثيرون يعرفون أفرادا قد تكون جرائمهم أفدح ، وقد تكون رائحتهم تزكم الأنوف ، لكنهم " على الحجر " ...تتباطأ الإجراءات وتُعوق ، وقد يتفتق ذهن عباقرة قانون بإيجاد مخرج ، والعاملون بالقانون يعلمون جيدا كيف تتركز مهارة البعض فى استغلال ما يكون من ثغرات كى يخرج المتهم بريئا ويدخل البرىء سجنا .

تخبرنا موروثاتنا الدينية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غضب غضبا شديدا عندما حاول أحد الصحابة أن يشفع لآخر وقع فى خطأ واضح ، فقال قولته الشهيرة المؤكدة أن ابنته فاطمة رضى الله عنها ، وهى فلذة كبده ، وليست مجرد " قريبة " من العائلة ، أو أحد أصدقائه ، لو سرقت ، لوقع عليها رسول الله الحد ، ألا وهو قطع يدها ..ابنة رسول الله .

ثم يعلن صلوات الله عليه وسلامه ، عن تلك السنة التاريخية والاجتماعية : أن الذى أهلك العديد من الأمم السابقة أن الشريف إذا سرق تركوه ، وأن الضعيف إذا سرق وقعوا عليه الحد ... صدقت يا رسول الله !

إن الله قد يمد للطغاة مدا ، وقد يسمح للمفسدين بالاستمرار ، وقد يمهل الساكتين عن الحق فترة ، ولكن ، دائما إلى حين ...

ودائما ، كما أن هناك فى الملأ الأعلى " كراما كاتبين " ، يعلمون ما نفعل ، فإن على الأرض أيضا كراما كاتبين من علماء التاريخ ، لا يكونون بيننا الآن ، حيث لا يطفو على السطح عادة – فى المجتمع المتخلف المقهور – إلا المزورون والمنافقون والضاربون على الدفوف ، كذبا وغشا ، مداراة وخداعا ، وهؤلاء الذين يصدقون ما عاهدوا الله عليه سوف يكتبون بحروف من طين أسماء من يقهرون ويظلمون وما يفعلون ، طين مغموس فى رائحة تزكم النفوس ...

إن هذه الكلمات نسوقها لا لتجريح الدكتور سرور وإنما لإنقاذ إنسان أحببناه زمنا وقدرناه .. لإنقاذ الأستاذ الدكتور أحمد فتحى سرور أستاذ القانون الجنائى بجامعة القاهرة ، الذى يُعلم ويبحث ويحاضر ويُنوِّر من براثن الدكتور أحمد فتحى سرور رئيس مجلس الشعب ، الذى يشارك فيما يتم من ظلم وقهر واحتكار ، فامتلأت قلوبنا بالكثير من المشاعر تجاهه ، لا أظن أنها تسره .

سرور الثامن عشر* ..!

يتربع الدكتور سرور على عرش الرئاسة لمجلس الشعب في العام الحالى الذى يعد هو العام الثامن عشر له ، كى نثق بتوافر الاتساق بين عناصر منظومة الحكم الحالى ، من ناحيتين :

أولاهما : هو الاستمرارية فى المواقع القيادية بمعدلات فاقت معدلات القيادة في معظم دول العالم المتقدم ، وتلك التى فى طريقها إلى التقدم ، مما يؤشر إلى أن " تداول السلطة " هو بالفعل سمة من سمات النهوض الحضارى والديمقراطية والتقدم ، والعكس بالعكس ، حيث يشكل " دوام " القيادات واستمرارها في السلطة سمة من سمات الدول المتخلفة والنظم التى رضيت بأن تكون فى ذيل الركب الحضارى .

ثانيهما هو أن المعيار الذى يحكم اختيار القيادات ، والإبقاء عليها أو الاستغناء عنها هو مدى " الثقة " التى تحظى بها من قبل النظام القائم ، ولك بعد هذا أن ترصد ما يمكن أن تراه من سوء حال الوطن وبؤس الكثرة الغالبة من المواطنين فى برنامجين تلفزيونين محليين ، مثل العاشرة مساء ، و٩٠ دقيقة ، فضلا عن الصحف المستقلة ، بل لو نزلت إلى الشارع وأخذت عينة عشوائية من الناس ، فسوف تجد نفسك أمام صورة سوداء لحال وطننا المنكوب ، ومن ثم فإن دوام الثقة فى قيادة يمكن أن يعد مؤشر سوء وليس مؤشر خير !

والحديث العام عن مجلس الشعب ليس حديثا فيما لا يفهم أمثالنا ، لسبب بسيط هو أننا لا نناقش أسسا قانونية ولا قواعد دستورية ولا إجراءات تشريعية ، وإنما نتناول " أداء " عاما ، تماما مثلما نرى عشرات الناس يكتبون ويناقشون مسائل فى التعليم ، دون أن نحتج ونقول أن هذا لا يجوز لأنهم لم يدرسوا

---

* جريدة الدستور فى ٢٠٠٨/٢/١٠

علوما تربوية ، وبالمثل عندما تفيض صحف فى الحديث عن الحالة الـصحية فى مصر ، لا نهب فى وجوههم معترضين أنهم يتحدثون فيمـا لا يفهمـه إلا الأطباء ، لأنهم لا يشخصون أمراضا ولا يجرون عمليات جراحية ولا يصفون دواء طبيا ٠

والمواطن فى مصر أصبح متعودا على أن يجد أكثر من صحيفة تتنـاول بالنقد سلوكيات لا تصح مما يحدث تحت القبة ، بل لقد لاحظت فى الأسـبوع الماضى الصحفى البارع أحمد المسلمانى يتحدث عما يجـرى داخـل مجلـس الشعب فى برنامجه (الطبعة الأولى) بقناة دريم بما يبعث على الخجل حقا من أن يكون هذا هو المستوى الذى أصبح عليه بعض من يمثلون الشعب المصرى ويكون لهم الدور الأساسى في رقابة الدولة والتشريع ، أقل مثـل علـى هـذه السلوكيات هو التلفظ بألفاظ لا يصح أن تصدر من أى إنسان ، فمـا بالنـا أن تصدر من ممثلى هذا الشعب العظيم العريق ؟

ووصل الأمر بوزراء حكومة يصفون انتقادات نواب توجه لأدائهم بألفاظ معيبة ، ويقف رئيس المجلس صامتا و " يُفَوِّت " ، وأقصى ما يفعل أن يـأمر بحذف هذا اللفظ أو تلك العبارة من المضبطة ، مع أن إثبات هذا وذاك هو أمانة تاريخية حتى تعلم الأجيال التالية أى نفر كان يوجهون ويُشَرِّعون ويراقبون فى ظل هذا النظام المؤسف حقا ، المخجل فعلا ٠

لكن رئيس المجلس يمكن أن يهب حفاظا على كرامة المجلس إذا جـاءت كلمة لا تعجب على لسان نائب من " المحظورة " ، وكأن لسان حال مـسئولى المجلس أنهم " ما صدقوا " ، مصداقا للقول الشهير عن عين الرضا التى هـى عن كل عيب كليلة ، وعين السخط التى تبدى المساوئَ ٠

ولقد سبق لنا أن كتبنا فى مقال سابق عن مساهمة الدكتور سرور فى اتخاذ إجراءات ضد شخصيات " غير مرضى " عنها مثل أيمن نور وطلعت السادات ، وفى الوقت نفسه يسكت عن اتخاذ إجراءات كان من الضرورى أن تتخذ ، لا

لشئ إلا لأن النظام القائم يرضى عنها ! ولقد أكد نائب مثل طلعت السادات لبرنامج القاهرة اليوم أن سرور جامل السلطة على حسابه !!

ومثلما تمت انتخابات سابقة ، عبر عدة دورات وفق منطق الرشوة ، حسب ما تم تناقله بين الناس وبعض الصحف ، إذا بالدولة نفسها - وفقا لما أكده عدد من النواب - تمارس الرشوة فتدفع عشرات الألوف من الجنيهات لنوابها الرسميين ، مبررة ذلك بأن هذا لمساعدتهم فى القيام ببعض الخدمات لأهالى دوائرهم ، والسؤال هو : فهل يدفع مثل هذا للنواب المعارضين ؟ أبدا ، فهل أهالى دوائرهم ليسوا من أبناء مصر ولهم الحق فى هذا المال المدفوع أصلا من جيوب الناس ؟

وتساؤل آخر : أليست هناك " حكومة " ، لها إداراتها المنبثة فى طول البلاد وعرضها ، واجبها أن تقوم بمثل هذه الخدمات ؟

كيف يقبل رجل القانون والعدل على نفسه أن يعرف كل هذا ويسكت ؟ هل يطمع أن يحظى بمزيد من الرضا، به يمكن أن يستمر للعام التاسع عشر وما بعده ؟

لقد نشرت المصرى اليوم فى عددها الصادر ٢٠٠٨/١/١ مستندا مفجعا حقا ، يؤكد تورط رئيس الوزراء فى قضية الرشاوى السياسية التى تقدمها الحكومة لنواب الوطنى ، والمستند عبارة عن خطاب رسمى صادر عن مكتب الاتصال السياسى برئاسة مجلس الوزراء ، وبتوقيع رئيس المكتب وموجه إلى المستشار الاقتصادى لوزير الدولة للتنمية الاقتصادية يقول فيه " بالإشارة إلى مشروع تطوير الخدمات الجماهيرية بالمحليات أرجو التفضل بالموافقة على صرف المبالغ التالى ذكرها إلى السيد النائب ...وتحديد جهة الصرف والمبالغ" !!

وفى العدد نفسه من المصرى اليوم نجد مقالا مؤلما حقا للدكتور أسامة الغزالى حرب ، والرجل له وزنه العلمى والفكرى والسياسى ، أنصت لصوت

ضميره عندما كان فى لجنة السياسات فاستقال ، وهو الأمر الذى له مغـزاه ، وخاض حزبه الانتخابات الفرعية التى خلا مقعدها باسـتقالة النائبـة السـابقة شاهيناز النجار ، وهذا هو الخطأ الأول لأسامة وحزبه ، أنهم صـدقوا لعبـة الديمقراطية ولعبة الانتخابات ، لكن يبدو بالفعل " رب ضارة نافعة " ، فقد لمس بنفسه هذا الذى رددناه ، وردده غيرنا عشرات المرات عن كيفية نجاح بعـض النواب وكيفية فشل البعض الآخر ، ليست المـسألة مـسألة قـدرات سياسـية وأخلاقية وجماهيرية وعلمية ، وإنما هى القوة المسلحة للأمن المركـزى ومـا شابه ، فضلا عن الداء نفسه " الرشوة المادية " ، والتزويـر جهـارا نهـارا ، والمقال المحزن لأسامة ملئ بالمشاهد المحزنة التى فوجئ هو بها ، ولم نفاجـأ نحن ، فهكذا يا دكتور أسامة دخل كثيرون ، وهكذا يا دكتور أسامة لم يـتمكن البعض من الأكفاء من الدخول ، فهل هذا مما يشرف رجـل القـانون الكبيـر والأستاذ الجامعى العظيم ؟

ولعلنا بعد هذا نتفهم لماذا استخدم النائب حمدين الصباحى مصطلحا دقيقـا عندما وصف حزب الحكومة بأنه حزب " الفقر الوطنى " ، وكذلك عندما التقط مصور جريدة الوفد صورا لشخصيات مهمة فى إحدى جلسات المجلس وهـم مستغرقون فى نوم عميق ، وأطلقت الجريدة وصف " نوام مجلس الـشعب " ، بينما القضايا المثارة خطيرة ، والموضوعات المعروضة مهمة !

ومن أطرف الأحاديث التى نشرتها إحدى الصحف منـذ فتـرة ردا مـن الدكتور سرور على ما يثار فى قضية التوريث ، أن من حـق الـسيد جمـال مبارك ، مثل أى مواطن أن يتقدم عند حلول الوقت المحدد للترشـح لرئاسـة الجمهورية ، وأن هذا ليس توريثا .

وأنا حريص على التغافل عن الحديث فى قضية التوريث هذه ، لا هربـا ، وإنما لأننى أعتقد أن المسألة ليست شخصا بعينه أو غيره ، وإنما هى أكبر من

ذلك ...هى مسألة نظام أصابه الخلل ، وتسربت إليه الشقوق ، واعتراه التصدع والتهرؤ .

لكن الدكتور سرور ، مثله مثل حكامنا ، ومن قبل سلطات الاحتلال البريطانى ، يتحدث ويتصرف على أساس أننا أغبياء لا نفهم ولا ندرك المغزى العظيم لما يقولون ، والمرامى البعيدة التى لا تدركها عقول أمثالنا ، فظاهر حديثه عن التوريث - قانونا - عداه العيب ، لكن هناك علماء كثيرون فى اللغة والثقافة والاجتماع والسياسة يشيرون إلى جانب خطير ألا وهو الأثر الخطير ل" السياق " القائم ، ومن هنا فلك أن تتساءل : وهل ضميرك يا دكتور سرور الذى يجعلك تنام قرير العين يشير لك أن الفرص متكافئة بين مختلف المواطنين الذين يمكن أن يتقدموا لانتخابات رئاسة الجمهورية ؟

لقد استخدمت منذ سنوات أيام كان سرور وزيرا للتعليم تشبيها لما يجرى من إعدام للعدل التربوى فى مصر ، يمكن تطبيقه على حال لاتوريث آلتى تحدث عنها الدكتور سرور ، فأشرت إلى سباق يمكن تنظيمه للجرى ، يقف المتسابقون على خط واحد ، حتى إذا انطلقت إشارة البدء ، إذا ببعض المتسابقين يجدون " التراك " مملوءا بالحفر ، وإذا ببعض آخر يجد من ينقلهم بدرجات ،وإذا ببعض ثالث تلتقطه طائرة مروحية لتصل به إلى نقطة الفوز فى ثوان ، وبغير جهد !!

وتكشف لنا جريدة (الفجر) فى عددها الصادر فى ٢٠٠٧/١٢/٣١ عن فضيحة أخرى من فضائح مجلسنا الموقر ، وهو تنبؤنا بالإجابة عن سر تجاهل الحكومة لتساؤلات الأعضاء واستجوابات البعض منهم ، فهذا نائب يقدم استجوابا عما تعانى منه مصر مما يسمى بنزيف الدم على الطرق ، فتتبعت الجريدة مسار الاستجواب ورقيا بين عدة جهات ، لكن المثير ، فيما كتبت الجريدة أن مراسلات سرور لوزير التنمية الإدارية وكذلك مراسلات غيره من المسئولين الكبار أخذت طريقا آخر فى اتجاه مصلحة الشعب الحقيقية ، ألا وهو

" البطاطا " ، خاصة ونحن فى فصل الشتاء ، حيث يصبح أكل البطاطا لذيذا حقا !

لقد صورت الجريدة صورة من أحد الخطابات المتصلة وجدته لدى بائع بطاطا يستخدمه فى لف البطاطا ، حتى تحتفظ بسخونتها ، وهذا خطأ واضح من البائع ، لأن هذه الخطابات لا تحتفظ بالسخونة ، وإنما تصيبها بالبرود المنبث بين سطورها ٠٠٠برود قيادات ترفل فى نعيم ، لا تشعر فيه بآلام الناس ، ويا ليت ما تقيم فيه من نعيم هو نتيجة جد وكد وتعب وعرق ، لكنه يجئ بوسائل أخرى مُشينة ، كلنا يعرفها ، ومن هنا تكون مواقفهم إزاء هموم الناس " اللى تحت " ، والذين فيما يبدو ، غضب الله عليهم فأوقع مصيرهم فى أيدى هؤلاء الذين يحكموننا •

متى يتصالح النظام مع مواطنيه ؟!

لم أكن أتصور ، ونحن فى القرن الحادى والعشرين أن مسئولا كبيرا يمكن أن يكرر تلك القصة التى قرأناها صغارا ، عن مجرى ماء يجرى من عل إلى أسفل ، والحمل يقف أعلاه ، والذئب أسفله ، ومع ذلك يتهم الذئب الحمل بأنه يعكر عليه الماء ؟

لقد حدث هذا بالفعل فى قاعة ما يسمى بمجلس الشعب ، عندما وقف نائب " محترم " يمسك بملابسه التى تمزقت بفعل عنف الأمن المعروف ليشكو ويتهم وينعى " الحصانة " المزعومة لمثله أن تهدر جهارا نهارا ، ثم إذا بمسئول الداخلية يرد بأن هذا النائب هو الذى اعتدى على الشرطة ، أى والله !

إن النائب هو من الجماعة المحظور عليها أن تشارك فى بناء الوطن ، ومن ثم فإن " الحصانة " بالنسبة إليه لابد أن تكون " محظورة " ، أما إذا كان مزدوج الجنسية أو لصا أو قاتلا ، فلربما استطاع أن يتمتع بالحصانة المنشودة.

إن أقسى ما فى رد مسئول الداخلية فى نظرى هو أن يعكس تصورا عن المصريين مفزع أشد ما يكون الفزع ، مخجل أشد ما يكون الخجل ، فعندما يغيب المنطق تماما ، وعندما تختفى الحقيقة كلية ، ويقال تفسير يستحيل على طفل تصديقه ، يصبح إعلانه ، إعلانا عن تصور بأن المصريين هم قوم من البلهاء ،وأننا لم نبلغ سن الرشد بعد .

إن صدق هذا ، فيمكن لنا أن نستخدم " المنطق التربوى والنفسى " ، وهو أن فساد الأبناء هم حكم على فشل الآباء والأمهات بتربية الأبناء ، وقياسا على هذا ، عندما يحكم نظام شعبا أكثر من ربع قرن ، ويظل على هذه الدرجة من البلاهة التى تجعله يصدق أن نائبا محترما يمكن أن يعتدى على الشرطة ، فهذا

إعلان بفشل هذا النظام وتقصيره الفادح فى التربيـة الـسياسية لأبنائـه مـن المواطنين ٠

ويجئ هذا فى سياق أسابيع شهدت فيه مصر ما لم تشهده أيـام الاحـتلال البريطانى ، من حرب عنيفة على فئة من المواطنين تريد أن يكون لها دور فى بناء الوطن ، فيحال بينهم وبين ذلك ، ثم لا يقف الأمر عند حد المنع ، وإنمـا يتحول إلى حرب ضروس تستباح فيه الكثير من القيم والمعـايير والأصـول والأعراف ، إلى حد أن يعتقل أبناء يستعدون لأداء امتحاناتهم ، فيمنعون مـن ذلك ، حتى يتم اعتقال أبيهم ، فإذا قلت أن الله يقول فى محكم تنزيله (لا تزر وازرة وزر أخرى) صموا الأذان ، ولم لا ؟ (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهـم أعين لا يبصرن بها ولهم أذان لا يسمعون بها ٠٠٠) ٠

وتخصص صفحات في صحف " قومية " ، وبرامج في قنوات وإذاعات " قومية " للتخويف من أى جماعة أو تيار يتوجه بالتوجه الدينى ، على أساس أن هذا فيه دمار للوطن ، ونسفا للنعيم المقيم الذى نرتع فيه منذ سنوات !!

بل لقد وضح لنا أن كثيرا من " التشويهات " الدستورية ، كـان مفـصلا بصفة خاصة كى توضع الحواجز والموانع أمام هؤلاء حتى يظلوا بعيدين عن المشاركة فى بناء الوطن ، ومن هنا شهدت قبل انتخابات ما يسمى بالـشورى حملة اعتقالات واسعة ، والمبررات ليست مشكلة ، ففى ظل التقدم التقنى مـن الممكن أن تثبت أن الحق أصبح باطلا وأن الباطل أصبح حقـا ، " بالـصوت والصورة " والأدلة الدامغة والبراهين المؤكدة !

كانت حربا ضروسا بالفعل ، استخدمت فيها عديد من الأسلحة ، غير هذه الأسلحة الدامية التى اعتدناها إلى درجة أن أحدا لم يعد يحـتج ، ولا يقـاوم ، وكأنه أصبح قدرا على المواطن المصرى أن يُصفع بالقلم ، وأن يُداس بالجزمة ، وأن يُسحل فى شارع ، وأقصى ما يكون من رد فعل هو مصمـصة الـشفاه وإبداء الأسف ، وخاصة من جانب من يسمونهم بالمثقفين ، أما إذا منعت مجلة

فيها إساءة إلى الخالق عز وجل ، فهنا تقوم القيامة ، لأن سب الله صورة من صور الإبداع !!

هل ارتاح النظام الآن وقد ملك كل الأصوات فى المجلس الثانى ليستمر إلى ما شاء الله ؟ وهل يجد الدكتور سرور ، أستاذ القانون الكبير ، أمامه صورة أخرى التى تجعله ينام " قرير العين " ، كما صرح مرة لمجدى مهنا فى برنامجه " فى الممنوع " ؟

عندما تم السماح لأيمن نور بإنشاء حزب الغد ، قلنا أن النظام ثاب إلى رشده ، وأننا سوف نشهد منافسة حقيقية على مسرح السياسة تحرك المياه الآسنة التى علاها العفن والروائح الكريهة ، وبالفعل تقاطر كثيرون على الحزب الجديد ، فإذا بالأسافين والقنابل والخناجر يتوالى بعضها وراء الآخر ، وتوج ذلك عندما صدق أيمن نور حكاية التنافس على منصب رئيس الجمهورية فشارك ، فكان ما كان من حرب وتشويه وتمزيق وسجن وتشريد .

وهو الأمر أيضا الذى حدث لحزب الوفد ، عندما تجرأ رئيسه السابق ، فشارك فى انتخابات رئاسة الجمهورية ، فكان ما كان من حرب داخلية أضعفت الحزب إلى حد كبير وخفضت من شعبيته ، ولم يعد من القوى الكبرى اللاعبة على أرض السياسة المصرية .

ولذلك ، فعلى الرغم من تقديرى الشديد لكل من الدكتور يحيى الجمل ، والدكتور أسامة الغزالى حرب ، اللذين أعلنا قيام حزب جديد حظى بسرعة عجيبة من حيث الموافقة من اللجنة إياها التى يرأسها أمين عام الحزب الحاكم ، والتى هى المسئولة عن السماح لهذا الحزب أو ذاك بأن يظهر على مسرح السياسة ، أشفق عليهما من تصديق إمكان أن يلعب الحزب دورا حقيقيا على الساحة السياسية فى ظل هذا النظام القائم ؟ !

صحيح أن العقل والمنطق يؤكدان على أن المعارضة القوية هى التى تبث الحيوية والعافية فى شرايين الحياة السياسية ، وأن النظام القائم ربما تنبه إلى

ضرورة وجود حزب جماهيرى قوى ، يقف فى الجبهة المعارضة ، إن لم يكن لبث الحيوية فى حياتنا السياسية ، فعلى الأقل يمكن أن يملأ الفراغ السياسى الذى يقولون أن الجماعة المحظورة تستغله لتكسب شعبية بين الناس ...

لكن " سوابق " هذا النظام لا تجعلنى أشعر بتفاؤل ، ذلك أن هذا السيناريو هو نفسه الذى حدث مع أيمن نور ، وفى اللحظات الجادة ، عندما يرون الجماهير تتقاطر على الحزب الجديد ، فلن يطيقوا هذا ويتحملوه ...لأنهم لا يريدون حيوية للحياة السياسية ، إنهم تربوا على منطق الاستئثار ونهج الاستئصال ، وعقلية الاحتكار .

إن الحيوية السياسية يمكن أن تكشف بالضرورة عن المرتشين واللصوص ، ويمكن أن تعرى عن الصفقات المريبة والمشبوهة بين رأس المال والسلطة ، ويمكن أن تكشف عن التحالف مع الأعداء الخارجيين ...ويمكن ، ويمكن ، وهذا كله غير مرغوب .

ولنا أيضا مع ما جرى منذ سنوات طويلة مع الإخوان المسلمين مثالا صارخا ...

ليست المسألة حقيقة هى استناد هؤلاء إلى المرجعية الدينية ، إذ أن الدستور نفسه فى مادته الثانية يؤكد على أن الشريعة الإسلامية هى مصدر التشريعات ، والتشريعات أقوى من أى شئ آخر فى بناء الوطن ، وهؤلاء إنما يلتزمون بالدستور فى هذا الشأن .

لكن نظامنا ، لا يفكر لا في مرجعية دينية ولا فى دستور ، ولا فى أصول السياسة ، إن كل ما يهمه هو الاستمرار والاحتكار ، وفى سبيل ذلك ، فليلعب بهذه الورقة أحيانا ، وليلعب بتلك الورقة الأخرى أحيانا ، ولو شئت لسقت لك عشرات الأمثلة التى تؤكد لك أن النظام نفسه هو أكبر من يلعب بالورقة الدينية أكثر من الإخوان أنفسهم ، مع فارق فى " النية " وفى " المقصد " كبير .

لنفرض أن الإخوان مخطئون فى آرائهم ، فلم لا يتم تفنيد آرائهم علنـــا ؟ وتفنيد آرائهم يستلزم أن يطلع الناس أولا على ما يقولون ، ثم يُـــرد علـــيهم ، والحكم للناس ، إن شاركوهم فى الرأى أو خالفوهم بغير وصاية من أحد .

لكن السبل أمام هؤلاء الناس مسدودة :

إن قيل أن القناة الوحيدة المسموح بالعمل بالـــسياسى مـــن خلالهـــا هـــى الأحزاب ، منعوهم من أن يكون لهم حزب .

وإن اتجهوا إلى نقابات مهنية ينفذون من خلالهـــا آراءهـــم الاجتماعيـــة والدينية ، حاصروا هذه النقابات وجمدوها أو ضربوها من الداخل .

وإن أرادوا أن يربوا كوادر تربية سياسية ودينية فى المدارس والجامعات ، شتتوا شملهم وفصلوهم واعتقلوهم ، فضلا عن السوائل المعروفة فى الضرب والسحل والتعذيب ..

فلما لم يسمحوا لهم بقناة صحفية تحمل آراءهم جهارا نهارا وعلنا وفى النور حتى يطلع عليها الجميع ، ويقولون لمن أخطأ أنت أخطأت ، ولمن أصاب أنت أصبت ، واستطاعوا أن يتفقوا مع بعض الصحف والمجلات لتحمل آراءهم العلنية ، بادروا إلى إغلاقها واحدة بعد أخرى ، بعد عملية حصار مكشوفة ...منذ أن بدأ ذلك بمجلة لواء الإسلام ، ثم بجريدة آفاق عربية ، فجريدة الأسرة العربية !

هل هذا الذى نطلبه مخالف لأصول الديموقراطية ؟

يقولون ، أن مثل هؤلاء الناس يستخدمون الديموقراطية للوصـــول إلـــى الحكم ، فإذا وصلوا ، منعوا غيرهم وقهروهم ...

هذا الذى تتصورون أنه " متوقع " ، ومنهجكم فى محاســبة النـــاس علـــى نواياهم وما هو فى ضمير الغيب، أنتم فعلتموه واقعا وتنفيذا ، وإلا فهـــل أنـــتم تسمحون لمن يخالفكم بحرية الحركة والتعبير ؟

إن كل من ينضوى تحت سماء هذا الوطن هو أحد ملاكه ، ومن حقه أن يعبر عما يراه صالحا لبنائه ، وإذا لم يعجب فريق رأى فريق آخر ، فليكن الرأى العام هو الفيصل ..

لكنهم ، يعرفون جيدا ، أين سيقف الرأى العام ...يعرفون جيدا أن الرأى العام سوف يقذف بهم على قارعة الطريق ، ومن ثم فهم لا يسمحون إلا بأحزاب شكلية لا حول لها ولا قوة ، والأحزاب التى يمكن أن ننتظر منها شيئا ، فإما أن تحاصر لتتجمد أو تفجر من داخل ، حتى يظل أهل النظام يرددون (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من حولى) !!

أمن الوطن وأمن النظام* !

قال محدثى : لماذا أرى الحزن فى وجهك هذه الأيام كلما سمعت عن هجمة شرسة من الحكومة على الإخوان المسلمين وأنا أعلم علم اليقين أنك لست واحد منهم ، ولم تكن كذلك فى يوم من الأيام ؟

قلت : المسألة ليست اعتقال أو سجن هذا وذاك ، وليست مصادرة أموال من هنا ومن هناك مما يخص الجماعة ، ولكنها فى تلك المؤشرات المتعددة المحيطة بالقضية ، وما تتضمنه من دلالات مفزعة ، تؤكد لنا أننا أمام نظام مستعد أن يضحى بالوطن كله فى سبيل أن يستمر ، حيث لم تشبعه ست وعشرون سنة ، تراجعت فيها مصر بصورة جعلتها " منزوعة الدسم " فى النظام الإقليمى العربى إن صح أن نشير إلى نظام بهذا الإسم .

قال محدثى : لا أفهم هذه التعميمات ، بل أريدك أن تفصل وتضرب الأمثال ..

قلت : نحن نعرف أن القوات المسلحة وظيفتها الأساسية هى حماية الأمن الخارجى للوطن ، إذا ما فكرت قوة معادية أن تمسه بسوء . ونعرف أن قوات الشرطة حريصة على المحافظة على أمن المواطنين فى الداخل ، وللقوتين أجهزتهما السرية " مخابرات وأمن دولة " للمعاونة على تحقيق أهداف كل من شكلى الأمن الداخلى والخارجى ، فإذا جئت إلى ما يسمى بقوات الأمن المركزى وتساءلت عن مهمتها فسوف تجد أنها أنشئت لحماية النظام السياسى القائم ، فكأن هذا النظام يرى أمنه لا يتحقق فقط عن طريق القوات المسلحة ، ولا عن طريق الشرطة ، مما يؤشر إلى انفصال واضح فى الوعى واللاوعى لدى القائمين على النظام القائم ، منذ أن أنشئ هذا الجهاز على يد شعراوى

---

* نشر بجريدة المصريون الإلكترونية ، في ٢٠٠٧/٣/٧

جمعة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

قارن بين " شكل " قوات الأمن المركزى و " شكل " جنود الشرطة ، وإمكانات هذه وتلك ، سوف ترى فارقا يكاد أن يصل إلى ما بين المساء والأرض ، وهذا بحد ذاته مؤشر دال على " قيمة " أمن المواطن و" قيمة " أمن النظام .

انظر إلى المحيط الخارجى لجامعة القاهرة ، وجامعة عين شمس ، وجامعات أخرى ، فسوف تجد العربات المصفحة ومئات الجنود المدججين بالسلاح والهراوات ، ضباط تنظر فى وجوههم فيخيل إليك أن الواحد منهم قادر على أن يدمر إسرائيل مما يظهر عليه من علامات قوة جسم وعضلات وقسمات وجه صارم جاد ، وتسأل : ما وظيفة هؤلاء ؟ هل يقفون منذ سنوات مرابطين حماية لطلاب الجامعة ، شباب مصر وقياداتها المستقبلية فى كافة مواقع الخدمة والإنتاج ؟ أبدا ... هل هم لحماية أساتذة الجامعة ، عقل مصر وضميرها وقادة حركة النهوض والتنمية بها ؟ أبدا ...

هم للحيلولة بين هؤلاء وهؤلاء وبين أن يأتوا بأى فعل أو قول يمس النظام السياسى القائم ، لأن مئات الألوف من شباب الجامعات وأساتذتها – فى نظر النظام – لم يبلغوا سن الرشد بعد ، فإن ترك لهم الباب مفتوحا لينقدوا ويطلبوا ويصرخوا ، لابد وأن " يحجر " عليهم ، حيث أن الشعب المصرى ، منذ قرنين من الزمان على وجه التقريب يقال له أنه لم يبلغ سن الرشد بعد ، ولو ترك حرا ليعبر عن نفسه لخرب ودمر ولعبت به قوى خارجية متعددة لا تريد خيرا بالوطن (مثل إيران وليس إسرائيل !) .

كانت الصورة التلفزيونية أمامى للمحاكمة الأخيرة ، وقوات ضخمة من الأمن المركزى ، أو قل هو " أمن النظام " تحاصر من الداخل ومن الخارج مجموعة من الإخوان الذين قبض عليهم ، وفى الخارج نساء فضليات هن زوجات وأخوات وأمهات المأسورين ، ترى فى أعينهم الحزن الدفين ، وهن

يرون رجالهن وقد وقعوا فى الأسر لا لذنب اقترفوه بقدر ما لهم من جاذبية بين جماهير الناس وقوة سياسية وثبات دينى وفاعلية حركة ٠ وبجوار هؤلاء النساء عشرات الأطفال ٠٠ترى ماذا سوف يثبت فى عقلوهم وفى قلوبهم وهم قد عاشوا سنوات مع أب مستقيم السلوك ، مجتهد العمل ذى علاقات طيبة مع من حوله ، لكنه يسير فى اتجاه مخالف لاتجاه النظام ، فكان لابد من تشويه صورته بأى سبيل حتى ول افتقد المعقولية والمنطقية ؟!

كيف أرى هذا وذاك يا صديقى وأنا أكاد أوقن بكذب ما يفترى على هؤلاء وأمنع قلبى من التمزق ومشاعرى من الاهتزاز العنيف ؟ هل لابد أن أكون عضوا حتى أنفعل بمثل هذا وذاك ؟ كلا ٠٠انظر إلى أى شارع ، عندما ترى كلبا أو قطة أو أى حيوان يدهس أو يضرب ٠٠ألا تتحرك مشاعرك أسى وحزنا ؟ فما بالك بنخبة من ناشطى التجارة والصناعة والتعليم والبحث العلمى والزراعة والثقافة ممن يضيفون الكثير إلى حركة الوطن فى النماء والنهوض ؟

كيف يمكن ألا تتحرك مشاعرنا بالأسى والغضب ونحن نرى مصريا خان وطنه فتجسس لحساب عدو الأمة والدين إسرائيل ، وهو يحاكم أمام محكمة مدنية ، بينما يحاكم نفر من كبار الناشطين فى خدمة المجتمع ومستقبله أمام محكمة عسكرية ؟

الأول خان الوطن ، والثانى خان النظام – على فرض أن مخالفة النظام سياسيا تعد خيانة له – فهل عرفت إذن أى معيار تقاس به الأمور ، وأين تكمن المصلحة : مصلحة النظام ومصلحة الوطن؟

فى النظم الديموقراطية لا تستطيع أن تجد هذه المسافة بين " النظام " و " الوطن " ، فجماهير الناس هى التى تأتى بمن يديرون النظام ويمثلونه ، ولذلك هم جزء من الوطن وممثلين لجماهير الأمة ، لكن فى مثل دولنا المنكودة ، حيث نبرع فى فن التمثيل : هناك من يقوم بدور المرشح ، وهناك من يمثلون دور المشرفين على الانتخابات ، ومن يمثلون دور الجماهير التى تسعى

لممارسة حقها الانتخابى ٠٠وهكذا ، ألا تذكر ما جرى فى دوائر مثل – على سبيل التمثيل لا الحصر – الدقى ومدينة نصر بالقاهرة ، ودمنهور ؟

إن واحدا مثلى يقف خارج الجماعة يفترض احتمال أن يكون النظام صادقا فى موقفه من هؤلاء الناس ، باعتبارهم يمثلون خطرا على مصر ، لكنه يتمثل موقف النبى إبراهيم عليه السلام من ربه – والقياس مع الفارق – عندما قال : ربى أرنى كيف تحيى الموتى ! نبى يخاطب خالقه بهذا ٠٠إنه يؤمن بالتأكيد ، لكن المثل تعليمى : لابد من الدليل ٠٠لابد من البرهان ، فكيف أتيقن من هذا الذى يقولونه عن الجماعة ؟ ٠٠

هل يمكن أن يتخيل أحد مئات الألوف من المواطنين محرومين من أن تكون لهم جريدة أو مجلة يعبرون من خلالها عن آرائهم ، فنناقشهم ونتبين فى أى أمر صدقوا وفى أى أمر أخطأوا ، فإذا ما أخذنا منهم موقفا كان ذلك " عن بينة " وعن برهان ، وبعد ظهور الدليل ٠

فقط ، نفاجأ بمانشطات صحفية حكومية بالقبض على س وص لأنهم كانوا " ينوون " كذا وكذا أو لأنهم أرادوا كذا وكذا ، وإحالتهم إلى المحاكمة أو الاعتقال الطويل دون محاكمة ؟!

نريد أن نعرف : إلى أى حد هذا يقول الصواب وذاك لا يقول إلا باطلا ؟

لا سبيل أمامنا إلا أن نقرأ ما تقوله الحكومة عنهم ، أليس من المنطق أن نسمع هؤلاء المتهمين(إذا صح أنهم بالفعل كذلك) ؟ ليس بالضرورة أن نصدقهم ، فقط : حق التعبير لهم ، وحقنا فى الاستماع إليهم !!

وفى الوقت الذى لا يجد مثل هؤلاء الناس أى منفذ يعبرون عن طريقه عن آرائهم ، يجد فيه الذين يروجون لما يدفع إلى عُهر وفسق وفجور ، فلهم قنواتهم التلفزيونية ، وأماكنهن وحريتهم ، فإذا قبض عليهم ، كانت لهم محاكماتهم " المدنية " ومحاميهم الذين يستطيعون بكل يسر أن يخرجوهم براءة !

فى أنشطة لحزب الحكومة ضخمة تصل إلى ملايين ، يتساءل البعض : من أين كل هذا ؟ فيكون الرد الجاهز : تبرعات من أعضاء الحزب ، فهل هذا حلال هنا وحرام هناك ؟

الجواب طبعا جاهز : الأول حزب الدولة الرسمى ، والثانى جماعة محظورة ، والسؤال هو : ولماذا هى محظورة ؟ قرار كان قد صدر منذ نصف قرن من " حكومة " و " سلطة " ، لكن ، ألا يعد اختيار مئات الألوف من الناخبين لثمانية وثمانين نائبا فى البرلمان استفتاء على مدى قبول هذه الجماعة بين الناس ؟

صدقونى ٠٠٠أريد أن أفهم صدقا وحقا ، لا تزويرا وكذبا ٠٠٠علانية وبشفافية ، لا مداراة ونفاقا ، حتى أتعاطف مع النظام وأكون من السائرين فى ركابه فأعيش فى نعيم وأرفل فى الحرير ٠٠معذرة فى هذه السقطة القلمية المخالفة لما فى قلبى وعقلى ، أتدرى ما فيهما ؟ هو نفس ما فى قلبك أنت وفى عقلك أنت ٠٠

هل يمكن للشوك
أن ينبت عنبا* ؟!

إذا كان " السؤال "، أيا كان ، على وجه العمـوم يعبـر عـن اسـتهداف الوصول إلى مجهول ، فإن هناك من الأسئلة ما تكون إجابته معروفة ، ومن ثم فيكون الطرح تعبيرا عن التعجب والاستهجان مثلما يقول واحد " وهوه معقول الحداية تحدف كتاكيت " ؟

وهكذا فى طرحنا موضوعنا فى صيغة هذا التساؤل فى العنوان تعبيرا عن عجب ودهشة واستنكار من أن يتصور أحد إمكان أن ينبت الشوك شيئا غيـر الشوك ، مثلما يستحيل أن يتصور أحد أن " الحدأة " التى تعيش علـى خطـف الكتاكيت وأكلها يمكن أن تقذف لنا بكتاكيت !

تبادر إلى ذهنى هذا الأمر عندما تم الإعلان عن طلب مناقشة عدد من مواد الدستور بهدف – ظاهرى – تغييرها على أساس أن هذا من شأنه أن يؤدى إلى حراك سياسى يتجه نحو الإصلاح وتوسـيع دائـرة المـشاركة والممارسـة الديموقراطية .

ووجه الضلال فى هذا هو تصور إمكان أن يقوم النظام القائم نفسه بعملية تطوير وإصلاح ، ذلك لأنه هو نفسه سبب رئيس فى الكثير من النكبات التـى أصابت مصر فى ربع القرن الأخير ، مما تحدثنا فيه كثيرا ، وتحدث غيرنـا بأكثر مما قلنا ، حتى وقر فى أذهاننا أن مصر مصابة بفيروس خطير ارتـبط اسمه بالسلطة القائمة ، ومن ثم فإن شفاء الجسم المصرى إنما يكون بمغـادرة هذا الفيروس عن طريق مجموعة من الإجراءات والأدوية لا يقوم بها من زرع هذا الفيروس نفسه ، وإنما آخرون تكون أيديهم معقمة ، ولم يسبق لها التلوث

---

* نشر بجريدة المصريون الإلكترونية في ٢٠٠٧/١/١٠

بفيروسات سابقة .

إن الشئ المتوقع – إذا استمر الحال على هذا المنوال – أن يعيد النظام إنتاج نفسه ، ربما بثوب مختلف ، لكن يظل الجسم هو هو ، وقد تطغى مساحيق التجميل على الوجه ، وورنيش التلميع ، على رأى الأستاذ إبراهيم سعدة (أنور وجدى سابقا) فيخيل لبعض ضعاف النظر أنه تغير وتطور ، لكن بقليل من أدوات التنظيف سوف تجد الوجه البشع هو هو لم يتغير ، وإلا فهل يمكن لعاقل أن يتصور تغيير مواد دستورية بحيث يمكن أن تأتى بغير القائمين بأمر السلطة الآن ، أو بغير ما يريدون ، أو بمن يواصلون النهج نفسه ؟

ولنتوقف بعض الشئ أمام بعض ما يروجون ....

بمطلوب أن تغير المواد التى تحمل الشعارات الاشتراكية ، حيث أننا الآن – هكذا يقولون – مجتمع " ليبرالى " يؤمن بآليات السوق ، وبحق الفرد والهيئات الخاصة أن تعمل وتنتج وتفكر وتنشئ وتدير بعيدا عن سلطة الدولة .

وهذا كلام حلو ، لكن ، لا أدرى لماذا قفزت إلى ذهنى فور كتابتى هذه الجملة أغنية عبد الحليم حافظ (حلو وكداب) – لكنى لم أصدقه – ذلك لأن الفلسفات والتوجهات الفكرية الكبرى تقدم حزمة من التصورات ، كما يقود المايسترو فريق موسيقى لعزف " سمفونية " ما .. لابد من " هارمونى " ، كما يقول الموسيقيون ، ولابد من " اتساق " كما يقول أهل المنطق ، ولابد ألا نأخذ ببعض الكتاب ونكفر ببعضه الأخر ، كما يقول أهل القرآن الكريم !

فإذا كان مفهوما ، فى ظل هذا ، أن تنشط حركة بيع شركات القطاع العام ، فلابد أن يتسق مع هذا أن تكون هناك حرية فى تكوين الأحزاب ، بحيث لا يكون حزب الحكومة هو صاحب الرأى فى الموافقة والرفض لمن يتقدم بطلب تشكيل حزب جديد ، وإلا فبماذا يختلف هذا الوضع القائم عما كان عليه الأمر فى النظم الشمولية ؟

سوف تقولون ، الاختلاف يبرز فى السماح بوجود " تعددية " حزبية ، وهى أكذوبة فاقعة ، فإذا كان حزب الحكومة هو الذى يحسم ، فسوف لا يسمح إلا بمن يضعفون أمامه ، ومن لا يهددون استمرار سلطته ، ومن لا يغايرون نهجه ، لتكون النتيجة : حزب سلطة يحتكر الحكم ، وبالتالى فهو استمرار مقنع للاتحاد الاشتراكى ، ومجموعة أحزاب لا حول لها ولا قوة ، حتى إذا فلت حزب وظهرت له قوة ، تبادر أجهزة أمن الدولة بزرع الألغام التى تنفجر من الداخل ، ليظل الوضع القائم كما هو : مجموعة من الهياكل الكرتونية تقوم بدور الديكور ، وحزب وحيد وواحد تكون له سلطة الأمر والنهى والمنح والمنع ، فأى تعددية فى غياب فرص تكوين قوى معارضة تملك من الظروف والإمكانات ما يمكنها أن تحل محل الحزب القائم فتحكم ويكون هناك تداول للسلطة ، وهذا هو الوجه الحقيقى الصادق لليبرالية السياسية .

وكيف يكون هناك نظام حزبى حقيقى تحت مظلة الليبرالية ، ورئيس الدولة نفسه – وهو فى السلطة – أنشأ الحزب الذى يحكم منذ أكثر من ثلاثين عاما ؟ ما الفرق فى هذا بين هذا النظام والنظام الشمولى ؟

والسماح فقط لليبرالية أن تحكم عالم الاقتصاد ، من غير أن يكون هناك نظام حازم وحاسم للمراقبة والمحاسبة والمساءلة لا تتوافر إلا بوجود تعددية وتداول للسلطة يجعل من هذه الليبرالية وحشا ضاريا يلتهم أجساد الناس لتشبع قلة من أصحاب المال ، الذين يمكنهم أن يقترنوا بالسلطة ويغزوها ، فتكون الكارثة الحقيقية !

وما يعزز من تخوفنا هذا أن المادة المطلقة لمدد رئاسة الجمهورية غير مطروحة للنقاش ، فكيف يمكن أن تكون هناك بالتالى تعددية ، ورئيس الجمهورية يرأس حزبا معينا ؟ وكيف يكون هناك تدول للسلطة فى ظل إطلاق مدة الرئاسة التى يشغلها رئيس حزب معين لا شريك له ؟

وفى الوقت الذى يريدون فيه محو كل أثر للنهج الاشتراكى وكل ما يمت له بصلة ، يبقون على المادة الخاصة بأن يكون للعمال والفلاحين نسبة النصف لأن هذا ما ينفع أهل الحكم ، فبدون أن نقصد مساسا بهاتين الفئتين ، فهما من أعمدة المجتمع حقا ، لكن أهل السلطة عندنا يرددون قولة حق يريدون بها باطلا ، حيث يرون أن هاتين الفئتين يمكن الضغط عليهما أو التأثير فى آرائها بحيث تشكل قوة دعم وتعزيز للسلطة القائمة ، وإلا لو كانوا حقيقة يعتزون بأفرادها لما تركوا شرائح واسعة من فقراء العمال والفلاحون تسقط تحت سنابك القطاع الخاص ، ولا تحت سنابك الفقر والجوع والتهميش ، ولا ضحايا تعليم حكومى يخرب أكثر مما يبنى ، يفرغ العقول ويسطحها ، ولا يثريها وينميها ، ولا انسدادا فى أبواب الزواج والبحث عن مأوى !

وتنظر فيما يروج بعدم السماح لأى حزب أن تكون له مرجعية دينية ، فتعرف على الفور أن أهل السلطة يريدون تفصيل الدستور بحيث يمكنهم أن يسدوا الطرق أمام الإخوان المسلمين الذين تطور فكرهم فى السنوات الأخيرة وقالوا بأنهم لا يريدون تشكيل حزب دينى وإنما حزب مدنى تكون مرجعيته إسلامية .

وما تقترحه السلطة قد يستثير إعجاب البعض حيث من حق هؤلاء الذين يرون الفصل بين الدين والسياسة أن يفرحوا بهذا الاقتراح ، لكنهم لو قرنوا هذا باقتراح آخر ، لوجدوا أن نية السلطة غير خالصة لوجه الله ولوجه الوطن ، ذلك أنهم فى الوقت نفسه يطلبون الإبقاء على المادة الثانية التى تقول بأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع فى مصر ، ولو تأمل أى منا هذا جيدا ، لتساءل على الفور : وما الفرق بين هذا وما تريده جماعة الإخوان المسلمون ؟

بل إن مزيدا من التأمل يريك تناقضا صارخا بين هذا النص القائم والنص الآخر المقترح فى مادة أخرى ، فإذا كان نص المادة الثانية يقتضى أن

تكون المرجعية لنا جميعا هى الشريعة الإسلامية ، فإنه يمكن لأى محـامى أن يطعن فى شرعية أى حزب قائم لا يستند إلى الشريعة الإسلامية على أساس أنه يخالف الدستور!!

ويأبى أهل السلطة إلا أن يجعلونا كالمستجير مـن الرمـضاء بالنـار أو العكس بالنسبة لحالة الطوارئ ، فهم يريدون أن يسعدونا بإنهاء حالة الطوارئ وإلغاء القانون الخاص بها ، تلك الحال التى تفضح قوة السلطة التى تبدو وكأنها ذات سطوة ومنعة ، وأنها على العكس من ذلك قوة هشة لا تستطيع أن تعـيش إلا فى ظل حراسة مسلحة ، وعندنا فى التربية نقول أن المدرس الذى يـدخل الفصل والعصا فى يده ولا يتركها ، بأنه مدرس ضعيف الشخـصية ، خـالى الوفاض من التمكن العلمى ، مخاصم لأصول التربية والتهذيب ، بينما المدرس الناجح هو ذلك الذى يستطيع أن يضبط التلاميذ بتمكنه العلمى ، وبحسن أخلاقه ، وبقوة شخصيته ، وبحسن تعامله !

فإذا كنا نستجير من حالة الطوارئ ، لكننا على أية حال ، دائما ما لا نفقد الأمل فى أن تلغى فى يوم من الأيام ، لكنهم ، بدلا من حالة تشير باسمها إلـى أنها " طارئة " أى مؤقتة ، يمكن أن تصبح حالة دائمة ووفق قوانين وأوضـاع دستورية تقنن لإرهاب الدولة بما هو مقترح من قانون لما يسمونه " الإرهاب " ، فهى عملية " دسترة " – إكساب الطابع الدسـتورى– لحالـة الطـوارئ ، وإكساب المؤقت وضعا دائما .

ترى : هل يجروننا لحال أسوأ حتـى نـصيح جميعـا ، ونخـرج فـى مظاهرات ، مطالبين بإبقاء الحال الحاضر على ما هو عليه ، استنادا إلى منطق يقول أن " السئ " القائم هو على أية حال أرحم كثيرا من " الأسوأ " المتوقع ؟!

هل نخرج فى مظاهرات تدعو الله : ربنا إننا لا نسألك رد القضاء وإنمـا نسألك اللطف فيه ؟

فى قلبى ما يثقل عليه مما ترددت كثيرا فى البوح به ، حتى لا يتهمنا أهل السلطة بالتحريض على زعزعة النظام ، وليس هذا وحده سبب التردد فتـرة ، ولكنه كذلك ، خوفا من أن تكون ثقتنا فى شعبنا قد بدأت تهتز ، إذ كيف يحدث له كل ما سبق ، ويدبر لما هو أسوأ ويظل هكذا بلا رد فعـل ؟ ونبـادر إلـى التأكيد أننا إذا كنا نعيب على السلطة لجوءها للعنف ، فلا يمكن أن ننهى عـن خلق ونطلب مثله ، أى أننا ونحن نعبر عن أملنا فـى ألا يـستمر الاستـسلام والسكوت ، ونواصل السلبية ، تظل دعوتنا محصورة فى العديد من السبل التى لا يكون من بينها استخدام عنف مادى بأى صورة من صوره ، وهذه الـسبل كثيرة وممكنة .

حرب خاسرة *

الحرب التى أقصدها هنا ليست هى القائمة الآن فى أفغانستان أو العراق ، وإنما هى حرب أخرى تجرى هنا فى الداخل الوطنى ضد قوى إسلامية ، لا ينطلق مقالنا من أن هذه القوى بالضرورة على حق دائما وأن من يشنون عليها الحرب هم المذنبون مطلقا ، ولا هو ينطلق من عكس ذلك ، وإنما هو يحاول أن يطرح على بساط البحث والتفكير منطقا معينا لا أظن أن أحدا يمكن أن يعاند فى صحته إلا من كان بقلبه مرض أو يعانى من خلل فى التفكير .

أما هذا المنطق فهو نفسه المنطق القائم فى دنيا الحقوق والقانون ، ألا وهو أن المتهم برئ حتى تثبت إدانته ، والذى يستتبع بالضرورة أن تتاح الفرصة للمتهم أن يدافع عن نفسه .

وأنا أستثنى من حديثى هذا كل فصيل يرفع السلاح ويقتل ويخرب ويدمر ، فكل من يفعل ذلك بنفسه فهو آثم ، حتى لو كان يحمل بعض الحق ، إذ ليس من حق من يستشعر ظلما أن ينتقم بنفسه لنفسه ، فهناك سلطة المجتمع هى التى تتولى ذلك ، والمنطق الذى نستند إليه مشهور ومعروف وهو أن الفرد إذا سمح لنفسه أن ينتقم بنفسه ، لفسدت الأرض وتحول أفراد المجتمع إلى أفراد غابة فى مجتمع حيوانات .

وقد يكون غريبا أن أرجح بداية بأن ما يشنه النظام فى مصر من حرب ضد قوى إسلامية ستكون خاسرة ، بل وقد يوحى هذا الحكم المسبق بأننى على علم ودراية بالمستقبل ، وأستغفر الله أن أتنبأ بالغيب ، وإنما هو استشراف للمستقبل مبنى على استقراء التاريخ ، لأن المصيبة الكبرى فى النظم الفاسدة المستبدة أنها تغفل عن ذلك ، فتكرر ما وقع فيه سابقوها ممن ماثلهم ، فصفحات

---

* نشر بجريدة الدستور في ٢٠٠٧/٩/٢٢

التاريخ ، في كل العصور ، وفي كل الأمكنة طالما شهدت قيام مثل هذه النظم الفاسدة المستبدة ، قد يطول بها الزمن أو يقصر ، لكنها في النهايــة لابــد أن تسقط وتتدثر ، ويستمر الشعب في طريقه يواجه مشكلاته وحاضره ومستقبله ، مطمئنا إلى أن الله بالمرصاد لكل متجبر فاسد .

ويزيد من يقيننا بخسارة الحرب الحالية أنها حرب يستخدم فيهــا الســلاح بشكله المعروف ، بكل ما طرأ عليه من صور تقدم تكنولوجي ، وبين " فكر " ، ومن هنا يجئ خطأ النظام الجوهري ، وغفلته عن دروس التاريخ ، مــع أننــا جميعا نردد مثلا معروفا يقول أن الحديد لا يفله إلا الحديد ، ومــن ثــم فــإن محاربة " فكر " لا تكون إلا بفكر آخر يسعى إلى تقــديم آراء أكثــر منطقيــة وأفكار أكثر فعالية في خدمة الناس .

صحيح أن النظام له كتائب هجوم شرسة بالتوازي مع كتائــب الداخليــة الأكثر شراسة ، والفئة الأولى سلاحها القلم ، وطرح الأفكار ، لكن ما يُعــرّي هذه الفئة هو ما هو معروف من أنها " مُشتراة " ، حيث الثمن المدفوع يتبــدى في مواقع عليا ومناصب مرموقة وتلميع إعلامــي ، وجــوائز ، وســفريات ، ومكافآت ، ورضا السلطة ... إن أصحابها يعيشون رغد العيش وبحبوحته ، وفي مأمن من سجن واعتقال ومطاردة ، لكن الفريق المقابل ، على العكس من ذلك ، مطاردون ، معرضون للسجن والاعتقال ، مغيبون من أجهــزة الــرأي والإعلام ، محرومون من تولي المناصب المرموقــة ، تخاصــمهم الجــوائز والمكافآت ، فعلام يدل هذا على نوعية كل من الفريقين ؟

إن الفئة الثانية ، إذ تعاني ما تعانيــه ، فأصــحابها يعبــرون عــن روح استشهادية ، وإلا فما الذي يدفع كل فرد منها إلى أن يتحمل الاعتقال والــسجن وتشريد الأسرة ، والمطاردة المستمرة ، والخوف والرعب يحيطان بهم من كل جانب ؟ هذه النوعية التي تتحمل كل هذا في سبيل ما تؤمن به من فكر ، ليس من السهل هزيمتها ، وهي على عكس الفئة الأولى ، فئة المنتفعين ، والحُجّاب

، يستحيل أن تجد فى قلوب أصحابها نفس العزم والإصرار والقدرة على التحمل ، والجَلَد ، فطالما اللقمة فى أفواههم ، ينبحون ، فهذا هو الدافع الأساسى ، وبئسه من دافع حقا !

وإذا عدنا لما سبق أن أشرنا إليه من حيث حق المتهم فى الدفاع عن نفسه ، ولنسأل : كيف لنا أن نحكم على فريق إسلامى بهذا وذاك من التهم وهو ممنوع من التعبير عن رأيه بالقلم وباللسان ؟ إن كل ما هو متاح لهم لا يخرج عن تصريحات تجئ من خلال مقابلة صحفية أو تلفزيونية (من الخارج طبعا) ، وهذا أمر آخر يختلف كثيرا عن قنوات طرح الفكر ومناقشة الرأى ، والتفاعل العقلى •

إن سبيل ذلك هو أن يكون للفريق مطبوعاته الدورية ، مثل الصحف والمجلات ، يطرح على صفحاتها ما يراه أفراده ، ليقرأها غيرهم ويعارضوا ما جاء فيها ما شاء لهم منطق المعارضة ، لكن هذا الفريق محروم من ذلك ، فتظل آراؤه حبيسة عقله وصدره وقلبه ، فلا تجد فرصة المواجهة المقابلة ، إذ ربما بالفعل هم مخطئون فى كذا أو كذا ، فيكون الطرح العلنى ومواجهته بطرح علنى مثله فرصة للجميع ، فرصة لأصحاب الفريق المعنى أن يراجعوا باستمرار ما يفكرون فيه ، فجل من لا يسهو ، ولا أحد معصوم من الخطأ ، وربما يرى " الآخر " رأيا يعجبه فيكتسب الحق سعة انتشار ، لكن هنا مربط الفرس ، فالمنع والمطاردة من ساحة النشر ، ينطلق من خوف من زيادة عدد المناصرين والتابعين !!

وحرمان أفراد هذا الفريق من تولى أى موقع يحرمهم من فرصة أن تجد أفكارهم فرصة للتطبيق ، فيتم كشف خطئها فيتخلوا عنها ، مثلما حدث من بعض أفرادها حينما انتهجوا سبيل العنف المسلح فكان ما كان من آثار سيئة ، فتخلوا عن هذا النهج منذ نصف قرن على وجه التقريب • وقد يحدث العكس ، بحيث يؤدى التطبيق إلى تحسن فى العمل وتطور فى الأداء فيكسب المجتمع

ويكسب الفكر ، وهنا يتبدى لنا الدافع من المنع فى هذا المجال وهو الخوف من أن تعرف أفكار هذا الفريق الطريق إلى تطبيق عملى

وهكذا يكون الحرمان من سبيل التعبير ، ومن سبيل التطبيق ، ومع ذلك ، تجد البرامج الإذاعية والتلفزيونية والمقالات الصحفية تنهال على أصحاب هذا الفريق بالنقد والتجريح بناء على تأويلات وتفسيرات ، الله وحده أعلم بما فيها من افتراء فى الغالب وسوء فهم فى بعض الأحوال ، ومحاسبة على نوايا ، واحتمالات ، واستناد إلى نماذج أخرى فى الخارج تختلف ظروفها اختلافا كبيرا عن ظروفنا فى مصر . وكما أشرت ، فإن المساحة المتاحة للفريق لا تتعدى أحاديث صحفية أو تلفزيونية ، وهذا أمر يختلف – مرة أخرى – عن الكتابات المتخصصة فى وسائل النشر العلنية .

ولعل ما يمكن الإشارة إليه من " تهم " هو أن اتجاه هذا الفريق إتجاه شمولى استبدادى ، لا يؤمن بالديمقراطية وحرية الآخرين ، وأن ما يدعونه من قبل باللعبة الديمقراطية إنما لكسب القوت ، حتى إذا تمكنوا انقلبوا على هذه الديمقراطية !

وفى ذلك مفارقة منطقية عجيبة حقا ، يتهمونهم بأنهم لا يطيقون السماح لغيرهم بحرية التفكير ، فهل أنتم تتيحون لهم هذا الحق ؟ لقد همس لنا السابقون : لا تنه عن خلق وتأتى مثله !!

ولا أدرى حقا من الذى يمارس على الآخر قهرا واستبدادا وإقصاء ؟ فالإسلاميون هم الذين يُعتَقَلون ويُسجَنون ، وهم الذين تمتلىء بهم ساحات المحاكم فى أحسن الأحوال ، وهى محاكم غير عادية ، كما تقضى بذلك أبسط قواعد العدل ، ويزج بهم من غير محاكمات فى معظم الأحوال ...فمن الذى يعادى الديمقراطية ؟ وإذا كان الرد هو أن ما يتم ضد هذا الفريق هو لحماية المجتمع من شرور أفكارهم ، عدنا إلى التساؤل : أليس هذا هو نفسه ما تعلنون أنكم تخافون من أن يفعلوه معكم إذا وصلوا إلى الحكم ؟

كلنا نذكر ما حدث فى الانتخابات الجزائرية فى أول التسعينيات من القرن الماضى ..كان اختيار جماهير الشعب لإسلاميين ، ثم إذا بالقبضة الحديدية تنقض كالإعصار لتلغى إرادة الجماهير واختيارها ، بدعوى حماية الديمقراطية! كيف نزرع شوكا انتظارا لأن يطرح عنبا ؟ كم خسر الشعب الجزائرى أرواحا ومنشآت وأموالا نتيجة مصادرة اختيار جماهير الناس نفسها ؟ ومن هذه الذى يملك البصر والحكمة فيرى فى نفسه الحق والصدق ، وأن أغلبية الشعب الجزائرى أخطأت باختيارها لإسلاميين ؟

والشئ نفسه بالنسبة للشعب الفلسطيني ، فوفق انتخابات ديمقراطية حرة حقا كان اختيار قوة إسلامية ، فماذا كانت النتيجة ؟ القصة طويلة ، والنتائج معروفة ، ووصلت إلى حد ضرب الحصار والتجويع لمئات الألوف ، ومنع المؤن أن تمر ومنع الكهرباء ، والقتل ، ومنع الأموال ، والعكس بالنسبة للفريق الذى لم يختره الشعب الفلسطينى ، تتدفق عليه الأموال والهدايا وصور المديح التى لا تنقطع والمؤازرة ، فمن الذى يقف فى وجه الديمقراطية ؟

إنه نفس المنطق الديمقراطى فى " أثينا " الإغريقية القديمة ، حيث كانت الحرية والديمقراطية فقط لمن كانوا يسمونهم الأحرار ، أما العبيد فلا يستحقون ذلك !

وهل ننسى ما حدث فى مصر ؟

جماهير غفيرة من الشعب المصرى اختارت ثمان وثمانين من أفراد فريق إسلامى ، مع هو معروف أن نجاحهم كان وكأنه اقتناص فريسة من فم الأسد ، وكان يمكن أن ينجح ضعف هذا العدد لو لم تكن حرب شرسة ومنع للناخبين من وصولهم إلى مقار اللجان ، فضلا عن التزوير ، لكن الحرب استعرت ضد هذا الفريق ..كأن أولى الأمر يعاقبون الفريق على اختيار الناس لهم ، فمن إذن هو الذى يخشى منه على الديمقراطية حقا؟

لقد أضحكنى أحد كتاب الفريق الحكومى عندما نفى بشدة أن يكون عـدد أفراد هذا الفريق كبيرا ، وقطع الرجل بأنهم قلة ، مع أنه لا يملـك إحـصاء ، فكيف له أن يقطع بقوة وعلو صوت ؟ ثم يبرر ما لهم حضور شديد " صـحيح أنهم قلة ، لكنهم منظمون " ! ولِم لم يُنظم الآخرون أنفسهم ليصبحوا هم أيضا قوة يحسب لها ألف حساب ؟ هل منعهم أحد وهم المـؤازَرون مـن الدولـة ، ويملكون المال والقانون ، وتفتح لهم صفحات الصحف وقنـوات التلفزيـون ، وبعيدون عن المطاردة الأمنية ؟

إن القوة التى لهؤلاء الناس " المغضوب عليهم " لا تكمـن فـى أنهـم " مُنَظّمون " ، ولكنها قوة تكمن فى " الفكرة " ، وفى نوعية هذا الإنـسان الـذى يحمل هذه الفكرة ، ومن هنا يجئ قوله سبحانه وتعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) ، وإذن الله هذا هو " السنة " أو القانون : من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره !

هل يبدأ الغروب الأمريكى* ؟

أعلم علم اليقين أن سياسات الدول الكبرى ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية تختلف اختلافا جذريا عن دولنا المتخلفة ، فلا تتغير سياستها الخارجية بناء على تغير الحاكم ، أو اهتزاز قبضته ، ذلك أن الحقيقة تؤكد أن ليس " فلانا " ، المتصدر للحكم هو المنفرد وحده بالأمر ، فهناك مستشاروه ، ومعاونه ، والذين يتم اختيارهم بعناية شديدة للغاية ، وهناك أجهزة الإعلام القوية ذات السطوة والنفوذ ، وهناك البرلمان ...وهناك ...وهناك من منظمات وهيئات ومؤسسات تقف بالمرصاد والمراقبة والمحاسبة ...

كان خروتشوف الرئيس الأسبق لما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى فى الخمسينيات ، معروفا بسلاطة اللسان ، وفى زمنه كانت انتخابات الرئاسة الأمريكية تجرى بين مرشحين للحزبين : الجمهورى والديموقراطى ، لا أذكرهما مع الأسف ، وسأل صحفى خروتشوف عن الفرق الذى يراه بين المرشحين الجمهورى والديموقراطى ؟ فكان رده : هو نفس الفرق بين " فردة الجزمة اليمين وفردة الجزمة الشمال " !!

وأدرك كذلك أن انهيار الامبراطوريات والدول الديناصورية ، و نموذجها البارز الولايات المتحدة الأمريكية ، لم يعد مثلما حدث لامبراطورية اليابان فى الحرب العالمية الثانية ، ولا لألمانيا ، ولا للاتحاد السوفيتى ، مما يمكن أن يتم فى أسابيع أو حتى شهور ، وإنما لابد – فى حالتنا الراهنة – من مرور سنوات ، ذلك لأننا هنا حقيقة لسنا فقط أمام ديناصور عسكرى ، أو امتداد جغرافى شاسع ، وإنما أمام درجة عالية من التفوق فى مجالات شتى ، ربما يأتى الجانب العسكرى فى نهايتها ..التفوق العلمى والتقنى والاقتصادى والثقافى

---

* نشر بجريدة المصريون الإلكترونية ، في ٢٩/١١/٢٠٠٦

والاجتماعى ٠٠٠هو تفوق " حضارى " ، مما يمتد إلى مختلف خلايا الجسم الاجتماعى ، على الرغم مما يمكن أن يشار إليه من علل وأمراض وعوامل سلبية ومظاهر انحراف ، ومثل هذا البعد لا يضعف بسرعة ٠

لقد سبق لأمريكا أن لملمت جيوشها من فيتنام عندما تأكد لها أن الانتصار مستحيل ، وكانت فضيحة تاريخية ، تكشف عن عجز أكبر قوة فى العالم أن تهزم هذه الدولة التى تضم حشودا من الحفاة الذين يسكنون الكهوف والمغارات ، لكن الذى حسم القضية ، هو أننا كنا بإزاء مواجهة بين شعب يدافع عن أرضه وتاريخه وثقافته ونهجه فى الحياة ، وتصميم على المقاومة ، وبين غاز قاهر يأتى من على بعد آلاف الكيلومترات ، كى يستغل ويغزو ٠

ومع هذه الهزيمة ، لم يقل أحد أنها بداية الغروب الأمريكى ، ذلك أن العكس هو الذى حدث ، هو استمرار القوة الأمريكية فى التصاعد منذ أواخر الستينيات ٠٠٠

لكننا اليوم أمام موقف مختلف ٠٠

فالهزيمة الثانية فى تاريخ مثل هذه القوة العظمى يمكن أن تعنى أشياء كثيرة ، أقل ما فيها أن تكون جرس إنذار لهذه القوة الباغية ، أن تكف بطشها ، وتوقف تمددها ، وهذا فى حد ذاته يمكن أن يكون فرصة لقوى أخرى فى النمو الظهور ٠٠٠

وفضلا عن ذلك ، فإنها سُنّة التاريخ البشرى ، من حيث شروق حضارة ، ثم غروبها لتفسح الطريق لبزوغ حضارة أخرى ٠

إن ما حدث فى انتخابات الكونجرس الأمريكى كان تعبيرا عما كنا – وكثير غيرنا – يردده عن البغى الأمريكى فى العراق ، وأن كل الادعاءات التى استند إليها الأمريكان لغزو العراق قامت على الغش والخديعة حقا ٠٠٠

حتى ما ادعوه من سعى لنشر الديموقراطية قد انكشف عن دمار وتخريب وسحل وتعذيب وفوضى ودماء تسيل كل يوم ٠٠

كذلك ما ادعوه من وحشية نظام صدام حسين ، توارت أمام ما أصبح العراقيون يعيشونه منذ وطئت أقدام الأمريكيين أرض العراق .

لقد سبق أن أعلن بوش ، بعد شهور من الغزو أنهم قد انتصروا ...وبعد عامين وثلاثة تغيرت اللهجة ، فإذا بهم يتحدثون عن " متاعب " و " مشكلات " ، و " الوضع الصعب " ...وها كل التقارير الصادرة من عندهم هم تؤكد أن الانتصار لم يتم ، وأن لابد من الانسحاب . صحيح أن هناك قدر من المكابرة بالنسبة للانسحاب ، لكن هذه الكلمة بدأت تعرف طريقها في الكثير من التعليقات والاقتراحات ...

فتأكيدا لتزايد المعارضة لاستمرار الوجود الأمريكي في العراق وقع مئات العسكريين الأمريكيين عريضة تدعو إلى انسحاب قواتهم من العراق ، على أن يتم تقديمها إلى الكونجرس في يناير المقبل. وتأتي هذه الحملة بناء على مبادرة عسكريين في منطقة نورفلك بولاية فرجينيا الأمريكية ، ولم يكشف الموقع الإلكتروني الذي نشر نص العريضة عن أسماء موقعيها بسبب القيود المفروضة على تعبير العسكريين عن آرائهم . وتؤيد هذه الدعوة العديد من المنظمات المناهضة للحرب مثل قدامى المحاربين وقدامى المحاربين من أجل السلام .

ويذكر أن القانون الأمريكي يسمح للعسكريين بالتعبير عن اعتراضهم على تصرفات قادتهم لدى نوابهم فقط في الكونجرس .

وقد أشار العسكريون الأمريكيون في عريضتهم إلى أنهم يؤيدون الانسحاب السريع لجميع القوات والقواعد العسكرية الأمريكية في العراق لأن البقاء هناك غير مجد ولا يستحق الثمن الذي يدفعونه .

وكما كتب " عزت إبراهيم " في أهرام ١١/٩ فقد أظهرت الاستطلاعات أن الفساد السياسي والإرهاب والوضع في العراق والاقتصاد هي القضايا الأربع الرئيسية التي دفعت الناخبين إلى صناديق الانتخابات هذه المرة ، بل للمرة الأولى تتصدر القضايا القومية اهتمامات الناخبين مقارنة بالقضايا المحلية

التى سيطرت على الناخبين فى الماضى • وعـرف النـاخبون الفـساد بأنـه الممارسات الفاسدة للجمهوريين فى السلطة ، وبلغ حجـم الاهتمـام بالقـضايا القومية ٦٢% ، مقابل ٣٣ % للقضايا المحلية ، وهو تحول سيكون له تـأثير كبير على انتخابات الرئاسة فى عام ٢٠٠٨ • وقد حصل الفساد على اهتمـام ٤٢ % من الناخبين ، والإرهاب على ٤٠ % ، والاقتصاد ٢٩ % ، والعـراق ٣٧ % فى استطلاع مجلة نيوزويك ، بينما قال ٦١ % من الناخبين لقناة فوكس نيوز المحافظة إن العراق يمثل أهمية قصوى لهم •

وقد اتضح تأثير العراق بعد أن استخدم الديموقراطيون عبارة بـوش عـن الإبقاء على الوضع فى العراق بطريقة تؤكد أن الجمهوريين يعاندون لأنهـم لا يعرفون كيف يهزمون الجماعات المسلحة أو الإرهابية ، كما أنهم لا يعرفـون كيفية التخطيط لانسحاب لا يلحق ضررا بالغا بمكانة وأمن الولايات المتحدة •

وكان من أول آثار الهزيمة لسياسة بوش تقديم رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى لاستقالته ، ورامسفيلد هو المهندس الكبير لسياسة الأمريكية العسكرية ، والتى تمثلت فى غزو العراق وغزو أفغانستان ، وفضائح التعذيب التى حدثت فى سجن أبو غريب ، وفى معسكر جوانتنامو •

وعلى الرغم من ترحيبنا الكبير بذهاب رامسفيلد إلى الجحـيم ، لكننـا لا نستطيع أن نخفى إعجابنا بمثل هذا السلوك الحضارى العظيم : المسئول الـذى يثبت فشله ، لابد أن يرحل ! وهو ما لا تعرفه نظمنا الغبية فى العالم العربـى ••لأن المعيار الوحيد للاختيار والإقصاء : رضا من يقف على قمـة النظـام وحاشيته ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، يعرفها القاصى والدانى •

وبدأت أنهر الصحف الأمريكية فى التعليق على الفشل الجمهورى ، فقـد أشارت صحيفة الواشنطن بوست إلى نهاية حقبة حكم الحزب الواحـد ، وتعـد هذه النهاية الصاعقة – كما قالت الصحيفة – بمثابة وضع الرئيس الأمريكـى على حافة تغيير سياساته خاصة فى العراق •

وأضافت أنه لم يعد هناك مجال للمناورة لدى بوش ، خاصة أن الانتخابات أوضحت محدودية نظرته المحافظة التى عمل على تأسيسها مع مستشاره السياسى كارل روف .

وقالت " نيويورك تايمز " أن " بندول " الناخب الأمريكى انتقل بعيدا عن اليمين فى الانتخابات ليضع نهاية واضحة وثورة ضد حكم الجمهوريين الذى استمر ١٢ عاما .

وأضافت الصحيفة أن الديموقراطيين عادوا لكل بيت وحصلوا على تفويض ضد سياسات بوش ، الذى سيواجه معارضة قوية لإعادة تقييم سياساته فى العراق ، وكذلك الداخلية ، وحتى داخل الحزب الجمهورى .

لقد كانت كثير من المؤشرات تشير إلى أن هذا الزحف المتوحش على الشعوب لابد أن يتوقف ..

فلقد بشروا بأن مقتل أبو مصعب الزرقاوى سوف يؤدى إلى تراجع المقاومة العراقية ، ولم يحدث هذا ، بل على العكس من ذلك ، فإذا بعدد القتلى من جنود الغزو الأمريكيين يتجاوزون المائة فى شهر أكتوبر وحده ..

وهذه أفغانستان التى بدت بعد الغزو الأمريكى وكأن المقاومة قد انتهت ، وأعلن انتهاء حقبة " طالبان " ، فإذا بالحياة تعود للمقاومة الأفغانية ، وإذا بنا نرى نجاحات ، مهما كانت ضئيلة ، لكنها " بشرة خير " على أن المقاومة الأفغانية ما زالت على قيد الحياة .

وكان الشيطان الأكبر يخطط ليتخذ من لبنان نقطة انطلاق على سوريا ، ومزيدا من التحكم فى الشرق الأوسط ، فإذا بالمقاومة الباسلة لحزب الله تفشل المخطط

وها هو " اورتيجا " فى أمريكا الجنوبية يفوز وينضم إلى " شافيز " ، فيزادا بذلك معسكر المقاومين للبغى الأمريكى ...وإن غدا لناظره قريب !

للمؤلف

١. الفلسفة ، للصف الثالث الثانوى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٦٨
٢. المجتمع المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢
٣. دراسات فى التربية والفلسفة ، عالم الكتب ، القاهرة ،١٩٧٢
٤. تدريس المواد الفلسفية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢
٥. التربية اليهودية الصهيونية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤
٦. قضايا التعليم فى عهد الاحتلال ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٤
٧. الأزهر على مسرح السياسة المصرية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، وصدر فى طبعة أخرى فى سلسلة كتاب الهلال ، دار الهلال ، ١٩٨٦ بعنوان : (دور الأزهر فى السياسة المصرية ، مع بعض التعديلات .
٨. أصول التربية الإسلامية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، وأعيد طبعه ، مع بعض التغييرات ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣
٩. التصور النبوى للشخصية السوية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩
١٠. أوضاع المربين العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩
١١. التعليم الثانوى ، الواقع والمستقبل ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩
١٢. نشأة التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩
١٣. دراسات عن التعليم فى المملكة العربية السعودية (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠

١٤. دراسات فى اجتماعيات التربية ، (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، وكان قد صدر (بالاشتراك مع آخرين) بعنوان : التربية ومشكلات المجتمع عام ١٩٧٣ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية
١٥. دراسات فى فلسفة التربية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١
١٦. المدخل إلى العلوم التربوية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١
١٧. ديموقراطية التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ (صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٤ ، عن دار نشر الثقافة ، بالقاهرة) .
١٨. دراسات فى التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢
١٩. تجربة ثورة يوليو ١٩٥٢ (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣
٢٠. الأصول السياسية للتربية (بالاشتراك) ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ثم صدرت طبعة منفردة مع تغييرات جذرية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧
٢١. النبات والفلاحة والرى عند العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ثم صدرت طبعة ثانية ، مزيدة ومنقحة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٦
٢٢. تطور إعداد معلم المرحلة الأولى فى مصر (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣
٢٣. محنة التعليم فى مصر ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٤
٢٤. معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، وكانت قد صدرت منه طبعة مختصرة عام ١٩٧٨ ، عن دار نشر الثقافة بالقاهرة

٢٥. إنهم يخربون التعليم ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٦
٢٦. الفكر التربوى العربى الحديث ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧ ، ثم صدرت طبعة ثانية ، مزيدة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٦
٢٧. بحوث فى التربية الإسلامية ، مركز تنمية الموارد البشرية ، القاهرة ، ١٩٨٧
٢٨. تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، القاهرة ، ١٩٨٩
٢٩. الأمن التربوى العربى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩
٣٠. هموم التعليم المصرى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩
٣١. هوامش فى السياسة المصرية ، الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٩٠
٣٢. اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩١
٣٣. تعميم التعليم الابتدائى فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١
٣٤. محو الأمية وتعليم الكبار فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١
٣٥. الأصول الإسلامية للتربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٢
٣٦. دراسات فلسفية (بالاشتراك) ، للصف الثالث الثانوى (المستوى الرفيع) / وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٢
٣٧. نظرات فى الفكر التربوى ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٢
٣٨. رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣
٣٩. التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، وصدرت طبعة أخرى موسعة ، الناشر نفسه ، ١٩٩٩

٤٠. مقدمة فى التأريخ للتربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ثم أعيد طبعه موسعا عام ١٩٩٩ ، الناشر نفسه
٤١. التربية فى الحضارة اليونانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥
٤٢. سقوط تربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥
٤٣. فلسفات تربوية معاصرة ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٩٥
٤٤. التربية علم له أصول ، دار أخبار اليوم ، سلسلة كتاب اليوم الطبى ، القاهرة ، ١٩٩٥
٤٥. التعليم فى مصر ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، نوفمبر ١٩٩٥
٤٦. التربية فى الحضارة المصرية القديمة ، عالم الكتب ، القاهزة ، ١٩٩٦
٤٧. سياسة التعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦
٤٨. التربية العربية فى العصر الجاهلى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، كانت الطبعة الأولى منه بعنوان (تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية) ، الناشر نفسه ، ١٩٧٩
٤٩. التعليم والخصخصة ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، الأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٦
٥٠. - التربية عند بنى إسرائيل ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧
٥١. التربية التحليلية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧
٥٢. البناء القيمى فى مجتمع الكويت (تحرير) ، الديوان الأميرى ، مكتب الإنماء الاجتماعى ، الكويت ، ١٩٩٧
٥٣. التعليم على أبواب القرن الحادى والعشرين ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨
٥٤. التربية (بالاشتراك) لمعلمى التعليم الفنى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٨

٥٥. عرب فى قاع الزمن عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩
٥٦. شجون جامعية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩
٥٧. رؤية سياسية للتعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩
٥٨. نظرات فى التربية الإسلامية ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ١٩٩٩
٥٩. دفتر أحوال التعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩
٦٠. مستقبل التعليم قبل الجامعى فى مصر ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الأهرام ، سلسلة كراسات استراتيجية (٨٣) ، القاهرة ، ١٩٩٩
٦١. الأصول الفلسفية للتربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠٠
٦٢. القرآن الكريم ، رؤية تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠٠
٦٣. فقه التربية ٢٠٠٠، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠١
٦٤. السنة النبوية ، رؤية تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠٢
٦٥. تراث طه حسين فى التعليم (دراسة وتحرير) ، دار الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٢
٦٦. نشأة الفكر التربوى وتطوره ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٢
٦٧. ثقافة البعد الواحد ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٣
٦٨. التعليم والتنشئة السياسية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٣
٦٩. مماليك هذا الزمان ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٣
٧٠. تجريف العقول ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٤
٧١. التربية الإسلامية (بالاشتراك) ، الرياض ، مكتبة الر شد ، ٢٠٠٤
٧٢. التعليم فى ظلال ثورة يوليو ١٩٥٢ ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥
٧٣. التعليم والهوية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥
٧٤. الخطاب التربوى الإسلامى ، الدوحة كتاب الأمة (١٠٠) ، ٢٠٠٥
٧٥. تجديد العقل التربوى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥

٧٦. العدل التربوى وتعليم الكبار ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥

٧٧. تعليمنا بين الأمس والغد ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥

٧٨. الحركة الفكرية فى التربية الحديثة (ج. نيللر)، مترجم ، بالاشتراك ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ٢٠٠٥

٧٩. أصول التربية الإسلامية ، القاهرة ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ودار السلام ، ٢٠٠٥

٨٠. هاؤم اقرءوا كتابيه (قصة حياة أستاذ جامعى) ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٦

٨١. أصول التربية العامة ، عَمان ، دار المسيرة ، ٢٠٠٦

٨٢. أصول التربية الإسلامية ، عَمان ، دار المسيرة ، ٢٠٠٦

٨٣. التربية الوالدية ، رؤية إسلامية ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ٢٠٠٦

٨٤. التطور الحضارى للتربية ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ٢٠٠٦

٨٥. التربية الإسلامية وتحديات المستقبل ، القاهرة ، دار السلام ، ٢٠٠٦

٨٦. النزعة العقلية فى الفكر التربوى الإسلامى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٦

٨٧. نحو استراتيجية لتطوير التعليم الجامعى ، القاهرة ، الأهرام ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، ٢٠٠٧

٨٨. عسكرة التعليم ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٧

٨٩. ثقافة الإصلاح التربوى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٧

٩٠. التخطيط للكتب المدرسية (دوجلاس بيرس) ترجمة بالاشتراك مع محمد الألفى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٧

٩١. اجتماعية المعرفة في الفكر التربوى الإسلامى ، القــاهرة ، عــالم الكتب ، ٢٠٠٧
٩٢. اختراق العقل الإسلامى ، االقاهرة، عالم الكتب ، ٢٠٠٧
٩٣. الحوار ، ثقافة ومنهجا ، القاهرة ، دار السلام ، ٢٠٠٧
٩٤. التربية السياسية للأطفال ، القاهرة ، دار السلام ، ٢٠٠٧
٩٥. كيف نربى أبناءنا ؟ القاهرة ، دار أخبار اليوم ، سلسلة كتاب اليــوم الطبى ، ديسمبر ٢٠٠٧
٩٦. التربية الإسلامية والنهوض بالأمة ، القاهرة ، دار الفكر العربــى ، ٢٠٠٨
٩٧. الإسلام والغرب ، تعايش أم صراع ؟ القاهرة ، دار الفكر العربى ، ٢٠٠٨
٩٨. الفساد فى التعليم ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨
٩٩. واتعليماه ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨
١٠٠. ثقافة المقهورين ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨
١٠١. جامعات تحت الحصار ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨

فهرست

الدكتور سعيد إسماعيل على

ثقافة المقاومة

عالم الكتب



ISBN 977-232-673-6

www.alamalkotob.com